



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري، تيزي - وزو

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها.

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه

التخصص: لغة وأدب عربي

الفرع: لغوي

إعداد الطالبة: عقيلة لعشبي

المدرسة النحوية المغاربية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري.

لجنة المناقشة:

- أ.د عبد القادر صلاح: أستاذ التعليم العالي . جامعة تيزي وزو.....رئيسا
أ.د صالح بلعيد: أستاذ التعليم العالي . جامعة تيزي وزو..... مشرفا ومقررا
أ.د عبد المجيد سالمى: أستاذ التعليم العالي . جامعة الجزائر 2.....ممتحنا
د. بوعلام طهراوي: أستاذ محاضر "أ" . جامعة البويرةممتحنا
د. حسنية عزاز: أستاذة محاضرة "أ". جامعة سيدي بلعباسممتحنة
د. جميلة راجاح: أستاذة محاضرة "أ". جامعة تيزي وزوممتحنة

تاريخ المناقشة: 2018-07-01.

كلمة شكر:

أولاً وقبل كل شيء أشكر الله عزّ وجلّ على فضله ونعمه عليّ، ثمّ أتقدّم بالشكر الجزيل إلى جامعة مولود معمري بتيزي وزو المعطاءة، وعلى رأسها أستاذنا الفاضل الدكتور صالح بلعيد الذي كان لنا خير معلّم ومرشدٍ وموجّهٍ بروحه الطيّبة الجميلة، وأهدي هذا العمل إلى عائلتي الكريمة وأصدقائي وإلى القارئ الكريم.

عقيلة لعشبي.

المقدّمة

المقدمة: وقع اختياري على موضوع خصب في الدراسات النحوية القديمة يتناول نشاط

المغاربة واجتهاداتهم في النحو العربي، من عصر المرابطين في القرن الخامس الهجري إلى سقوط دولة الموحدين في القرن السادس، وظهور الدويلات الثلاث: الحفصية والزيرية والمرينية بالمغرب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى، التي يسميها ابن خلدون بزناطة الطبقة الثانية، واستصغت له عنوانا هو: (المدرسة النحوية المغربية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري)، وهو موضوع بكر لم ينل القدر الكافي من اهتمام الباحثين المغاربة والمشاركة على حدّ سواء، رغم فضل المغاربة في بناء النحو العربي وتطويره، كما أنّه موضوع اعتزاز بأسلافنا العلماء المغاربة.

وحددت مسار الدراسة في أربعة قرون بدءا بالخامس إلى أواخر الثامن الهجري كون هذه الفترة ازدهرت فيها الدراسات اللغوية والدينية، وحتى العلوم العقلية، في المغرب الإسلامي، خاصة بعد سقوط بغداد؛ إذ أنشئت فيها الرباطات والجوامع والمدارس والحوضر على امتداد كلّ المدن من برقة إلى طنجة ومن بحر الروم إلى براري الصحراء بأقصى الجنوب، وهي مؤسسات تعليمية ركزت الدعائم لظهور نشاطات علمية في مختلف العلوم على أسس قوية، ونبع منها علماء أكفاء نحاة وأدباء وفقهاء وقضاة وأطباء ورياضيون وفلكيون وغيرهم في علوم الأوائل. فالقرنان الخامس والسادس الهجريان يعدّان فجر النهضة العلمية في مختلف العلوم والمعارف في هذه البلاد، وذلك في فترة حكم المرابطين والموحدين من بعدهم والذين لهم فضل كبير في تنمية المعارف في مختلف العلوم، أمّا قبل ذلك فلم يشهد المغرب الإسلامي حركة علمية جادة، وذلك بسبب تدهور أوضاعه السياسية وانقسامه إلى دويلات صغيرة تحاول كلّ منها توطيد أركانها وتقوية سلطانها ونفوذها المذهبي. وقد وصف العلماء الفترة التي سبقت القرن الخامس الهجري من حياة المغرب بالسذاجة البدوية والفطرة الإسلامية؛ إذ لم يعن المغاربة فيها بغير شؤون السياسة، فشبهت تلك الفترة بالعصر الأموي في المشرق الذي لم يعن بغير شؤون السياسة والدين، ولم يكن له كبير اهتمام باللغة والأدب والعلوم، وكان يستعدّ للدخول في غمار الدولة العباسية كذلك كان الشأن للمغاربة

الذين كانوا يستعدّون للقرن الخامس بعدما ترسّمت اللغة العربيّة في الدواوين، وترسّخت على الأفواه، ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقرّت الأوضاع العامة، دخلوا في عصرٍ جديدٍ بخطى ثابتة نحو التقدّم والكمال كان عنوانه الازدهار في كلّ فنون المعرفة.

واستطاع نحاة هذه الفترة نسج درس نحوي ميسّر خال من التعقيد والخلافات، بسيط العبارة ومتمين التعريف، حتى صار نوعا من الترف العلمي والاجتماعي يتباهى به العام والخاص في مجالس العلماء والأمراء وأسواق العلم، كما استطاعوا تأليف عدد مهمّ من المؤلّفات في النّحو التعليمي للناشئة، وفي النّحو العلمي التخصصي للمتعلّمين في أغوار علم النّحو ذاع صيتها في مختلف المدن المغاربيّة وغدت أيضا مرجعا للكثير من النّحاة المشاركة المشهورين كالدرّة الألفيّة والجزوليّة وغيرها. وقد زاد من مكانة النّحو والاهتمام به بالمغرب الثلاثة هجرات الأندلسيين المتواليّة إليها بعد تدهور أحوال بلادهم دينيا وسياسيا بسبب التدخّل المسيحي لممالك إسبانيا لاسترجاع الفردوس المفقود منها ما جعل ملوك الأندلس يستنجدون بالأمراء المغاربة لأكثر من مرّة، فلأندلسيين فضل كبير في ازدهار الدراسات النّحويّة بالمغرب الإسلامي إلى حدّ كبير.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأطروحة تعرض جهود النّحاة المغاربة، الذين هم من أصول مغاربيّة، في المغرب الثلاثة أعني المغرب الأدنى (تونس) والأوسط (الجزائر) والأقصى دون الأندلس، لذا فتسميّة المغرب الإسلامي في هذا البحث أقصد بها المغرب الثلاثة دون الأندلس.

وأطلقت على هذه الجهود مصطلح (مدرسة) حين رأيت اصطباغ منهجها بمنهج موحّد ومذهب خاص وهو التيسير ووضع المنظومات التعليميّة وكثرة الشروحات، واخترت هذا الموضوع حين رأيت الكثير من البحوث تناولت نحو البصرة ونحاتها، ونحو الكوفة ونحاتها ونحو مصر والشام والأندلس ونحاتهم فأردت أن أبحث عن نحاة المغرب ونحوهم لأملأ الفراغ الذي تمثّله هذه المنطقة في المكتبة العربيّة ولو بقليل لأنّها لم تكن أقلّ شأنًا من غيرها، فتكفيها شهادة جمال الدين محمد بن مالك تـ672هـ في مقدّمة ألفيّته حين ثنى

على يحيى بن معطى المغربي تـ628هـ لأنّه منه غرف، وتكفيّنا شهادة أشهر رحالة أندلسيّ أبي الحسن محمد بن جبّير تـ614هـ الذي ساه في ممالك العالم فقال حين زار المغرب "لا إسلام إلّا ببلاد المغرب"، وسياسيا تكفيّنا شهادة صلاح الدين الأيوبي تـ589هـ حين استنجد بالمنصور الموحّدي المغربي تـ595هـ لإنقاذ الشام والقدس من غزو الروم لهما بأسطوله البحري الضخم آنذاك... ناهيك عن ملوك الأندلس وعامتها في ذلك.

ومن أجل هذا يشرفني أن أعرض في هذه الأطروحة نحاة المغرب الإسلامي وجهودهم في تطوير النّحو ومؤلفاتهم النّحويّة وأن أبحث عن تراثهم المجيد، وتساءلت قبل ذلك عن: أسماء هؤلاء النّحاة، وكتبهم وطرائق تأليفهم، ونشاطاتهم وتوجيهاتهم للشواهد وأصولهم النّحويّة، وهل كان لهم مذهب خاص يميّزهم عن سائر المذاهب الأخرى، وأشير إلى أنّي حاولت اقتصار الحديث عن النّحاة المغاربة فقط، من أصول مغربيّة ولم أقف على النّحاة الذين اشتغلوا بالنّحو تأليفا بالمغرب الثلاثة من أصول غير مغربيّة كالأندلسيّة مثلا.

واستدعى مني موضوع الأطروحة اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، وهو منهج يعتمد على وصف الظواهر النّحويّة من قواعد وأصول ومصطلحات وتحليلها لشرحها في كتب المغاربة النّحويّة، ولما كانت هذه كثيرة في كتبهم فقد ارتأيت أن أرد بعضها وذلك لصعوبة تتبّع كلّ مؤلّفات المغاربة الكثيرة وآرائهم الاجتهاديّة التي لا تعدّ ولا تحصى، وقد أوردت بعضا من نماذجها وأبرزت خصائصها الكثيرة والتي كان من أهمّها: نظم النّحو وتيسيره مع ما له من سلاسة العبارة ومثانة التعريف، والتي حصل لها أثر واضح في مصنّفات المتأخّرين من المصريين والأندلسيين، كما استدعى مني الموضوع اتّباع أيضا المنهج التاريخي في متابعة بعض الأحداث وسردها، والتي كان لها ارتباط وثيق بنموّ الحركة العلميّة بالبلاد.

وحاولت الإجابة عن تلك التساؤلات التي طرحتها في متن الأطروحة المؤسسة على مقدّمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

تناولت في التمهيد قضايا أساسية عن هوية المغرب الإسلامي من كافة النواحي كموقعه شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، ومدنه وقبائله وخصائصه، ثم تاريخه السياسي من الفتح إلى قيام الدويلات الثلاث المتصارعة في المغرب الثلاثة بداية القرن السابع، ثم قصة اللغة العربية فيه والتي تضرب بالقدم إلى دخول الفينيقيين الشمال الإفريقي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وانتشار لغتهم البونية فيه القريبة من العربية صيغا وتراكيب، وقد وجدت أن العربية تضرب بقدمها إلى الحضارة الفينيقيّة التي حملها الفينيقيون إلى مدن الساحل الشمالي قبل الميلاد وليس إلى الفاتح العربي كما كنا نظنّ، فهذا الأخير وجدها مكتسبة بألفاظ مشابهة للعربية. ثم طريقة المغاربة في ترتيب حروف العربية وحساب الجمل والتي هي مخالفة لطريقة المشاركة.

وتحدّثت في الفصل الأول عن المدرسة النحويّة المغاربيّة بين المدارس النحويّة الأخرى، أي في مفهوم المدرسة النحويّة، ونقلت أقوال العلماء القدامى والمحدثين في وجود مدرسة مغاربيّة، واستخلصت إلى إثبات وجود نشاطات نحويّة مغاربيّة تضرب بالقدم إلى القرن الثاني للهجرة وأخذت هذه الدراسات بالتخصص بدءا من القرن الخامس وأخذت طابعا جديّا مع إنشاء المدارس ودور العلم المختلفة التي كان الحكام يرعاها لمواكبة الحضارة الأندلسيّة التي قطعت أشواطا كبيرة في هذا المضمار إلى جانب المشرق.

ثمّ وقفت على الخلاف الحاد بين العلماء المعاصرين في اصطلاح (مدرسة) على النشاطات النحويّة في مختلف الأمصار العربيّة، بين منكر ومؤيد، فهل بإمكاننا اصطلاح على جهود المغاربة في النحو بـ(المدرسة) ؟

وتحدّثت في الفصل الثاني عن روافد العلم المختلفة من مؤسسات تعليميّة ومراكز ثقافيّة ومعلّمين وعلماء متخصصين في تدريس النحو ممّا أثر على التكوين العلمي والنحوي لنحاة المغرب، وفضل الخلفاء في الحثّ على العلم والإنتاج العلمي، وكذا مناهج التعليم المختلفة وكتب الدراسة، وفضل الرحلات العلميّة وخزائن الكتب التي كانت مليئة حتى بأندر الكتب في التكوين العلمي والثقافي للنحاة وعامة المغاربة.

وفي الفصل الثالث عن اتّجاهات الدرس النّحوي بالمغرب، وأهمّ المؤلّفات المشرقيّة التي أثّرت في تكوين هذا الدرس، وأهمّ النّحاة المغاربة الذين تخصصوا في تدريس هذه المؤلّفات والتخصص فيها، ووجدت أنّ النّحو البصري هو السائد على التفكير المغاربي مع النّحو البغدادي الاختياري، أمّا النّحو الكوفي فلم يبسط نفوذه، وقد تلقّى المغاربة النّحو من مختلف المؤلّفات المشرقيّة العملاقة المؤلّفة في هذا العلم حتى تكوّنت الشخصية المغاربيّة وظهر نحاة في مستوى المشاركة.

وجاء الفصل الرابع عن التفكير النّحوي لدى المغاربة من خلال بسط آرائهم المختارة من المذاهب السابقة، وآرائهم الجديدة التي توصّلوا إليها بالاجتهاد والنظر، وتجدر الإشارة إلى أنّ للمغاربة آراء نحويّة جديدة اعتبرها الكثير من النّحويين طرائف كالأستاذ شوقي ضيف الذي أدرج بعضها في قرارات المجمع المصري للغة العربيّة في إطار تيسير النّحو العربي، وكذا تحدّثت عن مصطلحاتهم الجديدة، وطرائق تبويبهم النّحوي، ونظرا لكثرة نحاة هذه الفترة، فإنّني اقتصرته الحديث على أشهرهم وأشهر مؤلّفاتهم فحسب كالجزولي وابن معط والمكودي، وتحدّثت عن أصولهم النّحويّة من سماع وقياس وغيرها إذ لهم فيها آراء جديدة، واستخلصت من هذا الفصل أنّ نحو المغاربة لم يكن تقليدا للمذاهب السابقة بل فيه اجتهادات وتعقيبات وإضافات مهمّة أثّرت القاعدة النّحويّة، وكان لهم في كلّ ذلك تميّز، وختمت الفصل بأهمّ خصائص مذهبهم النّحوي الذي حقّ لنا أن نصطّح عليه بمصطلح (المدرسة النّحويّة) لأنّ المدرسة في العرف النّحوي هو الاستقلال بطابع خاص يجمع بين جماعة من العلماء في بيئة معيّنة إذ وجدت أنّ نحو المغاربة مستقلّ بطابع خاص يربط بين علمائه.

وفي الخاتمة عرضت أهمّ النتائج والتوصيات التي رأيت أنّها جديرة بالاهتمام من قبل الباحثين والدارسين.

وقد سبقني إلى هذا الموضوع بعض الدراسات التي أقامها طلبة وباحثون من بعض الجامعات الوطنيّة مثل بحث الأستاذ عبد العزيز هنيّة (المدرسة المغربيّة في النّحو العربي متن الآجروميّة

عيّنة) للعام 2009: وقد ركّز الباحث بحثه على (متن الأجروميّة) تحليلاً واستنباطاً. وبحث الأستاذ عمار ربيع (مدرسة النّحو في المغرب والأندلس خلال القرنين 7 و 8 هـ بحث في المصطلح والمنهج والوظائف) للعام 2009: وهو بحثٌ ركّز كذلك على بعض الوظائف كالمصطلح والمنهج. وبحث الأستاذ عمار مصطفىاوي (الجهود اللغويّة في المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري) بجامعة تلمسان: خصّ الباحث الحديث عن المغرب الأوسط من هذه الفترة فحسب. وبحث الأستاذة جميلة راجاح (إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنميّة الدّرس النّحوي) للعام 2015: حصرت الباحثة الكثير من علماء هذه الفترة بالمغرب الثلاثة والأندلس، وقد خلصت إلى أنّ هناك تداخلاً كبيراً بين نحو المغاربة والأندلسيين، وغيرها من الدراسات المهمّة...

وتتميّز أطروحتي (المدرسة النّحويّة المغاربيّة من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري) بكونها تشمل جهود النّحاة في المغرب الثلاثة: الأدنى (تونس)، الأوسط (الجزائر) والأقصى في فترة تعدّ من أزهى فترات حياة هذه المنطقة، وذلك بشهادة أكبر علماء اللغة والأدب العرب والمستشرقين؛ إذ ازدهرت في هذه الفترة الدراسات في مختلف العلوم، أمّا قبل ذلك فلم يشهد المغرب كبير اهتمام بالعلوم والآداب والفنون، لذا حاولت التّقيب عن أسماء هؤلاء العلماء الذين عكفوا حياتهم على البحث والتّأليف في هذه الفترة، كما تمتاز أطروحتي بكونها تسلّط الضوء على علماء المغرب الثلاثة دون الأندلس لأنّ الأندلس قد نالت القدر الكافي من الدراسات، فلا يتردد في هذه الأطروحة إلّا الأسماء المغاربيّة من الأصول المغاربيّة وذلك كي أتيح للدارس معرفة أسماء علمائنا الذين طالما غُيّبوا في الكتب. وقد توصّلت إلى جملة من النتائج كان من أهمّها:

- كان المغرب الإسلامي حافلاً بالنشاطات النّحويّة في الفترة التي اخترتها للبحث، وقيل إنّه يضاهاه في تقدّمه الفكري فترة حكم العباسيين ببغداد والأيوبيين بمصر، وقائمة النّحاة المغاربة من الأصول المغاربيّة طويلة جداً، وألّفوا كتباً مهمّة لا في النّحو فحسب.

- دور العنصر الأندلسي في تفعيل الحركة العلميّة بالبلاد؛ إذ نقل هؤلاء كلّ أنواع التحضّر والتمدّن والعلوم والفنون والصناعات إلى بلاد المغرب، وصنع تلاقح الإقليمين الأندلس والمغرب في عهد يوسف بن تاشفين أمير الدولة المرابطيّة بالمغرب الأفاعيل في نقل المجتمع المغربي من حالٍ إلى حالٍ.

- تقديس المغاربة للعربيّة والإسلام يفوق التّصوّر وذلك لارتباط هذه اللّغة بالقرآن الكريم، وأكبر شهادة على ذلك أنّ دولة الموحدين وإن كانت بربريّة صرفة إلا أنّ حكامها حتّوا على تعليمها وأجبروا على ذلك، ومن يرفض ذلك يعدّ منشقّا عن الجماعة.

- ازدهار الدراسات الدينيّة في هذه الفترة أكثر ممّا كنت أتصوّر وذلك راجع إلى عدّة أسباب أهمّها ورع المغاربة ما جعل ابن خلدون يشيد بهم في أكثر من موضع ذاكرًا خصالهم وفضائلهم.

واعتمدت في هذه الأطروحة على جملة من المصادر والمراجع الأساسيّة التي خدمت الموضوع منها: (المقدّمة الجزوليّة) و(المقدّمة الآجروميّة) و(الدّرة الألفيّة) و(الفصول الخمسون) لابن معط، ومن المراجع: كتاب (النبوغ المغربي في الأدب العربي) لعبد الله كنون الذي أعطاني فكرة عامة عن الوضع العلمي بالمغرب، وكتاب (حضارة الموحدين) و(ورقات عن حضارة المرينيين) لمحمد المنوني الذي أعلمني بالوضع التعليمي للحضارتين، وكتب أخرى مهمّة عن هذا الموضوع.

ومن جملة العراقيّ التي صادفتني أثناء البحث ضياع مؤلّفات النّحو التي خلفها المغاربة حتى كتب نحاة القرن الثّاني والثّالث والرّابع الهجري، ف(طبقات النّحويين واللّغويين) لأبي بكر الزبيدي ت379هـ و(بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة) لجلال الدين السيوطي ت911هـ مثلاً تروي أسماء نحويّة مغربيّة كثيرة ألّفت مؤلّفات كثيرة لكنّها ضاعت، ولم يصلنا منها إلاّ مؤلّفات القرن السادس الهجري وتشير المصادر إلى أنّ أبا موسى الجزولي ت607هـ أوّل نحوي مغربي يُعثر على مؤلّقاته ويصلنا منها بعضها، وشروحات مقدّمته (الجزوليّة) تعدّ بالعشرات إلاّ أنّه لم

يصلنا منها إلّا أربعة، لذا لم أستطع الوقوف على آراء ومؤلفات هؤلاء الذين عاشوا قبل الجزولي، أمّا عن مؤلفاتهم الباقية فلا يزال الكثير منها مخطوطاً من غير تحقيق محفوظة في أشهر المكتبات كمكتبة جامع القرويين بفاس ومكتبة الإسكوريال بإسبانيا.

وممّا صادفني أيضاً من عراقيل قلّة المصادر والمراجع في النّحو المغاربي؛ إذ قلّما تذكر جهود المغاربة في النّحو ومدارستهم له، قياساً بالأمصار الأخرى كبغداد ومصر والأندلس اللواتي نالت حظاً وافراً منه، فهذا كتاب (المدارس النّحويّة) للأستاذ شوقي ضيف من أوائل الكتب الحديثة في النشاطات النّحويّة بمختلف الأمصار وفضل العلماء في تطويرها، لم يخصص فصلاً للمغرب كما خصص لغيره من الأمصار، وذكر الكثير من النّحاة المغاربة إلّا أنّه نسبهم إلى مدارس أخرى أكثرها المدرسة المصريّة، وسار على منواله الكثير من الباحثين، وذلك رغم إقرار القدامى بوجود نشاطات نحويّة بالمغرب وإفراد المغاربة بفصل تام.

وفي الختام أسأل المولى عزّ وجلّ السداد في الرأي والقول، وأسأله أن ينتفع بهذا البحث القارئ الكريم، وأن تتوالى الجهود في التنقيب عن تراث أسلافنا، وصلى الله وسلّم على نبيّنا المصطفى وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

المدخل:

هويّة المغرب الإسلامي

المدخل: هويّة المغرب الإسلامي:

- 1 - توطئة لمدن المغرب الإسلامي، وأشهر خصائصه، وقبائله.
- 2 - الحياة السياسيّة فيه من الفتح إلى نهاية القرن العاشر الهجري.
- 3 - الحياة العلميّة فيه وعوامل ازدهارها.
- 4 - قصّة اللغة العربيّة فيه، وطريقة المغاربة في ترتيب حروف العربيّة، وحساب الجمل.

1. جغرافية المغرب الإسلامي، وأشهر خصائصه، وقبائله: أطلق الجغرافيون والرحالة

العرب تسمية (المغرب) على كل البلاد الإسلامية الواقعة غرب مصر، وهي ما يعرف اليوم ببلدان شمال إفريقية الخمسة إلى النيجر والسنغال جنوبا. وهناك خلافاً في القرون الوسطى للعصر الإسلامي، وكذلك في العصر البيزنطي (الروم) السابق للإسلامي حول حدود مصر الغربية، فقد كان إقليم (برقة) أو ما يعرف اليوم ببنغازي بليبيا داخلاً في حدودها، واعتبر الجغرافي ابن خرداذبه تـ300هـ في مؤلفه (المسالك والممالك) برقة جزءاً من مصر¹. وقبيل الفتح الإسلامي للمغرب بقليل، أي في أواخر العصر البيزنطي (الروم) كانت تسمية المغرب مقتصرة في الواقع على ما يعرف اليوم بتونس باسم (ولاية إفريقية)، أما في العهد الروماني السابق للعهد البيزنطي (الروم) فقد أطلق على منطقة شمال إفريقية كلها تسمية (موريتانية). واسم المغرب في الأصل هو الاتجاه الأصلي لمغرب الشمس وهو تسمية يقصد بها البلاد الواقعة في اتجاه غروب الشمس عكس البلاد المشرقية أو المشرق التي تقع في جهة شروق الشمس². ونقل ياقوت الحموي تـ626هـ في مؤلفه (معجم البلدان) عن أبي الريحان البيروني تـ439هـ أن أصل هذه القسمة من مشرق ومغرب من أهل مصر، وبقيت كذلك إلى اليوم، فهم يسمّون ما كان على يمينهم إذا استقبلوا الجنوب مغرباً، ويسمّون ما كان على شمائلهم مشرقاً، ولذلك سمّيت بلاد إفريقية وما وراءها (بلاد المغرب)³. وقد ظهرت تسمية المشرق والمغرب ظهوراً واضحاً عهد خلافة هارون الرشيد حين قسّم الدولة الإسلامية تقسيماً فنياً إلى مشرق ومغرب بين ولديه الأمين والمأمون عام 182هـ، حين عهد لولي العهد الأول الأمين مغرب الدولة وهو يشمل العراق والشام إلى آخر المغرب، وصار لولي العهد الثاني المأمون مشرقها، وكانت (الدجلة) حينها الحدّ الفاصل بينهما، وهكذا صار مفهوم المغرب في العصر العباسي الأول يعني النصف الغربي للدولة

¹. ينظر: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، تح: M.J GOEJE، دط. لندن: 1889، دار صادر بيروت.

². سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، دط. الإسكندرية: 1995، منشأة المعارف، ج1، ص 61.

³. ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح: دار صادر، دط. بيروت: 1977، دار صادر، مجلد 1، ص 54-228.

الإسلامية، أو بالأحرى كل ما يقع غربي إقليم العاصمة العراقية آنذاك. أمّا في مؤلفات المكتبة الجغرافية العربية القديمة فإنّ الجغرافيين العرب لم يحددوا المغرب انطلاقاً من الحدود التي رسمها العباسيون أي من (الدجلة) بل من الحدود المصرية الليبية (برقة)، على أنّ تسمية المغرب لتعريف البلاد الواقعة غرب مصر تعريف لم يخل من الغموض والإبهام، فالعالم الجغرافي إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ت حوالي 300هـ يحدد مغربين: مغرب شرقي (إفريقي) ممتد من برقة إلى طنجة والسوس، ومغرب ثان غربي وهو الأندلس في كتابه (مسالك الممالك)¹، أمّا أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ت 827هـ في كتابه (صبح الأعشى في فنّ الإنشاء) فإنّه قصد ببلاد المغرب جزيرة الأندلس وما والاها، من الشمال، وأطلق تسمية (الغرب) على مدن المغرب كفاس وتونس وتلمسان...² أمّا محمد بن أبي بكر البناء المقدسي ت 380هـ في مؤلفه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) قد حدد إقليم المغرب في عدّة جزائر مثل الأندلس وصقلية ومدن المغرب...³ وقد تمكّن الجغرافيون العرب في القرون الوسطى للعصر الإسلامي من رسم حدود مهمّة لمنطقة المغرب الإسلامي حين قسّموه إلى ثلاث مقاطعات رئيسية وهي: المغرب الأدنى وهو ليبيا وتونس حالياً، المغرب الأوسط وهو الجزائر اليوم والمغرب الأقصى وهي تسميات واضحة آنذاك لتحديد الأقاليم، وكلّها تعني أقاليم شمال القارة الإفريقية، دون مصر والأندلس، يحدّها بحر الروم أو ما يعرف اليوم بالبحر الأبيض المتوسط من الشمال، وبحر الظلمات أو ما يعرف بالمحيط الأطلسي من الغرب، وبلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي أو ما يعرف بالصحراء الكبرى من الجنوب، وشبه الجزيرة العربية من الشرق. وقد اختلفت تسميات هذه الأقاليم في عهد الإغريق والرومان والروم (البيزنطيين) الذين سكنوا شمال إفريقية على التوالي قبل قدوم العرب الفاتحين، فتونس سمّيت (بقرطاجنة) في العصور القديمة قبل الميلاد، ثم سمّيت في عهد الروم (البيزنطيين) ب (روجيتانا) والجزائر (نوميديا)، أمّا في عهد الرومان فقد

¹. ينظر: الاصطخري، مسالك الممالك، تح: M.J GOEJE، دط. ليدن: 1927، دار صادر بيروت.

². ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في فنّ الإنشاء، دط. القاهرة: 1922، دار الكتب العلمية، ج 8.

³. ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دط. دب: دت.

أطلقوا اسم (موريتانية) على منطقة شمال إفريقية كلها تحت دولتين: (موريتانية القيصرية) أي ما يعادل اليوم الجزائر وعاصمتها قيصرية (شرشال اليوم)، و(موريتانية الطنجية) أي ما يعادل المغرب الأقصى اليوم وعاصمتها (تينجيس) أي طنجة. لكن المدن المغاربية التي سأحدث عنها في هذا البحث هي التي بنيت في العصر الإسلامي، والتي أحيائها المسلمون وبنوها من جديد، لذا فالتسميات التي سأستعملها هي التي سماها المسلمون، فتسمية برقة للحدود المصرية الليبية اليوم، هي التسمية الجديدة التي أطلقها العرب على التسمية الإغريقية القديمة (أنطابلس)، والتي تعادل بنغازي حاليا، وإنما سماها العرب كذلك حين رأوا فيها كثرة الحجارة الملونة المختلطة بالرمل¹. كما أن تاريخ هذه المدن المغاربية الحي إنما يبدأ بالفتح الإسلامي لها لأن الجيوش العربية التي حملت الرسالة الدينية فتحت أيضا طرقا للتبادل الاقتصادي والحضاري، ولانتقال العلماء والأدباء والمتقنين منها وإليها. ورغم الفتح المبكر لمدن المغرب الإسلامي إلا أن الجغرافيين والرحالة العرب لم يستكشفوها ولم يتحدثوا عنها إلا في أواخر القرن الثالث الهجري، وحديثهم عنها كان من باب الوصف لمسالك المدن والمخارج والعمران والمسافات والسكان دون تحديد إطار جغرافي للمغرب الإسلامي واضح المعالم طولا وعرضا، فلم يعرف المغرب حدودا ثابتة واضحة في تلك الفترة التي وصفه فيه الجغرافيون، لأن فكرة الحدود بالمفهوم الحالي لم تكن كذلك في تلك العصور، لذا فإن محاولة حديثهم عن رقعة جغرافيا في تلك الفترة إنما كان من باب التقريب. من أهم الجغرافيين العرب الذين جالوا بالمغرب الإسلامي وتحدثوا عن ميزاته بحكم وظيفتهم التجارية أبو العباس أحمد بن يعقوب اليعقوبي ت284هـ في كتابه (البلدان) والذي تميز بوصف مسالك مختلف مدن المغرب ومخارجها، من منازل ومساجد ومرافق وعمران بدقة تامة، دون أن يرسم حدودا واضحة له، مثلما هو الحال في كتاب (المسالك والممالك) لأبي القاسم بن خرداذبه وهو كتاب مهم يحدد فيه صاحبه مسالك مدن المغرب والمسافات بينها بحساب دقيق، ويصف قبائل المغرب وأسماءها وحكامها قبل الفتح الإسلامي وبعده، لكن دون أن

¹. إسماعيل العربي، المدن المغربية، دط. الجزائر: 1984، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 12.

يحدد له إطارا جغرافيا، أما إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري في كتابه (مسالك الممالك)¹ قد قسّم المغرب إلى مغرب شرقي ممتدّ من برقة إلى طنجة، ومغرب أندلسي وهو الأندلس، في محاولة وضع حدود للمغرب كما أنّه قدّم وصفا للمسالك والمدن والأنهار. ويطالعك كتاب (صورة الأرض)² لأبي القاسم محمد بن حوقل النصيبي ت367هـ على ملاحظات دقيقة تعدّ من أهمّ ما قيل في وصف مدن المغرب ورسم حدوده، وكذلك في اختصاص كل بلد ومدينة من الإنتاج الزراعي والاقتصادي، وفي صادرات وواردات كل مدينة إلى مدن المشرق والأندلس وصقلية، ولا يخفى لأحد انبهاره الشديد بمدن المغرب؛ إذ احتلّ القسم الخاص بالمغرب جزءا كبيرا من كتابه، وذكر أسماء قبائله وصفاتهم وألوانهم بوصف معمّق حتى عدّ الخبير الأول بين الجغرافيين العرب في شؤون المغرب بحكم مهنته التجارية. ويقدم كتاب (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب)³ في القرن الخامس الهجري لعبد الله بن عبد العزيز بن أيوب البكري ت487هـ معلومات غزيرة عن التطوّرات التاريخية للمغرب، وبسلالات ملوكه بحكم منصبه الدبلوماسي المهمّ، وهو أندلسي لذا فقد أثرى المكتبة الجغرافية بمعلومات دقيقة عن تسميات مدن المغرب وموانئه وطرقه البرية من مدينة إلى أخرى، وقبائله وقصصهم، وسمّى المغرب بإفريقية وحدّها من برقة إلى طنجة. وفي (معجم البلدان) لياقوت الحموي ت626هـ تفريق بين إفريقية والمغرب، إفريقية من برقة إلى مليانة، والمغرب من مليانة إلى ما وراءها وفيه جزيرة الأندلس⁴.

وعلى كلّ فإنّ بلدان المغرب الإسلامي الخمسة التي هي بالتسميات الحديثة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانية) تعدّ كلّها من ناحية الطبيعة الجغرافية والمناخ إقليما واحدا بخصائص ومميّزات واحدة. وهذا الإقليم واسع وكثير الخيرات انبهر به معظم الجغرافيين الذين جالوا

¹. ينظر: الاصطخري، مسالك الممالك.

². ينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، تح: منشورات دار مكتبة الحياة، دط. بيروت: 1996، دار مكتبة الحياة.

³. ينظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، تح: دوسلان، دط. الجزائر: 1857، مكتبة الحكومة.

⁴. ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلّد 1، ص228، والمجلّد 5، ص161.

فيه، يصفه المقدسي بقوله: "هذا إقليم بهي، كبير سري كثير المدن والقرى، عجيب الخصائص والرخاء، به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة... وهو إقليم كبير طويل يوجد فيه أكثر ما يوجد في سائر الأقاليم، مع الرخص كثير النخيل والزيتون به مواضع الحرّ ومعادن البرد... جيد الهواء والماء... ومن برقة تحمل ثياب الصوف والأكسية... ومن إفريقية الزيت والفسق والزعفران واللوز والبرقوق، ومن فاس التمر وغيرها"¹ وقد وصفه بهذه الخصائص معظم الجغرافيين والرحالة العرب.

وعن سكان المغرب الإسلامي فهم (البربر) يقول ياقوت الحموي: "البربر اسم يشتمل قبائل كثيرة في بلاد المغرب أولها برقة، ثم إلى آخر المغرب وبداية البحر المحيط، وفي الجنوب إلى بلاد السودان، وهم أمم وقبائل لا تحصى، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويقال لمجموعهم بلاد البربر وقد اختلف في أصل نسبهم..."² والحقيقة أنه لم يتفق على أصل تسمية (البربر) فمنهم من قال "إنّ البربر لفظ إغريقي كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية، وسمّوا سكان المغرب بالبربر لذلك"³، وقولهم "إنّ العرب وجدوا روما قد استعملت كلمة (بربر) للشعوب التي حاربت الرومانية وأطلقت كلمة بربر في الأصل على كل الشعوب الجرمانية التي هاجمت إمبراطوريتها، وسمّوا المغاربة بالبربر لأنهم لم يهضموا حضارتهم بل قاوموا الحكم الروماني وسببوا لدولتهم الكثير من المتاعب"⁴. وبين الأصل الإغريقي وغيره لكلمة بربر خرج العلماء العرب برأي ثالث وهو أنّ شعب المغرب اتخذ اسم أحد أبائه البعيدين (بر) كما اتخذ العرب اسم أحد أبائه البعيدين (يعرب)، يقول جمال الدين بن منظور ت711هـ: "البربر جيل من الناس يقال لهم إنّهم من ولد بر بن قيس بن عيلان، والبرابرة: الجماعة"⁵. أمّا عبد الرحمان بن خلدون ت808هـ فقد ذكر أنّ الناس زعمت أنّ إفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة باليمن لما

1. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 58-63-64.

2. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد 1، ص 368.

3. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دط. القاهرة: 2004، مكتبة الأسرة، ص 28.

4. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 79.

5. ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت: 2008، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مجلد 2، ص 1464.

غزا المغرب وإفريقية وقتل الملك البيزنطي جرجيس وبنا المدن والأمصار فباسمه سميت إفريقية، ولما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: "ما أكثر بربريتكم" فسمّاهم بالبربر، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة¹. يقول ابن منظور: "البربرة: كثرة الكلام والجلبة باللسان، وقيل: الصياح، ورجل بربر إذا كان كذلك... وقد بربر في كلامه بربرة إذا أكثر. والبربرة: الصوت وكلام من غضب... وفي حديث علي كرم الله وجهه لما طلب إليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر فامتنع قاموا ولهم تغذمر وبربرة، البربرة: التخليط في الكلام مع غضب ونفور..."². ولم يختلف العلماء العرب في أصل تسمية شعب المغرب بالبربر فحسب بل اختلفوا أيضا في نسبهم اختلافا شديدا، وقد عقد ابن خلدون في تاريخه بابا أسماه "...نقل الخلاف الواقع بين الناس في أنساب البربر"³ وقد ذكر أكثر من خمسة عشر قولا في نسبهم من كتب الأنساب كابن الكلبي ت204هـ، والطبري ت210هـ والصولي ت235هـ وابن قتيبة ت296هـ، والمسعودي ت345هـ، وعبد العزيز الجرجاني ت366هـ، وابن حزم القرطبي ت456هـ... منها قولهم هم من ولد إبراهيم عليه السلام من ولده نقشان، وهم أوزاع من اليمن نقلهم إفريقش إلى المغرب، وهم من فلسطين أخرجهم منها ملوك الفرس، وهم من ولد جالوت لما قتله طالوت، ومن ولد حام بن نوح، ومن ولد بربر بن كسلوجيم بن مصرايم بن حام، ومن ولد بر بن قيس بن عيلان، وغيرها، ثم قال: "واعلم أنّ هذه المذاهب كلّها بعيدة عن الصواب وتكاد تكون من أحاديث الخرافة"⁴ ثم أبطلها كلّها موجّها إليها النقد، ونعت النسّابين بالغفلة في حججهم، ثم قال: "والحقّ الذي لا ينبغي التعديل على غيره في شأنهم أنّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدّم في أنساب الخليفة وأنّ اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين، إخوانهم بنو كسلوجيم بن

¹. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دط. بيروت: 2000، دار الفكر، ج 6، ص 117.

². ابن منظور، لسان العرب، مجلد 2، ص 1464.

³. ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6.

⁴. ينظر: نفسه.

مصرام بن حام، فلا يقعنّ في وهمك غير هذا فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه¹ وهو الرأي الذي قال به الطبري والله أعلم، وقد صنف اللهجات البربرية في مجموعة اللغات الحامية مثل اللغة القبطية.

وعن سكان المغرب وطبيعتهم يصفهم ابن حوقل بقوله: "هذا إلى طاعتهم لمن ملكهم فتقّفهم ونافرهم عمّن أهملهم وأغفلهم، وليس في بلدانهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة كالعيّدان والطنابير والمعازف والنوائح والقيان والمخنثين والفسق الشنيع ما بكثير من المواضع، وقد يعرف في بعض نواحيهم من التهور الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبدار الطيش، ويوجد عندهم من رقّ أدبه وحسن عمله"². ويقول ابن خلدون: "وأما تخلّقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في خلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مراقبة الشرف والرفعة بين الأمم... الوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكارم، والثبات في الشدائد وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين وبرّ الكبير وتوقير أهل العلم، وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والإعانة على النوائب..."³. ويصنّف البربر إلى صنفين هما⁴: بربر حضر يسمّون (بالبرانس) يسكنون الشريط الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس، وهم يشبهون في ملامحهم سكان الأندلس وجزر المتوسط، من ملامحهم شقرة الشعور وزرقة العيون وبياض البشرة خاصة بين أهالي الجبال، وهذا الصنف هو الذي سكن البلاد منذ أقدم العصور. أمّا الصنف الثاني من البربر هم البدو يسمّون (البتر) وهم جدد نسبياً أقبلوا من الجنوب، من الجنوب الغربي من قلب الصحراء عن طريق واد النيل، نزلوا أولاً برقة ثم انتشروا غرباً، وهم جنس أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين فنشأ الجنس البربري المستعرب، ويتفق معظم المؤرّخين العرب أنّ هذا الصنف (البتر) نشأ بفضل هجرات قبائل بني هلال وبني سليم من

¹. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 127.

². ابن حوقل، صورة الأرض، ص 95.

³. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 136.

⁴. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 28-29-30 والاصطخري، مسالك الممالك، ص 45-46.

المشرق إليه، وبفضلها تعرّب المغرب الإسلامي. والعرب هم الذين أطلقوا التسميتين¹ البرانس والبتّر وهما نسبة إلى نوع الثياب المعروفة لديهم، فقد لاحظوا فرقا بين زيّ قبائلهم، فمنهم من يرتدي البرنس وهو رداء طويل دون حزام وبقطنسوة كغطاء على الرأس، وهو نوع من الثياب قديم الأصل استعمل في عهد الرومان والروم. ومنهم من كان يلبس هذا الرداء قصيرا أو دون غطاء على الرأس فأطلقوا على هؤلاء اسم البترو وهو جمع أبتّر بمعنى الناقص أو المقطوع. أمّا ابن خلدون فقد نقل عن علماء النسب العرب أنّ التسميتين ترجعان أيضا إلى اسم أب كلّ جماعة، فالجماعة الأولى أبناء (برنس) والجماعة الثانية أبناء (مادغيس) الذي لقّب بالأبتّر فلذلك يقال لشعوب برنس البرانس ولشعوب مادغيس الأبتّر البتّر وهما معا ابنا بر، وهو رأي ابن حزم في (جمهرة أنساب العرب)². وهو تقسيم مأخوذ من شجرة الأنساب العربية التي قسّمت العرب إلى مجموعتين كبيرتين تتحدران من عدنان ومن قحطان، وأنّ عدنان وقحطان من بني إبراهيم عليه السلام. ثم نقل ابن خلدون خلاف النسّابين هل برنس ومادغيس الأبتّر هما لأب واحد مثلما قال ابن حزم، ففي كلام طويل خلص إلى أنّ البرانس من نسل مازيغ بن كنعان، والبتّر بنو بر بن قيس بن عيلان³. أمّا عن رأيه فقد قال بعد نظر إنّ البربر برانس وبترا من ولد مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، وأنّ غير ذلك من الآراء لا أساس لها من الصّحة بزعمه، وهم أقارب الفلسطينيين وليسوا منهم. ثم قال إنّهم قد عرفوا حياة اجتماعية شأنهم في ذلك شأن العرب فقد عاشوا حياة استقرار وتمدّن، وحياة تنقّل وبدّاية فهم قسمان كبيران، وهما سكان المدر ويقصد بهم البرانس وهم أهل الحضارة والاستقرار، يعيش أكثرهم في السهول والأراضي الجبلية الخصبة ويعيشون على الزراعة، وسكان الوبر ويقصد بهم البتّر وهم أهل البدّاية والخيم، يعيشون عيشة تنقّل في المناطق الصحراوية والهضاب ويعيشون بالرعي⁴. كما

¹. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج 1، ص 90.

². ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 117.

³. نفسه، ج 6، ص 117.

⁴. ينظر: نفسه.

عرفوا تنظيماً قبلياً مثل العرب، وقد اشتهرت منهم قبائل قوية في الحروب وذات الباع الطويل، وتشعبت كل قبيلة إلى ما يحصى من البطون، فشعوب البرانس عشرة أجدام أو قبائل مشهورة وهي: أزداجة ومصمودة وأورية وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة، وأضيف إليها لمطة وهسكورة وكزولة (جزولة)¹. وكان من أشهرها قبيلة صنهاجة وأشهر مواطنها المغرب الأوسط وهي قبيلة القبائل الكبرى، يقول عنها ابن خلدون: "إنَّ صنهاجة من أوفر قبائل البربر البرانس وهي أكثر أهل المغرب، تبلغ في عددها ثلث أمة البربر، ومنها سبعون بطناً، ولا يكاد يخلو قطر من أقطار المغرب من بطن من بطونها في جبل أو بسيط، سكنوا الجبال والصحاري، من بطونها بلكانة وأنجفة وسرطة ولمتونة وكدالة... وكانت بلكانة من أعظم بطونها"². وكانت قبيلة كتامة من أشدَّ البرانس قوة يقول ابن خلدون عنها: "هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب أشدهم بأساً وقوة وأطولهم باعاً في الملك عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس، ومنها بطون كثيرة كزواوة ومصالة وغيرها، وقد سكنت من حدود المغرب الأدنى مروراً بالأوسط إلى المغرب الأقصى"³. ومن أشهر ما سكنته قبيلة عجيسة مدينة المسيلة وبجاية وتونس، وسكنت قبيلة أزداجة بناحية وهران، وأشهر مواطن قبيلة أورية وليلي (فاس الحالية) والمغرب الأوسط، وأشهر مواطن قبيلة مصمودة جبال درن في جنوب المغرب الأقصى (مراكش حالياً)، ومن أشهر مواطن قبائل كزولة السوس، ولمطة السوس وتلمسان وتونس، وهسكورة جبال درن بالمغرب الأقصى وجبال تادالا. وبالصحراء الكبرى للمغرب سكنت جماعات كبيرة من الصنهاجيين وهي قبائل لمتونة ومسوقة وكدالة وسرطة من الملتئمين وهم أهل وبر. وأمّا شعوب البتر فهم أربعة أجدام وهي: أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لوا الأكبر⁴. ومن قبيلة لوا تنحدر قبيلتا نفزاوة ولواتة، ومن لواتة مزاتة ومناغة، ومن نفزاوة قبيلة ولهاصة وغيرها، ومن قبيلة ضريسة ينحدر بنو تمصيت وبنو

¹. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 117.

². نفسه، ج 6، ص 201.

³. نفسه، ج 6، ص 195-196.

⁴. نفسه، ج 6، ص 118.

يحيى، ومن تمصيت مطماطة وصطفورة ولماية ومطغرة ومغيلة ومعزوزة ومديونة، ومن بني يحيى قبائل زناتة وورصطف وسمكان ومن ورصطف تنحدر قبيلة مكناسة وغيرها من البطون¹. سكنت قبائل لواتة برقة وعلى حدود مصر، وسكنت قبائل نفوسة طرابلس بليبيا، وسكنت بطون ضريسة المغربين الأدنى والأوسط، وكانت نفوسة من أوسع قبائل البربر البتر وفيها شعوب كثيرة.

وللبربر تاريخ طويل ومجيد قبل الفتح الإسلامي، فقد حاربوا مستعمرهم الإغريق والرومان والبيزنطيين منذ وطأت أقدامهم بلادهم، ولم يرضوا بالنصرانية في أول الأمر والتي دخلت مع الرومان في منتصف القرن الثالث الميلادي رغم نجاح الكنيسة من تنظيم نفسها وإنشائها للكثير من الكنائس المدعمة من طرف الدولة الرومانية، ثم بدأت تنتشر وتعم البلاد تقريبا حتى قبلها البربر بفضل مبادئها الداعية إلى السلام والمحبة، لكن حالها سرعان ما بدأت بالتدهور والاستقرار بفعل انحرافات داخلية كان يغذيها المذهب الدوناتى (نسبة إلى صاحبه دونات) الرافض بشرعية انتخاب سسيليان أسقفا لعاصمة إفريقية قرطاجنة عام 257 م²، فخرج هذا المذهب عن نظام الكنيسة المسيحية وتحالفت معه الطبقات الكادحة من المجتمع البربري وصار ثورة وطنية عظيمة في طرابلس والمغرب الأوسط (الجزائر)، لكن الإمبراطورية الرومانية استطاعت من قمع الثورة والقضاء على الدوناتية وإرغام الشعب على العودة إلى الكاتوليكية بفضل القديس أغسطين الذي هاجم الدوناتيين وأباح للإمبراطورية بنظريته الفلسفية من اتباع الإرهاب والعنف ضد المنشقين، واستمر في ذلك إلى أن انتصرت الكنيسة على أعدائها وسيطرت على البلاد، لكن هذه البلاد سرعان ما وقعت من جديد تحت حصار الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي واستيلائهم على قرطاجنة عاصمة إفريقية عام 435 م، فإلى جانب تخريبهم للبلاد فإنهم فرضوا أيضا مذهبهم الديني الأريوسي (نسبة إلى صاحبه أريوس)

¹. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 119.

². ينظر: نفسه.

القاتل بطبيعة المسيح البشرية فاضطهدوا الكاتوليكين وكنائسهم وصادروا أملاكهم وأفشوا الفساد في كل مكان، إلا أنهم لم يلبثوا طويلا لأنهم قامت حركات شعبية قوية بقيادة البربر والبيزنطيين لإخراجهم من أرض المغرب، فضاع حكمهم ومعتقداتهم ليحلّ محلها الحكم البيزنطي، والذي انتهى بمقتل بطريقها جريجوريوس أو جرجير كما يسمّيه العرب على يدهم. ولا يغيب على الذهن أنّ كلّ ذلك كان يجري في المناطق الساحلية لبلاد المغرب، ولم تتوغل المسيحية أو الدوناتية أو غيرها إلى قلب الصحراء في قبائل الملثمين مثلا الذين كانوا على معتقدات دينية أخرى، لأنّ معظم المستعمرين لم يتوغّلوا إلى قلب المغرب بل فضّلوا البقاء على طول الشريط الساحلي المطلّ على بحر الروم من طنجة إلى طرابلس لحيويته في التعامل الاقتصادي، لذا كان انتشار المسيحية وغيرها على شريطه فقط. كما كان للبربر تاريخ طويل أثناء الفتح الإسلامي أيضا وبرز منهم أبطال قوميون من ملوكهم كماسينيسا وكسيلة والكاينة ولم يرضوا بالعرب وظنّوا فيهم مظنّهم في من سبقهم من المستعمرين، وقيل إنّ العرب كانوا أول من تجرّأ على اقتحام جبال الأطلس وديار البربر إلى ما تحت الشريط الساحلي فوصفوا أنّهم أول من عرف البربر معرفة صحيحة، أمّا من سبقهم من الإغريق والرومان والروم فكانوا نادرا ما توغّلوا إلى دواخل بلادهم وتعرّفوا عليهم.

2. الحياة السياسيّة في المغرب الإسلامي: زحفت جيوش الفاتحين العرب إلى المغرب

أول مرة زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقيادة عمرو بن العاص حين فتح مصر، فتقدّم إلى برقة وفتحها عام 22 هـ وتقدّد آنذاك أحوال المغرب. وكان البربر آنذاك تحت حكم البيزنطيين على دين النصرانية في الشمال، وعلى دين المجوسية في صحراء لمتونة (موريتانية اليوم)، فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنّ بلاد المغرب ملوكها كُثُر وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل، فأمره عمر بالانصراف عنها والرحيل عائدا إلى مصر. وفي زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعهدا لعبد الله بن سعد بن أبي سرح عام 25 هـ، وفي عام 27 هـ أمر أمير المؤمنين عثمانُ عبدَ الله بغزو بلاد المغرب، فتقدّم بجيش عظيم أربع ملك إفريقية البطريق

البيزنطي جرجير فخرّ منهزما أمامهم، رغم عددهم وعدّتهم. وفي أول عهد الأمويين بعث معاوية بن أبي سفيان لفتح بلاد المغرب ثانية معاوية بن خديج السكريني من مصر عام 45 هـ لكن تصدّى لهم ملك الروم هرقل ببعث عساكره من القسطنطينية، وكانت الغلبة للعرب، وفي عام 50 هـ عزل معاوية بن أبي سفيان عن ولاية إفريقية معاوية بن خديج وأقرّه على ولاية مصر ووجّه إلى إفريقية بعده عقبة بن نافع الذي فرّق أمر الإفرنج وفتح البلاد وبدأ يستأصل منها النصرانية ومظاهر العبودية شيئا فشيئا حتى حمل البربر على طاعة الإسلام، وكان عقبة الفاتح الحقيقي الأول لبلاد المغرب، وما كان سابقا له إنّما كان تمهيدا ومقدّمة، رغم مقتله ببضع سنوات من قدومه. وبمقتله اضطربت الأمور بالبلاد حتى عادت الوثنية والنصرانية تقريبا كما كانت، والمعروف أنّ بلاد المغرب لم تفتتح بسهولة قياسا بمصر وفارس والشام، فقد عانى الفاتحون ويلات المقاومة العنيفة من ملوك الروم البيزنطيين والإفرنج المحتلّين للشمال الإفريقي قبل قدوم العرب، وكذا من ملوك البربر ككسيلة بن لمزم الأوربي والكاهنة وقيل إنّ فتح المغرب استغرق اثني وسبعين عاما تقريبا ارتدّى فيه البربر اثنتي عشرة مرة¹، من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم إلّا زمن موسى بن نصير الذي قدم المغرب عام 78 هـ زمن خلافة الوليد بن عبد الملك واليا عليه، فقبض على زمام السلطة وأصلح الأحوال وعمّت السكينة والاستقرار، وقاتل المرتدّين عن الإسلام وكان ذلك الفتح الثاني الحقيقي، إذ شيدّ صرح الإسلام في المغرب وإفريقية، وفتحت أيامه الأندلس بجيوش المغاربة المسلمين بقيادة طارق بن زياد، ولم يرجع السيف إلى غمده حتى ارتقى المغرب عمراننا واقتصادا وسياسة، وغدا الإسلام المصدر الأول في حكم البلاد. غير أنّ أصول الإسلام وفروعه وشرائعه وأحكامه إنّما تفهم باللغة العربية التي لا بدّ منها في هذا القطر الأعجمي، والتي قد دبّر لها عبد الملك بن مروان أبو الوليد بن عبد الملك حين بعث أيامه حسان بن النعمان الغساني أحد الولاة على المغرب للاهتمام بأمور اللغة العربية وثقافتها، فكان حسان الممهّد لتقدّم الثقافة العربية

¹. ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6.

واستقرارها بالمغرب، فدوّن الدواوين ورسم اللغة العربية وأوجب تعلّمها على السكان المسلمين وغير المسلمين، وأمر موسى بن نصير بعده بإرسال الفقهاء والقراء إلى المغرب ليعلّموا الناس القرآن ويفقههم فيه، وفي أسرار اللغة العربيّة، كذلك فعل عمر بن عبد العزيز حين أنزل بكل المغرب عشرة فقهاء وعددا من القراء والعلماء، وكان للمغاربة أن رحّبوا بهذه المحاولات التي أتت بنتيجتها الطيبة وأثرها المحمود في استعراهم وطبعهم بالطابع الديني، وسارت اللغة العربيّة بالانتشار مع الإسلام، وبدأت تنمو وتثمر على أفواهمهم. لكنّ خطرا جديدا كان يترصّ بهذا القطر الكثير الولايات وهو نزوح الخوارج من العراق إليه، وقد تمكّنوا من الترويج لبدعهم وتلقّاها عنهم رؤساء القبائل وتمكّنوا من إثارة الحروب والفتن، والخلافات المذهبيّة ونزعات الضلالة بين الناس، وكانت فرقهم بالمغرب اثنتين: (إباضيّة) و(صفرية) وكانتا مشهورتين في بلاد المغرب إذ استطاعتا من تأسيس دويلات أشهرها الدولة الرستمية بقيادة عبد الرحمان بن رستم عام 144هـ في تيهرت وجبل نفوسة وهي دولة إباضية خارجية روّجت للخوارج رغم ازدهارها وإقامتها من تيهرت قطبا علميا للعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي وملتقى للتجار، ودولة بني مدرار في الجنوب الغربي وعاصمتها سجلماصة عام 140 هـ، وهي صفرية مروّجة أيضا للخوارج¹. وفي ظلّ هذه التيارات الدخيلة على الثقافة الإسلاميّة المغربيّة المشوّشة عليها، جاء إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (إدريس الأول) عام 172 هـ للدفاع عن العلويين والإسلام فبايعته القبائل معلنة طاعتها فبدأ بتأسيس الدولة الإدريسيّة بفاس بمعونة ولّاءة مدن المغرب، وهي أوّل دولة عربيّة مستقلّة في المغرب، خرج غازيا يضرب حركات الخوارج حتى لم تقم لهم قائمة بعده، ثم تقدّم إلى قاعدة المغرب الأوسط تلمسان ففتحها عام 173 هـ ونظر في أحوالها وبنا مسجدا، ثم باقي المدن حتى استقام له أمر المغرب، لكنّ دولة الأدارسة وسياستهم سرعان ما بدأت تتدهور وتهوي إلى

¹. ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي تاريخ دولة الأغلبية والرستميّين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميّين، دط. الإسكندرية: 1995، منشأة المعارف، ج 2.

أسفل الحضيض بسبب أطماع جهات كثيرة في الحكم أشهرها دولة الأغالبة بقيادة إبراهيم بن الأغلب عام 184 هـ في القيروان، والتي كانت تدافع عن العباسيين الذين دخلوا في صراع مرير مع العلويين، فحاولت دولة الأغالبة وضع حدّ للعلويين ودولتهم الإدريسية في المغرب، انتهى صراعهما بمقتل إدريس الأول من طرف هارون الرشيد العباسي وتمكّنت دولته من بسط نفوذها على شرق الجزائر والقيروان وغرب ليبيا وجنوب إيطاليا وصقلية. غير أنّ العلويين ضربوا ضربتهم على المغرب لاستئصال العباسيين ودولتهم الأغلبية فيه وانتهت بقيام الدولة الفاطمية في القرن الثالث لإعادة الاعتبار للعلويين ومذهبهم الشيعي. وفي ظلّ هذه الأجواء توالى حلى حكم المغرب دول كانت مغربية محضة أتعبتها عداوة العلويين بالعباسيين وفساد أحوالهما أشهرها دولة مغراوة ودولة بني يفرن وكانتا ضد الفاطميين، ولم ير المغرب على عهدهما إلاّ الحروب الطاحنة والفتن الماحقة، وكان عهدا مظلما توقفت فيه جميع الحركات العلمية وغيرها وانقرض العمران، إلى أن تدارك الله المغرب بعبد الله بن ياسين الجزولي مؤسس دولة المرابطين بعد ثلاثة قرون من الظلام، والذي وجد أحوال المغاربة آنذاك في جهل وظلام بأصول الدين وفروع الشريعة، لا يفرّقون بين حلال وحرام، فجعل يقرئهم القرآن ويبين لهم شرائع الإسلام ويأمرهم وينهاهم، إلى أن أحسّ بتقلّ وطأته على المغاربة الذين يسهل في كلّ مرّة ردّتهم، لأنّ معظم الفتوحات والمحاولات السابقة للقادة الفاتحين لم تضرب حقيقة بجذورها بعمق في قلوب المغاربة، فخرج ومن معه ممّن ثبتت دعوته في قلبه إلى رباط ناءٍ في أقاصي الصحراء يعبدون الله ويطبّقون تعاليم الدين، وبعدها التحق به التوابون ممّن ضلّ وزاغ قلبه وبلغ عدد من اجتمع بهم من أشرف المغرب نحو 1000 رجل من أشرف صنهاجة، ثمّ عمّت دولته كلّ أقطار المغرب لمدة 21 عاما عمّ فيه الخير والحلال إلى أن استشهد عام 451 هـ. وسماهم الناس بالمرابطين لملازمتهم ذلك الرباط، والرباط معناه الحصن الصغير الذي يأوي حامية من المجاهدين المتطوّعين الذين يقفون على قدم الاستعداد لصدّ كلّ غزو للأراضي الإسلامية، وهو في اصطلاح الفقهاء "احتباس النفس للجهاد والحراسة" وعند المتصوّفة "الموضع الذي تلتزم فيه العبادة". وكان من

أهم ما سجّل من أحداث في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ المغرب هو ظهور المذهب المالكي في الفقه وسيطرته على المذهب الكوفي السائد، وقضاؤه بعدها على المذاهب الأخرى المنتشرة في كافة القطر المغربي كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مدرار في سجلماسة والبرغواطي والاعتزالي والشيوعي هنا وهناك. ولم يوطّد مذهب مالك الأركان كمذهب فقهي فحسب بل كعقيدة أيضا تلازمت بين طريقته في الفقه والاعتقاد، وهي اتّباع السنة ونبذ الرأي والتأويل الكثير، كما ازدهرت الحياة الفكرية في هذه الحقبة ازدهارا لا مثيل له بفاس ببناء جامع القرويين عام 245 هـ الذي كان ركيزة للحياة الفكرية في كلّ المغرب، رغم وجود مساجد أخرى كثيرة في كلّ القطر، وعدّ هذا الجامع أقدم جامعة علمية في العالم الإسلامي وجلّ كبار علماء المغرب إنّما نبغوا منه. استلم الحكم بعد وفاة عبد الله بن ياسين الجزولي يوسف بن تاشفين الملقّب، ففتح مدنا كثيرة وطهرها من جهل أسياها وظلمهم كفاس ومراكش التي بناها عام 454 هـ، ثم فتح المغرب الأوسط وأخذ عاصمته تلمسان من يد مغراوة، ثم فتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس، ومن الشلف إلى الجزائر حتى بلغ حدود السودان ونهر النيجر وغيرها¹. وقوى يوسف رباط المرابطين وجعل من دولتهم أقوى الدويلات آنذاك وصل صيتها الأندلس التي استنجدت به للوقوف في وجه عدوهم ملك قشتالة الذي كان بالمرصاد لاحتلال بلادهم هلك حينها كثير من المسلمين الأندلسيين أثناء غزوها من ملك قشتالة ألفonso السادس فاستنجد فقهاؤها وعلمائها كابن حزم بيوسف فساعدهم بجيوش المغاربة، وقضى عليه بسهل الزلاقة عام 479 هـ بواقعة الزلاقة تنفس يومها الأندلس الصعداء ولقّب يومها يوسف بأمير المسلمين عظمة فيه وفي رأيه، وعاد إلى المغرب تاركا الأندلس مطهّرة من الغزاة المسيحيين تحت تصرّف ملوك الطوائف، لكن سرعان ما عاد الأندلسيون وملوكهم إلى اللهو والمجون وحياة العبث فجاء الصريح إلى يوسف من فقهاء الأندلس وأعيانها وحتى من عامتها فأسرع إليهم ففرض على ملوك الطوائف وضمّ بلاد الأندلس إلى المملكة

¹. ينظر: عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2. طنجة: 1960، دار الثقافة.

المغربية وبذلك أنقذها من المصير الذي عاشته طيلة أربعة قرون، فجعلهما وطنًا واحدًا تبادل سكانهما المنافع والمصالح وسكن بعضهم إلى بعض وزالت بينهما الحواجز والفوارق السياسيّة، وتوجّ يوسف بتاج الصدق والإخلاص طيلة حكمه للملكة المغربيّة استطاع بسياسته الحكيمة وإدارته الطيّبة من ردّ المغرب إلى أحضان العالم الإسلامي السني وقد بايعه الخليفة العباسي أبو العباس أحمد المستظهر بالله، وخاطبه بأمر المسلمين وتوجّه بأن رخص له بصكّ العملة المغربيّة باسمه، وأصبح المرابطون يتحكّمون في إمبراطورية شاسعة، موحّدة تمتدّ أفقيًا من الحدود المصريّة إلى البحر المحيط، وعموديًا من بلاد الأندلس إلى حدود النيجر ونهر السينغال جنوبًا، وبني أيامه صرح المعرفة والعلوم المتنوّعة ونشطت الحياة الفكرية، وبنيت مدارس حكوميّة لإيواء الطلبة بفاس أشهرها (مدرسة الصابرين) كانت من بناء يوسف بن تاشفين في الوقت نفسه الذي بُنيت أول مدرسة في المشرق وهي مدرسة بغداد، ونبغ في عصرهم عدد لا يحصى من العلماء في مختلف العلوم. لكنّ استقرار دولتهم واطمئنّانها بدأ يضطرب حين ظهر المهدي بن تومرت الهرغي على مسرح الأحداث وضرب ضربته القويّة التي قوّضت أركان بنيان المرابطين الشامخ فأحدث انقلابًا على دولتهم كان يغذّيه قضية إحراق كتاب (إحياء علوم الدين) لحجّة الإسلام الإمام الغزالي أيام علي بن يوسف بن تاشفين، فتاقت نفس المهدي إلى تحقيق الحقّ إذ ليس من الجائز أن يكون الإسلام في المشرق غيره في المغرب، بإعادة الاعتبار للإحياء. وكان ورعًا زاهدًا سمّى نفسه بالمهدي المنتظر لزعمه بالانتساب إلى أهل البيت واسمه محمد وهو من السوس من قبيلة مصمودة، كان يصلح الفساد وينهي عن المنكر واللهو والمجون وينبذ مظاهره حينما حلّ كما فعل في الإسكندرية والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغيرها، همّه الوحيد كان طهارة المجتمع المغربي وتجديد التمسك بأخلاق دينه وتوحيد آراء المغاربة بآراء المشاركة في تأويل الآيات والأحاديث، واحتضنت دعوته مختلف القبائل المغربيّة لأنّها كانت تحت شعار التوحيد مؤسسًا الدولة الموحّدية وغدا سلطانًا مطاعًا في مختلف القبائل، وشهدت أيامه ضعف الدولة المرابطيّة وانهارها، وقد خلفه حين توفي سنة 524 هـ رفيقه عبد المؤمن بن علي

الكومي الذي واصل في توحيد المغرب وتطهيره من الزيغ وتشبيد صرخ دولة الموحدين الشامخة البنيان والقوية الأركان بمراكش، وفتح حينها المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، وحرر مدنها من استيلاء الإفرنج عليها، وقد وافاه الأجل قبل أن يطيأ أرض الأندلس ويحررها من العدو، وقد استلم السلطة ابنه يوسف الذي حقق أمله بتحرير الأندلس لمدة خمس سنوات كان النصر حليفهم، ثم عاد إلى المغرب وأغدقها إصلاحا وتنظيما، وعاد إلى الأندلس ثانية عام 579 هـ وهناك استشهد وبويع ابنه يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة الموحدية عهده منتهى القوة والعظمة، وكان عهدا ذهبيا ازدهرت فيه الحضارة وتطور العمران واستقر النظام وعادت أخلاق الدين السميح بين الناس وارتفع مستوى الأخلاق، وقيل أغلقت ديار القضاة لندرة المدعاوي، ويقع الدينار أرضا ولا يرفعه أحد حتى يعود إليه صاحبه، ولا تتعرض المرأة للمضايقة والسوء، كما صنع أساطيل حربية بحرية لم يشهد لها مثيل قبل... وأهم ما قام به بالمغرب هو التدبر في عرب بني هلال الذين طالما شوشوا على ملوك بني زيري بإفشاء الفساد في البلاد، فنقلهم إلى منطقة الغرب وانحسم أمرهم، وطهر الأندلس ثانية بجيش الأندلسيين والمغاربة ضد الاجتياح المسيحي عام 591 هـ وكان النصر حليفهم، وساعد في منع الزحف الصليبي على سواحل الشام وبيت المقدس زمن صلاح الدين الأيوبي بتجهيز لهم أسطول بحري. ولما توفي سنة 595 هـ خلفه ولده محمد الناصر ولم يكن أقل همّة وشجاعة من أبيه، افتتح مدة حكمه بالقضاء على ابن غانية بإفريقية مهدد دولة الموحدين، ففضى على معقله أي آخر معقل المرابطين المهددة لهم، لكنّ الحظ خانه بالأندلس سنة 609 هـ حين اجتمعت القوات المتحدة لممالك النصرانية لاستعادة السيطرة المسيحية على الأندلس في واقعة العقاب، والتي انتهت بسقوطها على يدّ المسيحيين الإسبان وسحق الإسلام منها، والتي كانت أيضا مبدأ سقوط الدولة الموحدية وانهارها. وكان ما يميّز دولة الموحدين عن دولة المرابطين قطع الصلة التي تقرّ بتبعية المملكة المغربية للخلافة العباسية مرة أخرى، وبنائها لأسطول بحري عظيم مكّن لهم السيادة على غرب البحر المتوسط ومضيق جبل طارق. وظهرت

أيام الموحّدين حركة علميّة مزدهرة تقدّميّة أساسها تجديد الدين وتوطيده بين نفوس البربر، وظهرت علوم متنوّعة دينيّة وأدبيّة، علميّة وفلسفيّة. وبعد فشل الدولة الموحّديّة في قمع التحالف المسيحي على الأندلس فإنّها لم تتمكن أيضا من إدارة نفسها في المغرب الذي بدأ ينقسم إلى دويلات صغيرة حاولت كلّ واحدة منها فرض نفسها على سيادة المغرب وهي الدولة الحفصيّة بالمغرب الأدنى بزعامة أبي عمر بن يحيى الهنتاني وأبنائه، ودولة بني عبد الواد الزيانيّة بالمغرب الأوسط بزعامة يغمراسن بن زيان، فقد تمكّن هذا الأخير من توسيع مملكته وحلم أسرته في السيادة على المغرب الأوسط كلّ بعد أن ولّاهم الموحّدون حكاما على تلمسان فقط، وعاشت هذه الدولة قرابة ثلاثة قرون أمضتها بين زواجر الفتن وأهوال الحروب مع الحفصيين والمرينيين خصوصا، ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى التي قامت بانقلاب على الموحّدين بمعركة المشعلة التي انتهت بسقوط الموحّدين وإعلان المرينيين أنفسهم سلاطين على المغرب الأقصى على يدّ يعقوب بن عبد الحقّ المريني الذي لقّب نفسه بالمنصور وأعلن نفسه سلطانا، بعد أن زحف هؤلاء إلى المغرب الأقصى عن طريق الصحراء واستقروا فيه لرغيد العيش وكثرة الأراضي الخضراء بالمغرب الأقصى، وهم كانوا بدوا رحلا. وبعد إحكام سيطرتهم على المغرب الأقصى زحفوا على المغرب الأوسط والمغرب الأدنى يريدون إلحاقهما إلى الدولة المرينيّة تحقيقا للوحدة المغاربيّة مثلما فعل الموحّدون مهما كلّفهم الأمر من الجهد والعناء وزهق الأرواح البريئة، وهناك اصطدم يعقوب المريني بملاك بني عبد الواد الزيانيّة بالمغرب الأوسط وبني حفص بالمغرب الأدنى. وكانت بلاد المغرب الإسلامي أيام المرينيين في حالة يرثى لها أراد المرينيون خلال عهدهم سحق الدويلات التي قامت منافسة لها في كل من المغرب الأوسط والمغرب الأدنى، فبثت في قلوب المغاربة الذعر والخوف والعداوة أيضا، وجلبتهم إلى حروب أهلية طاحنة لم يجن المغرب الإسلامي سوى الخسائر المتوالية في المال والرجال، وزعزعة مركزه الدولي القوي الذي كان له أيام المرابطين والموحّدين في العالم الإسلامي وغيره. غير أنّ سياستهم هذه المستبدّة في المغرب لم تكن كذلك في الأندلس فقد همّ المرينيون لتحريره ومقاتلة الإسبان للدفاع عن الإسلام فكانت مواقفهم هناك مشرّفة

استعادوا الكثير من الحصون والقلاع وأهدوها لأمرأ بني نصر أصحاب الأندلس، غير أنّ سياسة المرينيين في المغرب في التنازع على الإمارة والتكالب على السلطة حتى بين الأسرة الواحدة لم تتغير إلى أن انتهى الأمر بسقوطهم واضمحلال قوتهم بسبب الحروب الأهلية الطاحنة، وفسح المجال لظهور دولة بني وطاس وهي فرع من بني مرين، ولم يصحب دولة الوطاسيين سوى الفشل والتعثر، وبقيت كذلك إلى أن أخلت الساحة للسعديين، وقيام الدولة السعدية في القرن العاشر الهجري، وهدفت الدولة السعدية إلى توحيد الدويلات الثلاث المتصارعة تحت دولة واحدة وشعار واحد وهو الأخوة والسلام وكانت قاعدتها مراكش وفاس، لكنها تعثرت هي الأخرى وعاش المغرب الإسلامي أيامها أفتك الحروب وأشدّ الأطماع بين أولاد الأسرة الحاكمة في الاستيلاء على العرش فلم تكن هي الأخرى فال خير على المغرب، في الوقت الذي كان الطمع البرتغالي في الاحتلال قد بدأ زحفه على سواحل المغرب الأقصى. فانتهدت سيادة هذه الدولة سريعا لتحلّ الدولة العلوية التي استصلحت أحوال المغرب وحصنته ببناء العمران وتشبيد صرخه وبناء المدارس وإنشاء المرافق الاجتماعية وبناء أسطول بحري وتدريب البحارة... وعقد صلح مع الدول المجاورة من ملوك أوربا وتركيا لصالح المغرب خصوصا أيام المولى محمد بن عبد الله الذي اجتهد حقّ اجتهد في إصلاح البلاد، رغم أطماع الأوربيين والعثمانيين فيه، والتي انتهت بنيله في العصر الحديث.

3. الحياة العلمية بالمغرب الإسلامي: رغم تلك الأحداث التاريخية المزريّة التي عاشها

المغرب الإسلامي من اضطرابات وحروب وفتن ومنازعات داخلية وخارجية، طيلة قرون عديدة إلّا أنّنا نجد أنّ الحياة العلمية من القرن الخامس إلى التاسع الهجري حياة تستحقّ الإعجاب إذ لم يعقها كلّ ذلك، كان أساسها الازدهار في كلّ فنون المعرفة. وإذا بحثنا عن أسباب ذلك الازدهار العلمي نجد أنّ كثيرا من حكام المغرب مرابطين أو موحدّين أو غيرهم كانوا إمّا من العلماء أو من المحبّين للعلوم والعلماء، يقول عبد الواحد المراكشي تـ647هـ صاحب (المعجب) عن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين: "وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من

أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار¹. وقد شارك معظم الأمراء والرؤساء المرابطين في طلب العلم وتحصيله مما دفع من عجلة الازدهار العلمي إلى الأمام، "فقد كان الأمير ميمون بن ياسين من أمرائهم ممن عني برواية الأحاديث، وله رحلة إلى الحج فسمع بمكة من أبي عبد الله الطبري صحيح مسلم عام 497هـ، وسمع بها أيضا من أبي مكتوم بن أبي ذر الهروي صحيح البخاري، فأوصله إلى المغرب ونشره بين الناس"²، و"كان ابن أيوب الفهري راوية الحديث يأخذه عنه جم غفير من الناس فينافسهم في ذلك الأمير سير بن علي بن يوسف"³. وكان معظم الأمراء المرابطين يستضيفون في قصورهم الأدباء واللغويين ويحرصون على راحتهم، وذلك للاستعانة بهم في صياغة المخاطبات والمراسيم السلطانية والتوقيعات، والاعتماد عليهم في تدبير شؤونهم وأعمالهم، "ومن هؤلاء الأمراء الذين استقبلوا الأدباء والشعراء في قصورهم وقدموا لهم الرعاية والتشجيع إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، توجه إليه مجموعة من كبار أدباء الأندلس لما عرف عنه من كرم وشجاعة وميول أدبية، فمن هؤلاء الأدباء الكاتب الشهير الفتح بن خاقان صاحب كتابي (مطمح الأنفس) و(قلائد العقيان)، الذي ألفه باسم الأمير إبراهيم وأشاد في مقدمته بمحاسنه وفضله على الأدب"⁴. وكذلك الأمر في قصر الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين، فقد كان بلاطه مألّف أهل الأدب ومعقد آمالهم وباسمه ألف الوزير أبو عامر بن الأرقم مقامة أدبية⁵. إلى جانب تشجيعهم للمناظرات الثقافية والمجالس العلمية في قصورهم

¹. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، دط. القاهرة: 1963، دار النشر، ص 227.

². عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 74.

³. نفسه، ص 72.

⁴. فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين (484هـ . 670 هـ)، دط. دمشق: 2012، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ص 57.

⁵. نفسه، ص 57.

بحضورها والمشاركة فيها بالحوار والمناقشة والإصغاء، "وقد عرف عن الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين إكرامه للطلبة والعلماء، وقد خصص يوم الجمعة من كل أسبوع للمناظرات"¹. وظهر في عصرهم الاشتغال بكل ألوان الثقافة العربية من علوم دينية ولسانية من نحو ولغة وشعر وكتابة ونبغ فيها أفراد عديدون، يقول الأستاذ عبد الله كنون في هذا الصدد: "ولو أردنا تسمية جميع من نبغ في باب من أبواب المعرفة من أهل هذا العصر لطال بنا الكلام لأنهم كثيرون جدا"²، أذكر ممّن نبغ منهم في علم النّحو: الحسن بن طريف النّحوي ت501هـ من أهل سبتة، القاضي عياض اليحصبي ت544هـ، أبو الحسن بن سراح، أبو الحسن بن طريف السبتي، مروان بن سمحون الطنجي ت491هـ، وغيرهم من أهل العلم في القرن الخامس.

والحياة العلميّة في عصر الموحّدين يكاد يفوق ازدهارها في مختلف العلوم ما كان له أيام الخلفاء العباسيين في المشرق وملوك الطوائف في الأندلس، ولم تتأثر النهضة العلمية بذلك الانقلاب السياسي على يدّ المهدي بن تومرت البربري، بل واصل الموحّون تدعيم ركائز الثقافة العربيّة والبربريّة معاً، بتنشيط البحث العلمي وتشجيع العلماء وتكريمهم، "فحين أسسوا دولتهم في المغرب والأندلس لم يجدوا أرضاً خالية فيهما من العلوم والمعارف والأدب، بل وجدوا أنّ المرابطين قد خلّفوا لهم إرثاً علمياً زاخراً بأنواع المعارف المختلفة، فحافظوا على حضارتهم، وشجّعوا في الوقت نفسه العلوم التي كانت محظورة في الدولة المرابطيّة كالعلوم الفلسفيّة والصوفيّة، واهتمّوا بالعلوم اللغويّة والفنون الأدبيّة التي كانت سائدة، وشجّعوا العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء والفلاسفة على التصنيف، واستضافوا عدداً من أعلام اللغة والأدب الذين خدموا في البلاط المرابطي، وسلّموا المناصب العليا في الدولة"³. ويقول الأستاذ كنون عن عصرهم: "وكان الموحّدون . والحقّ يقال . أشبه الدول الإسلاميّة بالعباسيين في الأخذ بالعلوم وتنشيط رجالها، وكان الأمير يوسف بن عبد المؤمن كمكانة المأمون عند العباسيين في عنايته

¹ .فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 59.

² . عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 76.

³ . فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 79.

بالعلوم ورجاله"¹. وما يسجل أيضا للموحدّين بإعجاب اهتمامهم الشديد بالكتب والمؤلفات النادرة وطلبها ولو بأثمان باهضة، وعنايتهم الفائقة كذلك بالمكتبات وإعلاء شأن أصحابها، يقول الأستاذ عبد الله كنون في هذا الأمر: "زيادة على ذلك تنقيبهم عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغربية، من سائر الجهات، حتى لقد جمع الأمير يوسف بن عبد المؤمن الألوفا المؤلفّة منها، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي. وكانت لخزانة الكتب أيامهم ولاية خاصة لا يولونها لأيّ كان لأنّ أمرها عظيم. وممن وليّ النظر فيها أيام يوسف بن عبد المؤمن: القاضي أبو محمد بن الصقر، من أحسن العلماء نظرا، فقام عليها أتمّ قيام، واستنسخ لها الكثير من المجلّدات الضخام، وكان كلّما بالغ في النصيحة والخدمة كلّما بالغوا له في العطايا والهبات"². وفي عصر الموحدّين نشأت فكرة جديدة تسهّلا على الطلاب في الحفظ وهي فكرة نظم المسائل اللغوية على الشعر العمودي لما رأى العلماء أنّ النظم أكثر ضبطا وأيسر حفظا، ومن ذلك نظم العلامة يحيى بن معط ألفيّة في النّحو ونظم جمهرة ابن دريد وصاح الجوهري، وهي محاولة جريئة كما لا يخفى، وأرجوزة العلامة ابن المناصف المسمّاة بـ(المذهبة في الحلى والشّيآت)، وقد نظّمها بمراكش عام 620 هـ. وظهر في عصرهم عدد كبير من النّحاة ذوي المقام الرفيع، ألفوا العديد من الكتب التي لا تزال تعرف بعلوّ قدرهم، وتتبيّن عن رسوخ قدمهم في علم النّحو، وقد بلغ بهم التفوّق في هذا العلم إلى "وجود مدارس نحويّة هنا وهناك، تفرّدت بآراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره. فهذه مدرسة فاس التي سيختلف أهلها مع مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة، وهذه مدرسة سبتة التي ستخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نوّنت اضطرارا. وهذه مدرسة طنجة التي توجّه أسئلة نحويّة إلى مدرسة إشبيلية. وأخيرا هذه مدرسة المغرب بعامة التي لا تسمّي لولا شرطا، ولا لو إلّا إذا كانت بمعنى إن، أي حين تكون مجردة من الامتناع، وذلك في الغايات نحو قوله صلى الله عليه وسلم: "احفظوا عني ولو آية"³.

¹. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 133.

². نفسه، ص 135 - 136.

³. نفسه، ص 126.

وممن نبغ في علم النحو أيامهم: أبو حفص الأغماتي ت603هـ، أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي ت655هـ، أبو موسى الجزولي ت607هـ: واضع المقدمة الجزولية المسماة أيضا بالقانون والكراسة والاعتماد، يحي بن معط الزواوي ت628هـ، وقد أخذ علمه عن أبي موسى الجزولي. ومن أهم كتب النحو واللغة في هذا العصر:

. من كتب أبي موسى الجزولي: المقدمة، شرح المقدمة، شرح أصول ابن السراج، الأمالي.
 . من كتب يحي بن معط: الدرّة الألفية في علم العربية، والتي عمل ابن مالك ألفية على مثالها، نظم جمهرة ابن دريد، نظم الصحاح، نظم العروض، الفصول الخمسون.
 وكتب أخرى كشرح الجزولية لأبي العباس الشريسي السلوي ت641هـ وشرحه للمفصل، شرح جمل الزجاجي لأبي القاسم بن الزيات ت665هـ... وقيل إنّ المكتبة المغربية في هذا العصر كانت من أغنى المكتبات بالمؤلفات النادرة.

وإذا صوّرنا الحياة الفكرية في العصر المريني فإننا نجدها مزدهرة جدا ولم يعقها ذلك الانقلاب السياسي والتدهور الاجتماعي، وكان النحو واللغة في قمة العلوّ لم يسبق له مثيل، فاق بكثير ما كان عليه عصر الموحّدين، وكان الحكام المرينيون يشجّعون العلماء على التأليف والبحث ويغدقون عليهم العطايا والهبات مثلما كان الأمر في العصور السابقة، يقول الأستاذ كنون في هذا الموضوع: "فأما النحو واللغة فإنهما لم ينالا قط من التقدّم ما نالاه في هذا العصر، وذلك لأنّ الدولة عربية الصبغة، تقدّر مجهود العاملين على رفع شؤون العروبة، وليس لها التفات إلى غير ذلك، فلا عجب أن ينبغ فيها وفي سائر العلوم العربية رجال عظام ممن يفتخر بهم المغرب، فمن هؤلاء ابن آجروم، ذلك الرجل الذي استطاع أن يخلّد اسمه أبد الدهر، بوريقات في النحو، يعرض مسائله بسداجة تشبه عقلية الطفل، وتتوافق وآخر ما قررته البيداغوجية الحديثة في أساليب التعليم، حتى أطلق الناس اسمه على النحو، وكأنّه واضعه، فقالوا (الآجرومية) وأرادوا (النحو)، ممّا لم ينله سيبويه نفسه"¹. ومن أهمّ نحاة العصر المريني وكتبهم:

¹. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 166.

أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المعروف بابن أجروم ت723هـ بفاس، أبو زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي الفاسي ت807هـ، والذي كان إمام نحاة عصره، أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي ت721هـ، أبو القاسم الشريف الحسني السبتي ت760هـ، مالك بن المرحل ت699هـ. ومن كتب النحو واللغة في هذا العصر: الآجرومية لابن أجروم، الكليات النحوية لابن البناء العددي ت721هـ، شرح التسهيل لأبي القاسم الشريف، شرح كتاب سيبويه لابن رشيد، نظم فصيح ثعلب لابن المرحل، ومن مؤلفات مالك بن المرحل أيضا: شرحه لفصيح ثعلب، نظم غريب القرآن، نظم اختصار إصلاح المنطق، الرمي بالحصى والضرب بالعصا (ردّ به على ابن الربيع النحوي). ومن كتب المكودي: شرح ألفية ابن مالك، شرح الآجرومية، البسط والتعريف في علم التصريف، شرح المقصور والممدود... ومن كتب النحو الأخرى: لامية الجمل للمجراد ت778هـ، شرح جمل الزجاجي لأبي عبد الله الغافقي السبتي ت730هـ، شرح جمل الزجاجي لأبي محمد بن مسلم الأنصاري، ألفية في النحو لعبد العزيز اللمطي ت880هـ، شرح الآجرومية لكثير من النحاة...

وكتب النحوي في العصور التالية كعصر السعديين فهي كثيرة جدا لا يمكن أن تحصى منها إعراب أوائل الأحزاب لداود محمد السملالي، حاشية شرح المكودي للألفية لمجبر ت985هـ، شرح الألفية لابن غازي ت917هـ، شرح شواهد الشريف شارح الآجرومية للدقون ت921هـ، شرح الألفية للقاسم بن القاضي ت1022هـ وشرحه لتصريف المكودي، شرح لامية ابن مالك للمكلائي ت1041هـ، نظم في تصريف الأفعال لحسن بن داود الرسموكي ت1049هـ وشرحه للجمل في النحو، شرح الآجرومية لعلي بن عبد الواحد السجلماسي ت1054هـ...

وفي العصور الموالية توالى البحث العلمي والتأليف في النحو في مختلف المدن المغاربية مثلما كان عليه في العصور السابقة، على أن البحث العلمي والتأليف لم تنقطع حركته عن الازدهار طيلة قرون عديدة إلى يومنا هذا، مثل: شرح التسهيل للمرابط الدلالي

ت1089هـ، ومن كتبه أيضا: شرح الألفية، شرح البسط والتعريف في علم التصريف، شرح الآجرومية لإبراهيم التادلي وكذلك شرحه للألفية وشرح كافية ابن الحاجب وشرح شذور الذهب...، شرح الألفية لأبي نافع ت1260هـ، شرح لامية الأفعال لابن يعقوب... وأختم بعلم من أعلام شنقيط العريقة المختار بن بونا الجكني الشنقيطي ت1220هـ وطوّره على ألفية ابن مالك التي نالت إعجابا واهتماما كبيرا من علماء كثيرين.

4. قصة اللغة العربية في المغرب الإسلامي، وطريقة المغاربة في ترتيب حروف

العربية وحساب الحمل: حين دخل الفاتحون العرب من بني أمية المغرب الإسلامي قصد نشر الدين الإسلامي الحنيف فيه وجدوا أشتاتا كبيرة من المجتمع البربري على طول امتداد المغرب الشاسع يتحدث إلى جانب البربرية لغة قريبة من اللغة العربية والتي هي (اللغة البونوية) أو (البونيقية)، وهي لغة منحدره من اللغة الكنعانية، والتي انتشرت مع دخول الفينيقيين الشمال الإفريقي في أوائل العصور الوسطى وبالتحديد أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، "والذين تمكّنوا من تأسيس حواضر كثيرة منها حاضرة (ليكس) بالمغرب الأقصى قرب مدينة العرائس حوالي 1100 قبل الميلاد، ومدينة (أوتيك) ثم قرطاجنة عام 814 قبل الميلاد بجنوب تونس، وبنائهم لهذه الأخيرة بدأ دخولهم الرسمي إلى الشمال الإفريقي وانتشارهم على طول الساحل الأطلسي، وقد كانت حضارتهم قد تركزت قبل ذلك بجزال لبنان وسواحل الخليج العربي بالبحرين والقطيف"¹. وقد فسحت لغتهم البونوية آفاقا شاسعة في أقطار المغرب لانتشار اللغة العربية التي تغلغت تلقائيا على أفواه المغاربة مع الفتوحات الإسلامية، لأنّ البونوية لغة قريبة من العربية من حيث ألفاظها وقولها، وتجلى ذلك من الرخامة التي كشفها البرازيلي الأديزلونيتو في كتابه (الأنثروبولوجيا) والتي كتبت عام 125 قبل الميلاد باللغة البونوية من قبل الفينيقيين الذين سكنوا البرازيل، والتي نقلها الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله رئيس المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالوطن العربي في كتابه (تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث) بدراسة عميقة لأبنيتها، وهذه الجملة هي: "هنا

¹. عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث، دط. لبنان: دت، دار لسان العرب، ص 19.

أحنا بني كنعان فرنم حقرة حمل"¹، ومعناها باللغة العربية الفصحى كما نقلها رئيس مكتب تنسيق التعريب: "هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار" وقال هي سبع كلمات بونية لا يوجد فيها أيّ دخيل وإنّما هو انحراف بسيط عن العربية الفصحى بسبب الاستعمال العالمي المتداول. وقال في التسمية الفينيقية للمدينة التي أسسوها جنوب تونس (قرطاج) إنّ معناها (قرية حداث) أي بالعربية الفصحى (المدينة الحديثة). وفي كلمة (حنبل) معناها (نعمة الله). وفي اسم أبيه (عاملكار) أي (حامي القرية) لأنّه حارب الرومان... وغيرها من الألفاظ البونية. وأكّد أنّ اللغة البونية لازالت متغلّطة في البوادي المغاربية حتى نهاية عهد الوندال الجرمان وقبيل الفتح الإسلامي عن رواية القديس أغسطين. وحين وصل الفاتح العربي إلى المغرب فإنّه لم يجد صعوبة كبيرة في توصيل الرسالة التي حملها إلى المجتمع البربري باللغة العربية لأنّ البربر قد تبنّوا عديدا من الألفاظ والتعابير العريقة المشابهة للعربية من اللغة البونية المنتشرة هنا وهناك. وحين استقرّت أوضاع بلاد المغرب عسكريا بدأ خلفاء بني أمية بالمشرك بتوجيه عنايتهم إلى بلاد المغرب بإرسال البعثات الدينية والعلمية لنشر الدين الإسلامي واللغة العربية فأقدم عاملهم عقبة على تأسيس مدينة القيروان التي أصبحت أوّل مركز للثقافة العربية ثم "جعل حسان بن النعمان العربية لغة الدولة الرسمية بتعريب الدواوين بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر بإحلال العربية محلّ جميع اللغات في كل أقاليم الدولة الأموية المفتوحة"². وفي عهد موسى بن نصير عيّّن هذا الأخير سبعة وعشرين عربيا لتعليم اللغة العربية ومبادئ الإسلام والقرآن والفقه لجيش طارق بن زياد الذي أعدّ لفتح الأندلس، وكان عدده اثني عشر ألفا من البربر، كان تجاوبهم لتعلّمها كبيرا، وكانت هذه الخطوة النواة الأولى للتعريب الحقيقي تضخّمت فيما بعد إلى ثلاثمائة معلّم عربي³، وأثمرت هذه الخطوة عن ميلاد أوّل صرخة بلغة الضاد إلى الجيش البربري على

¹. عبد العزيز بن عبد الله، تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 31-32.

². عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ط 3. الجزائر: 1983، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 127.

³. عبد العزيز بن عبد الله، تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 34.

لسان طارق بن زياد في المغرب الأقصى دون أن يصعب عليهم فهمها، وهي مطلع خطبته الشهيرة "يا أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر"¹. وشرعت حملة التعريب هذه تقوى منذ بداية القرن الثاني الهجري أيام خلافة عمر بن عبد العزيز حين أرسل إلى المغرب مع واليه إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر تـ101هـ مجموعة من المعلمين العرب، كما أنه وصلت قبيل هذه الآونة مجموعات من كبيرة من يهود خيبر إثر الهجرة النبوية إلى المغرب الأقصى وانغمست في قبائل بربرية مثل جراوة ونفوسة وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغيثة وفازاز²، وكانت لغتهم عربية صرفة بذرت الجذور الأولى لانتشار لغة قريش على صعيد واسع إلى جانب انتشار لغتهم العبرية القريبة أيضا من اللغة البونية الفنيقية. وخلال القرن الثاني للهجرة بدأت مجموعات كبيرة من المغاربة بالتوجه نحو المشرق قصد الحج، وكانت تقطع أشهرا طويلة في المشي فتستقر للراحة في أربطة العلم والأدب في مصر واليمن والحجاز، وكان بعضهم يستقر في قبائل عربية فصيحة فيتعلم منها الحديث والسنة واللغة ورواية الشعر وأمثال العرب وحكمها حتى تقوى ملكته في الأدب واللغة، ليساهم بعد رجوعه إلى المغرب في الترويج للعروبة والإسلام³. كما أن للعنصر البشري القادم من المشرق دورا في استعراب المغرب لأنه على امتداد القرون الخمسة للإسلام كان باب الهجرة للقبائل العربية مفتوحا للاستقرار في المغرب والأندلس "وكانت في طليعة الوافدين من القبائل عدنان وربيعة وغطفان وتميم وكنانة وقيس وتغلب وكانت أغليبتهم عرب عدنان"⁴. وكانت عربيتهم مضرية بذرت بذورها في المغرب فكانت مدينة القيروان التي بناها عقبة بن نافع عام 245هـ تزخر آنذاك بأكثر من مائة وخمسين ألفا من العرب المهاجرين⁵، وقد أسس الأغلبية فيها نهضة علمية قوية تمثلت في (بيت الحكمة) مثلما كان الحال ببغداد، وقد جلبوا إليها عددا كبيرا

¹ . عبد العزيز بن عبد الله، تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 35.

² . نفسه، ص 32.

³ . نفسه، ص 72.

⁴ - عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ص 146.

⁵ - عبد العزيز بن عبد الله، تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 35.

من العلماء والأطباء والفلكيين والموسيقيين من المشرق. وكان المغرب الأقصى أيام الأدارسة عهد ابن إدريس الأكبر بجيش من خمسمائة فارس عربي، "فجعل على رأس دولته وزيرا أزديا وهو عمرو بن مصعب الأزدي، وقاضيا قيسيا وهو عامر القيسي تلميذ الإمام مالك، وكاتبًا خزرجيا وهو عبد الله الخزرجي، وقد خططوا أسسا قديمة لتعريب المغرب العربي"¹. ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في تعريب المغرب الإسلامي تصاعد الفكر الإسلامي بسبب تنافس الحكام العرب من أمويين وعباسيين وأدارسة وفاطميين على بلاط الحكم في المغرب بدعواتهم كلّ واحد لنشر الإسلام ومبادئهم السياسية وإقامتهم لملتقيات العلوم والفكر المتنوعة في مختلف المواضيع، وقد اتّسعت بها شبكة نفوذ اللغة العربيّة في المجتمع البربري في الوقت الذي بدأت فيه أفواج من عرب بني هلال وبني سليم يحطّون الرحال بالمغرب بعد أن زجّ بهم الفاطميون في أرض إفريقية، فاستقرّوا في فاس ومكناس وجبال تادلة والمغرب الأوسط والمغرب الأدنى، واتّجهت طوائف كبيرة منها إلى البوادي الصحراوية قصد تعريبها، وقد أفشوا الفساد والتعصّب الجاهلي في أكثر من موضع وقد انحسم أمرهم بأن أدرجهم الموحدون في تعداد الجيش البربري النظامي الذي أعدّ للجهاد في الأندلس، وكان لذلك احتكاك قبائل البربر بهؤلاء العرب الفصحاء اجتماعيا وفكريا في مختلف الأقاليم خصوصا في السهول والصحاري، وبحكم الطابع الصحراوي لجنوب الأقاليم المغاربيّة فإنّ هذه العناصر العربيّة قد غمرت أجزاء كبيرة من هذه الصحاري وظلّت تنتقل فيها بحكم طبيعتها البدويّة، ولم يكدّ ينتصف القرن الثامن الهجري عصر المرينيين حتى استقرّت تلك الجماعات الكبيرة من العرب في كلّ المغارب الثلاثة. وقد اتّسعت معها آفاق اللغة العربيّة التي أصبحت لغة العلم والدين في المساجد والجوامع والرباطات والزوايا وصار الإقبال على تعلّمها في تزايد إلى أن تقلّصت اللهجات البربريّة تقريبا في الصحاري لتتكّمش في الأطلس. وكانت القبائل البربريّة تتشاطر فيما بينها في مستوى ثقافتها العربيّة، وكان منها مهبط رواد العلم مثل قبيلة بني مسارة وبني أحمد السرق يفد إليها من مختلف الأمصار جماعات من البربر قصد التعلّم والتفقّه في

¹ - عبد العزيز بن عبد الله، تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث، ص 32.

العربية والقرآن والفقه الإسلامي، ووصل الأمر بالمغاربة من شدة إعجابهم بالعربية وتمسكهم بها إلى إطلاق تسميات وأوصاف عربية على مدنهم كمدينة البصرة قرب القصر، ومدينة القاهرة، والشام الصغيرة لفشتالة، وقبيلة الخلفاء في بني زوال، واستعاروا عديدا من الألفاظ العربية المتعلقة بالمنزل واللباس وأحوال الإنسان وأدوات الصناعات والآلات والأجهزة، وألفاظا كثيرة ذات أصول عربية، وكانوا يسمّون الغرفة الواقعة في طبقة عليا في منازلهم بـ(المصرية) تشبهاً بالعمران المصري في القرن السادس الهجري المكوّن من طبقات تصل إلى ثمانية أو أكثر، كما أنّ صور الأرقام التي اختاروها للعدّ والترقيم هي عربية أصيلة، خلافاً للمشرق المستعمل للأرقام الهندية. ومن شدة حبهم للعربية أيضاً تلقّيبهم فحول شعرائهم ونجباء علمائهم بألقاب مشرقية كالمتنبي لابن هانئ السبتي تـ362هـ، وقد أحبّ الملك البربري المعزّ بن باديس ومدحه بشغف كبير متحمساً له ولعقيدته وأفكاره، وقد كانت قصائده المسمّاة بـ(المعزيات) نصف تراثه الشعري، وهو يذكّرنا بالمتنبي ومدحه لسيف الدولة بحرارة وإجلال متحمسين كلاهما للعروبة، ومن أشعار ابن هانئ في مدح المعزّ بن باديس:

ما شئت لا ما شئت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشّرنا به	في كتبها الأحبار والأخبار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك	الأرزاق والآجال والأعمار.

كما سجّل ابن هانئ معارك العرب في المغرب مع الروم كما سجّل المتنبي معارك العرب في المشرق مع الروم أيضاً. وقتل ابن هانئ في طريقه إلى مصر حين استقدمه المعزّ الذي انتقل إلى مصر، وأراد أن يكون له صوتاً داعياً في المشرق فقال متأسفاً: "كنا نريد أن نفاخر به أهل المشرق فلم ترد لنا الأقدار ذلك".

وقد برع المغاربة في العربية وبلاغتها براعة المشاركة، وقد أكبوا على كتبهم حفظاً وتعليماً في اللغة والأدب والشعر والنحو والبلاغة... وكان من أمثالهم "من لم يقرأ الكامل

فليس بكامل، ومن لم يقرأ أمالي القالي فهو للأدب قال"، ونبغ منهم علماء وأدباء منذ القرون الأولى للفتح كانوا أئمة للمشاركة منهم الإمام في النحو محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الزناتي الكملاني المولود بثلثمان عام 606هـ نزل الإسكندرية وعليه تخرج أهلها وقد كتب إليه ابن عصفور بالإجازة¹، ومنهم الإمام المصري المقدم في النحو والتفسير والعربية علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الحوفي ت430هـ جاء في ترجمته أنه أخذ النحو عن جماعة من علماء المغرب قدموا مصر، وله (إعراب القرآن)، (الموضح في النحو)، (مختصر العين) وغيرها². كما اشتهر من نسائهم عدد كبير في الفقه منهم خديجة بنت سحنون وفي الأدب منهم مهريّة بنت الحسن بن غلبون³. وكبير هو فضل المغاربة في إتقان اللغة العربية وترقية علومها، إذ لم يحرم هذا الشطر الغربي من العالم الإسلامي على مدى قرون من عباقرة رفعوا من شأنها إلى القمة في ميدان من ميادين الثقافة العربية وتركوا طابعا بارزا فيها، في المغرب والمشرق والعالم كله، منهم عبد الرحمان بن خلدون ت808هـ الذي ارتقى بالتاريخ من السرد والقصص الساذج إلى درجة العلم المفلسف، وتعتبر مقدمته المشهورة فتحا جديدا لم يسبق إليه ولم ينسج على منواله أحد من بعده في العربية، ومنهم جمال الدين بن منظور القفصي الإفريقي ت711هـ صاحب معجم (لسان العرب) الذي يعتبر أكبر موسوعة في مادة اللغة العربية، وابن رشيق القيرواني ت456هـ صاحب (العمدة) التي تعتبر أول محاولة في العربية وضعت أسس النقد الأدبي الصحيح، وأبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ت453هـ صاحب (زهر الآداب) الذي يعدّ من أضخم المصادر لتاريخ الأدب العربي، وابن الجزار القيرواني ت369هـ الذي تجاوزت شهرته في الطبّ حدود العالم الإسلامي إلى أوروبا، وقد ترجم عدد من كتبه في الطبّ إلى اللغة اللاتينية، وظلّت معتمدة في جامعات أوروبا إلى عصر متأخر، وأحمد بن يوسف التيفاشي

¹. الفيروزآبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، ط 1، دمشق: 2000، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ص 271.

². نفسه، ص 198.

³. عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ص 133.

الجزائري ت580هـ الذي كانت كتبه معتمدة عند علماء الفلك بأوروبا إلى زمن متأخر، ويحي بن معط الزواوي ت628هـ صاحب أول ألفية في النحو، وعلي بن محمد القابسي القيرواني ت403هـ صاحب الآراء القيمة في التربية إذ أوصى بالتعليم للجميع ذكورا وإناثا ورفض مبدأ العقاب بل أخذ الصبيان بالرحمة...¹ ولا يزال علماء المغرب الإسلامي إلى يومنا هذا يهتمون باللغة العربية بإنشاء مختلف المؤسسات العلمية التي تعمل على الحفاظ على كيانها ومواكبة العصر كمكتب تنسيق التعريب بالرباط، وجامعة الدول العربية بالقاهرة والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الأليكسو، ومجامع اللغة العربية في معظم الدول العربية، إلى جانب اعتماد كل الدول المغاربية اللغة العربية لغة رسمية لها.

. طريقة المغاربية في ترتيب حروف العربية، وحساب الجمل: للعرب في ترتيب حروف المعجم طريقتان دارجتان على الألسنة والأقلام هما: الترتيب الأبجدي والترتيب الألفبائي، وهما الترتيبان الباقيان في الاستعمال، أما ترتيب الخليل بن أحمد المسمى بالترتيب العيني المرتب من أقصى الحلق إلى الشفتين هجره الاستعمال من زمن بعيد. والترتيب الأبجدي هو الترتيب المجموع في ثمان كلمات تسهلا لحفظها وهي: أبجد هوز حطي كمن سغص قرشت ثخذ ضطع، وعددها 28 حرفا، وهذا الترتيب هو الأصلي وهو منقول من الأبجديات القديمة التي كانت سائدة في الشرق السامي والتي كان عددها 22 حرفا المنتهية بتقرشت، ثم أضاف إليها العرب الكلمتين ثخذ وضطع ليدلوا بها على الأحرف الستة التي تمتاز بها العربية والتي سموها بالروادف². وقد خالفهم في هذا الترتيب المغاربة إذ رتبوا الأبجدية على النحو التالي: أ ب ج د هـ

¹. ينظر: عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب.

². محمد سليمان الأشقر، الفرسة الهجائية والترتيب المعجمي، ط1. الكويت: 1972، دار البحوث العلمية والدار العلمية،

و ز ح ط ي ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش¹. ورأوا أنّ المشاركة لم ينقلوه من الأبجديات القديمة في الشرق السامي كما ينبغي.

ولم يستعمل هذا الترتيب الأبجدي للحروف في المعاجم إلاّ أنّه مستعمل في العدّ والحساب والتاريخ، فقد جعل المشاركة لكلّ حرف من حروف الأبجدية عددا يدلّ عليه، وهذا في حساب الجمل لإيجاد الأعداد والتواريخ، ففي قول الجغرافيين القدامى مثلاً: عرض طبرية (لب) درجات وطولها (نج) درجات يعني عرضها 32 وطولها 58، وهذه أعداد الحروف: أ=1 ، ب=2 ، ج=3 ، د=4 ، هـ=5 ، و=6 ، ز=7 ، ح=8 ، ط=9 ، ي=10 ، ك=20 ، ل=30 ، م=40 ، ن=50 ، س=60 ، ع=70 ، ف=80 ، ص=90 ، ق=100 ، ر=200 ، ش=300 ، ت=400 ، ث=500 ، خ=600 ، ذ=700 ، ض=800 ، ظ=900 ، غ=1000.

وقد أقرّت الهيئات العلميّة العربيّة المختلفة في العصر الحاضر الاكتفاء باستعمال الأحرف الستة الأولى للدلالة على العدد، وجعل الحرف ص دالا على الصفر، نحو: ب ج د = 432، ص ا = 10². وهذا الاستعمال العددي قد غفل عنه الكثير من الباحثين في هذا العصر فإذا رقموا الصفحات في المقدمات والملحقات بالحروف جعلوا ي بمعنى 10 ثم ك بمعنى 11 ول بمعنى 12 وم بمعنى 13 وهكذا، فتنتهي هذه الحروف عند الصفحة الثامنة والعشرين بينما معناها العددي يفوقها بكثير.

وقد جعل المغاربة لستة أحرف من الأبجدية القديمة أعدادا غير الأعداد التي وضعها المشاركة لها وهي: ص=60 ، ض=90 ، س=300 ، ظ=800 ، غ=900 ، ش=1000.

ولا يزال المغاربة يؤثرون هذه الطريقة في العدّ والحساب، ومن أمثلة ذلك منظومة الشيخ الموريتاني محمد الحسن بن أحمد الخديم في تراجم طبقات النحويين، والذي قد سلك في تحديد تواريخ وفيات

¹. طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري، شرح خطبة الكافي في علم اللغة، تق: فرج الله زكي الكردي، دط. القاهرة: 1326هـ، مطبعة كردستان العلميّة، ص 47.

². محمد سليمان الأشقر، الفهرسة الهجائية والترتيب المعجمي، ص 59.

النّحة مسلك الرمز العددي بالجمال، والتزم أن يكون للفظ التاريخ معنى مرتبط بسياق الترجمة، ومن أمثلة ذلك قوله عن أبي الأسود الدؤلي:

أول من رسم نحواً ولغة بلغ في اللسان ما قد بلغه
لكونه قبل حِمام نيّط به أخذ ذاك عن علي النبه.

نيّط = $50 + 10 + 9 = 69$ هـ وهو تاريخ وفاة الدؤلي. وعن عيسى بن عمر النّقي قوله:

ثم أبو عمر عيسى بن عمر في العربيّة وفي النّحو قمر
كان له حين انقضى محاق وشأوه ليس له لحاق.

محاق = $40 + 8 + 1 + 100 = 149$ هـ وهو تاريخ وفاته¹.

والترتيب الثاني المستعمل بكثرة في استعمالنا هو الترتيب الألفبائي ويسمى أيضاً الترتيب الهجائي، أو الترتيب على حروف المعجم، وقد وضعه نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر أيام خلافة عبد الملك بن مروان على النّحو التالي: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و، وقد عللت دائرة المعارف الإسلاميّة هذا التغيير في أنّه فرار من الترتيب الأبجدي المأخوذ من أمم قديمة كانت عقائدها تخالف العقيدة الإسلاميّة². وقد وافق المغاربة المشاركة في هذا الترتيب من حرف الألف إلى حرف الزاي وخالفوهم فيما فوق ذلك على هذا النّحو: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي. ويقول الأستاذ محمد سليمان الأشقر إنّ ترتيب المغاربة أكثر وضوحاً وأكثر التزاماً في ضمّ كلّ حرف إلى ما شابهه في الصورة من ترتيب المشاركة.

¹. ينظر: محمد الحسن بن أحمد الخديم، هداية السّاعة إلى معرفة النّحة، تق: أحمد جمال ولد الحسن، ط1. الدار البيضاء: 1994، مطبعة النّجاح الجديدة.

². محمد سليمان الأشقر، الفهرسة الهجائيّة والترتيب المعجمي، ص 60.

الفصل الأول:

المدرسة النحويّة المغاريّة بين المدارس
النحويّة.

- الفصل الأول: المدرسة النحوية المغاربية بين المدارس

النحوية الأخرى.

1 - نشأة النحو وتطوره:

- بالمشرق.

- بالمغرب.

2 - مفهوم المدرسة النحوية.

3 - المدارس النحوية المشرقية.

4 - وجود مدرسة نحوية مغاربية.

5 - المعارضون لوجود المدارس النحوية.

- خلاصة الفصل.

1 - نشأة النحو وتطوره:

أ - نشأته بالمشرق: تجمع الروايات الأولى لنشأة النحو العربي على أن واضع خطة النحو ومبادئها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونفذ عنه تلك الخطة أحد أعلام عصره في اللغة وهو أبو الأسود الدؤلي ت69هـ، يقول أبو البركات الأنباري ت577هـ: "إن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحدّ حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي"¹. إلا أن من الباحثين المعاصرين من يسند التأسيس إلى أبي الأسود الدؤلي كالأساتذة محمد الطنطاوي في كتابه (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة) وعلي نجدي ناصف في (سبويه إمام النحاة) وحسن عون في (اللغة والنحو) وطه الراوي في (نظرات في اللغة والنحو)². ونشأ هذا العلم بالبصرة إحدى حواضر العراق، ومزّ بمراحل وهي:

1 - عصر النشأة والتأسيس: وضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مقدّمة مختصرة في النحو خشية اللحن، لخص فيها تصوّراً أولياً لهذا العلم وأخذها عنه أبو الأسود الدؤلي الذي مدّ أبوابها وفروعها وأنهج سبيلها مع تلاميذه المشهورين.

2 - عصر التدوين والتصنيف: قام علم من أعلام القرن الثاني للهجرة وهو عبد الله بن أبي إسحاق الخضرمي ت117هـ بإرساء قواعد علم النحو ومدّ القياس وشرح العلل، وأتت المحاولة الأولى لجمع هذه القواعد على يد عيسى بن عمر النخعي ت194هـ في كتابه (الجامع) وأكملها في (إكماله) وشاركه في ذلك يونس بن حبيب ت182هـ والأخفش الكبير ت177هـ، وتوالت الجهود حتى انتهى الأمر بظهور كتاب سبويه.

¹. الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد أبي الفضل، دط. القاهرة: 1998، دار الفكر العربي، ص 14.

². عبد القادر رحيم الهيثي، خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، ط 2. بنغازي: 1993، منشورات جامعة قار يونس، ص 31.

وشارك شيوخ الكوفة حين رغبوا في النحو البصريين في التصنيف النحوي وظهرت أولى كتبهم على يدّ أبي جعفر الرّؤاسي ت286هـ الذي صنّف (معاني القرآن) و(الفصل) و(التصغير) و(الوقف والابتداء) الكبير والصغير.

3. عصر البيان والتحصيل: تميّز هذا العصر بظهور علمين من أعلام النحو هما: أبو العباس محمد بن يزيد الملقّب بالمبرد ت286هـ وأبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الملقّب بثعلب ت291هـ، بيّنا في دروسهما حصيلة ما خلفه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه ت180هـ وأتباعه من البصريين، وما أنتجه أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي ت189هـ وتلاميذه من الكوفيين، وتميّز أيضا هذا العصر بمراجعة وتصحيح الكثير من الآراء النحوية وظهر ذلك في اعتراضات المبرد على سيبويه، وتخطئتهم آراء الكوفيين.

4. عصر التقويم والتأصيل¹: بدأ في هذا العصر عهد جديد في تاريخ النحو قدّم الصورة النهائية للفكر النحوي على أسس منهج متكلمي أصول الفقه الإسلاميين حيث ظهرت مؤلفات في أصول النحو مزجت بين أدلة النحو وفلسفة اللغة والنحو على يدّ علماء بغداد. ويتبيّن من هذا أنّ البحث في علم النحو توزعته ثلاث مدارس مشرقية هي:

- مدرسة البصرة.
- مدرسة الكوفة.
- مدرسة بغداد.

وكان لهذه المدارس تأثير كبير على النشاطات النحوية في باقي الأمصار كمصر والمغرب والأندلس.

ب. نشأته بالمغرب: عرفت مدن المغرب علم النحو منذ وقت مبكر، ظهر فيها أعلام نحويون بارزون حفظوا كتب النحو وشرحوها ودرّسوها وألّفوا في هذا العلم أيضا، وذلك منذ القرن الثاني

¹. ينظر: محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ط 2، بيروت: 2008، دار الكتب العلمية.

للهجرة، والدليل على هذا أنّ كتب التراجم والطبقات ترجمت لنحويين قيروانيين ومغاربة منذ هذا القرن أمثال: عياض بن عواضة، ذكره أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي تـ379هـ في الطبقة الأولى من نحوي ولغويي القيروان، وقال إنّّه عاش في القرن الثاني للهجرة لأنّ الزبيدي نقل عنه أنّ الأمير روحا بن حاتم بن قبيصة بن المهلب من أمراء المهالبة والي إفريقية في عهد الرشيد كان يكرمه لسوء حاله، وأنّ روحا بن حاتم هذا قد توفي سنة 174هـ¹. وقد أخذ عنه النحو واللغة خلق كثير أمثال: أبي الوليد عبد الملك بن قطن المهري تـ253هـ، وصار المهري شيخ أهل اللغة والعربية والنحو والرواية وأحفظ الناس لأشعار العرب وأيامها ووقائعها وشرح أشعارها، وله تصانيف كثيرة منها كتاب في (اشتقاق الأسماء) قال عنه الزبيدي إنّّه أتى فيه بما لم يأت به محمد بن المستنير المعروف بقطرب النحوي تـ206هـ في كتابه (الاشتقاق)². وكان من أصحاب المهري أحمد بن أبي الأسود النحوي القيرواني المتوفي بعد المائتين، قال عنه الزبيدي: "كان غاية في علم النحو واللغة، وله أوضاع في النحو والغريب ومؤلفات حسان"³. وقال الزبيدي عن حمدون النحوي المعروف بالنعجة المتوفي بعد المائتين للهجرة إنّّه كان أعلم الناس بالنحو واللغة بعد المهري لأنّه كان يحفظ كتاب سيبويه، وكانت له كتب في النحو وأوضاع في اللغة⁴. أمّا أبو القاسم إبراهيم بن عثمان النحوي المعروف بابن الوزان القيرواني تـ346هـ فقد كان إمام الناس وكبيرهم في ذلك القطر، فقد انتهى من علم النحو في حياته، حفظ كتاب العين للخليل، وحفظ قبل ذلك كتاب سيبويه وكتاب المصنّف لأبي عبيد وإصلاح المنطق لابن السكيت وغيرها من كتب اللغة، ثم كُتب الفراء، وكان يميل إلى قول البصريين مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضّل المازني في النحو وابن السكيت في اللغة⁵. وكان يردّ على مسائل النحو التي كانت تأتيه من

¹ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 2. القاهرة: 1973، دار المعارف، ص 226.

² . نفسه، ص 229، و: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 1. القاهرة: 1986، دار الفكر العربي، ج 2، ص 209.

³ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 233، و: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج 1، ص 66.

⁴ - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 235.

⁵ - القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج 1، ص 207.

العلماء والمدرّسين، فقد انتهى من اللغة والعربية إلى ما لعلّه لم يبلغه أحد قبله، وقال عنه الزبيدي: "كانت له أوضاع في اللغة والنحو، وكان يستخرج من مسائل النحو والعربية أمورا لم يتقدمه فيها أحد، وأمره في هذا يفوق كل أمر¹، وغيره ممّن ذكرهم الزبيدي.

ويتبيّن ممّا سبق أنّ المغاربة اشتغلوا بمسائل علم النحو منذ وقت مبكر؛ حفظوا حدوده على كتب البصريين أرباب الصناعة، مع إمام واسع بآراء الكوفيين فبلغوا فيه شأوا عظيما وحذقوا النظر والتأليف فيه، حتى إنهم انفردوا بآراء نحوية كثيرة لم يسبق إليها أحد ممّا يؤكّد أنّ لهم مذهباً خاصاً بهم ومنذ وقت مبكر أيضاً.

وبعدّ كتاب (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي الذي ترجم للنحويين واللغويين من عهد أبي الأسود الدؤلي في القرن الأول الهجري إلى عهد شيخه أبي عبد الله يحيى بن محمد الرياحي ت358هـ إمام اللغة والنحو بالأندلس في القرن الرابع المرجع الأصيل لكتب التراجم والطبقات الموالية له ك(إنباه الرواة على أنباه النحاة) للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ت624هـ، و(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) لجلال الدين عبد الرحمان السيوطي ت911هـ، و(البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت817هـ، وغيرها التي ترجمت بإسهاب للنحويين المغاربة من مختلف العصور، ففي طبقات الزبيدي فصلٌ عن النحويين واللغويين القيروانيين في أربع طبقات من القرن الثاني إلى الرابع للهجرة بعد النحويين واللغويين المصريين. وختم الزبيدي كتابه بالنحويين واللغويين الأندلسيين، أي سبق القيروانيين للأندلسيين في النشاط النحوي لقرب المغرب إلى المشرق من الأندلس، وإن كان قد أرجع بدايات الدراسات النحوية بالأندلس إلى عهد عبد الرحمان بن معاوية المعروف بعبد الرحمان الداخل ت172هـ أي في القرن الثاني للهجرة مثملاً كان ذلك بالمغرب.

¹ - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 248.

وستعرف الدراسات النحوية ازدهارا وتقدّما من القرن الخامس عهد دولة المرابطين والموحدين إلى دولة بني مرين وبني زيان وبني حفص وما تلاها من دول كالوطاسية والسعدية والعلوية، نظرا لتشجيع ولاية الأمر العلماء والباحثين على البحث العلمي واستقرار أوضاعها السياسية.

2. مفهوم المدرسة النحوية: شاع في مؤلفات اللغويين القدامى أصحاب التراجم

والطبقات أفراد كلّ مصر من الأمصار العربية بمذهب نحوي خاص في دراسة اللغة والنحو ذاع بين نحاتها فاختلف في منهجها في بعض المسائل الفرعية، وارتبط بإقليم عربي معيّن، فكان أن تحدّثوا عن مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين مثلما فعل أبو الطيّب اللغوي ت351هـ في (مراتب النحويين)، وابن النديم ت380هـ في (الفهرست)، وأبو بكر الزبيدي ت379هـ في (طبقات النحويين واللغويين) الذي أضاف إلى البصريين والكوفيين المصريين ثم القرويين ثم الأندلسيين، ولم يذكر البغداديين بل منسوبين إلى شيوخهم البصريين أو الكوفيين. وكذلك فعل المحدثون الذين سعوا نحو المعاصرة فاستحسنوا مصطلح (المدرسة) فأطلقوه بديلا لكلمة (مذهب) السائدة قديما، "وهو مصطلح من ابتداع المستشرقين الألمان"¹، فكان أوّل من استخدمه المستشرق الألماني قوستاف فلوجل في كتابه (مدارس العرب النحوية) عام 1862م، والمستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) عام 1902م، والمستشرق الألماني جوتولد قايل في عرضه لكتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الأنباري عام 1913، ثم تلاهم العرب². فكان من الرّواد العرب الأوائل إلى هذا الاستعمال العصري الأستاذ أحمد أمين في (ضحى الإسلام) ففي حديثه عن علم النحو قرر وجود مدرسة بصرية ومدرسة كوفيّة، ثم شاع هذا الاستعمال على أقلام الباحثين باطّراد، فمنهم من تناول مذهبا واحدا فترجم لأئمّته وبين جهودهم كما فعل أبو سعيد السيرافي ت368هـ في (أخبار النحويين البصريين) كبحت الأستاذ مهدي

¹. عبد الأمير محمد أمين الورد، المدارس النحوية بين التصرّ والتصديق والسؤال الكبير، ط 1. بغداد - العراق: 1997، المكتبة العصرية، ص 9.

². مصطفى عبد العزيز السنجرى، المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ط 1. جدّة - السعودية: 1986، مكتبة الفيصلية، ص 115.

المخزومي (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو) عام 1955 في طبعته الأولى، وعبد الرحمان السيّد في (مدرسة البصرة نشأتها وتطورها) عام 1968 في طبعته الأولى، والأستاذ عبد العال سالم مكرم (المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين 7 و8 من الهجرة) عام 1962 والأستاذ محمود حسني محمود (المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي) عام 1986 في طبعته الأولى. ومنهم من تناول أكثر من مذهب كبحت الأستاذ شوقي ضيف (المدارس النحوية) عام 1968 في طبعته الأولى وغيره. ولا يزال الكثير من المحدثين يؤثر استعمال (مذهب) لأصالته في هذا المعنى كالأستاذ عبده الراجحي في (دروس في المذاهب النحوية) والأستاذ إبراهيم محمد نجا في (المذهب النحوي البغدادي).

ويعني مفهوم المدرسة النحوية في اللغة العربية "الاتجاهات النحوية لطائفة من نحاة النحو العربي تنتمي إلى بلد معيّن"¹، وعلى هذا الأساس جاء بحث الأستاذ أمين علي السيد عن جهود الأندلسيين بـ(الاتجاهات النحوية في الأندلس وأثرها في تطوير النحو). ويعرفها الأستاذ أحمد مختار عمر بقوله "يعني مصطلح مدرسة في نظرنا وجود جماعة من النحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، ولابدّ من رائد يرسم الخطّة ويحدد المنهج، والتابعين أو المريدين الذين يقتفون خطاه، ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه، فاستمرار النظرية ودوامها عبر السنين شرط أساسي لتكوّن المدرسة"²، ومن أمثلة ذلك أنّ الطبقة الثالثة من البصريين كعبد الله بن إسحاق الحضرمي والطبقة الرابعة كأبي عمرو بن العلاء كانوا روّاداً رسموا الخطّة وحددوا المنهج في التقيد بالسمع وضبط القياس، وكان للخليل وسيبويه والأخفش والمازني وغيرهم من التابعين أن اقتفوا خطاهم وعملوا على تطويرها عبر السنين حتى تكوّنت مدرستهم. ويضيف الأستاذ عبد العال سالم مكرم شرطاً أساسياً لها وهو التميّز بطوابع خاصة تتفرد بها عن سائر الدراسات في قوله: "لا تكون المدرسة مدرسة إلا إذا توحّدت فيها الأهداف وتناسقت

¹. مصطفى عبد العزيز السنجرى، المذاهب النحوية، ص 207.

². أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التأثير والتأثر، ط 4. القاهرة: 1982، عالم الكتب، ص 116.

الأصول، وتميّزت مناهجها بطابع خاص"¹. وعن سبب اختياره لمصطلح (مدرسة) على الدراسات النحوية بمصر يقول: "وكان الدافع لإطلاق اسم المدرسة على هذه الدراسات النحوية بمصر هو أنني اعتبرت هذه الجهود التي بذلت في النحو في الفترة التي نؤرخ لها حركة قوية، ومن هنا كان لابد أن أرسم إطاراً لهذه الحركة لنميزها عن الحركات الأخرى التي انبعثت من قبل في البصرة والكوفة وبغداد، ولم أجد كلمة تمثل هذا الإطار غير كلمة مدرسة، ومن هنا كان موضوع البحث (المدرسة النحوية في مصر والشام...)"² فهو يقصد بالمدرسة "الحركة النحوية" وعنهما يقول: "تعني الحركة النحوية التنافس في طلب علم النحو والإقبال على تعلمه، والنظر في مشكلاته ومسائله، وكثرة التأليف فيه ورصد الجوائز للعلماء والنابعين ومدى تطور النحو على يد البارزين في ميدانه"³. أمّا مفهوم المدرسة عند الأستاذ شوقي ضيف فلم يكن بالمعاني المذكورة بل كان بمعنى "الخلاف النحوي" وزعم أن الأخفش الأوسط أبا الحسن سعيد بن مسعدة تـ211هـ من النحويين البصريين هو الذي أعدّ لتنشأ المدارس النحوية المختلفة لأنّه هو الذي فتح باب الخلاف على سيبويه بدءاً بإلهام الكسائي حين تلمذ له، فيقول: "الأخفش الأوسط أكبر أئمة النحو البصريين بعد سيبويه، وفي رأينا أنّه هو الذي فتح أبواب الخلاف عليه، بل هو الذي أعدّ لتنشأ فيما بعد مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة المختلفة، لأنّه كان عالماً بلغات العرب، وكان ثاقب الذهن حاد الذكاء، فخالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون ومضوا يتسعون فيه فتكوّنت مدرستهم، علماً أنّ خلافتهم وخلافات المدارس التالية وخلافات البصريين التاليين له إنّما هي خلافات في بعض الفروع لما صنعه سيبويه والخليل تنتسح وتضيّق حسب المدارس والنحاة"⁴. ورأى ضيف في الخلاف النحوي بين النحاة والمدارس

¹. عبد العال سالم مكرم، المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين 7 و8 هـ، ط 1. د ب: 1980، دار الشروق، ص

7.

². نفسه، ص 7.

³. نفسه، ص 43.

⁴. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط 7. القاهرة: د ت، دار المعارف، ص 95.

المختلفة أثرا محمودا في تطوير الدراسات النحوية وإغنائها عبر القرون لأنّ الخلاف يدلّ على حرية التفكير وقوّة الذكاء.

وقد عدّ خمس مدارس نحوية هي البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية والمصرية ولم يذكر المغاربية رغم أنّ الزبيدي ذكر في طبقاته المغاربة باسم القرويين بعد المصريين وسبقهم الأندلسيين في النشاط النحوي، "والغريب أن يعترف باحثون كالأستاذ طه الراوي ومحمد طلس بوجود مدرسة في الأندلس ولم يعترفوا بوجود مدرسة في مصر رغم اعتماد الأندلسيين على النحو المصري"¹، وأن تضع الأستاذة خديجة الحديثي كتاب (المدارس النحوية) ثم لا تعترف بأيّة مدرسة بل (بمذهبين) هما البصري والكوفي أمام بغداد ومصر والأندلس والمغرب وغيرها من المدن.

3. المدارس النحوية المشرقية:

1. - مدرسة البصرة: للبصرة فضل السبق في الدراسات النحوية؛ إذ يؤوّل إليها وضع النحو العربي وتطويره حتى استوى على سوقه، وبدأت نشأته بسيطة بوضع أبي الأسود الدؤلي نقط الإعراب وبعض مبادئ النحو كباب الفاعل والمفعول والتعجب وغيرها من الأسس البسيطة لحماية آيات الذكر الحكيم من اللحن الذي بدأ بالتهديد، ومضى تلاميذه بحمل لوائه وأخذ عنهم الناس هذه الأسس، إلى أن وضع تلميذه نصر بن عاصم الليثي تـ89هـ نقط الإعجام لإزالة عجمة الحروف فاصطدمت هذه الأخيرة بنقط الإعراب وصار التمييز بينهما محالا لولا ألوانها، ومضى الحال كذلك إلى أن اهتدى بعد قرن من الزمان الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى إحلال نقط الإعراب بالحركات الثماني والتي هي أبعاض حروف العلة، فظهرت الحركات وصار للنحوية نظامها النحوي الخاص بها.

وقبل الخليل ظهر من القراء عالم بصري من الطبقة الثالثة من نحوي البصرة في ترتيب الزبيدي في طبقاته وهو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي تـ117هـ الذي يعدّ أول نحوي بصري

¹. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 123.

حقيقي صاغ النحو صياغة علمية دقيقة، تقوم على أطراد قواعده وعلى الاستقراء الدقيق والتعليل إلى أن أصبحت كل قاعدة وضعها وتلاميذه أصلاً مضبوطاً تقاس عليه الجزئيات قياساً دقيقاً، وتلاميذه هم: عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء، ومن تلاميذ عيسى بن عمر: الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب، ويسلكون هؤلاء كلهم في القراء، تشدد هؤلاء جميعاً في أطراد قواعدهم تشدداً جعلهم يطرحون الشاذ ولا يعولون عليه وما اصطدم بقواعدهم أولوه، واشترطوا في استقراءهم للمادة اللغوية صحتها وبداءة أصحابها لذا قيدوا الفصاحة العربية بقبائل معدودات لم يروا في غيرها السليقة الصحيحة فأخذوا عنها اللغة والنحو وسجلوها في سجلاتهم، ومن حيث التعليل فقد طلبوا لكل قاعدة علّة وتوغلوا إلى ما وراء العلل وطلبوا تعليلات موعلة في المنطق والعقل.

وكان القرآن الكريم وقراءاته مصدراً فصيحا لقواعدهم، كما أن هؤلاء البصريين الأولين لم يحتجوا بالحديث النبوي ولم يتخذوه أساساً لشواهدهم ومردهم في ذلك أنه روي بالمعنى وأن حملة لوائه هم الأعاجم ولم يدون إلا في القرن الثاني للهجرة، وقد تبعهم في هذا الكوفيون والكثير من النحاة المتأخرين.

وظهرت هذه الدراسات بالبصرة وكانت هذه الحاضرة موطن العلوم العقلية نشأ فيها علم الكلام ومذهب المعتزلة، وعُرفت بأنها أحكمت المنطق وأخضعت الأصول إلى العقل واصطنعت أساليب المتكلمين في تثبيت الأصول، كما استفادت هذه الحاضرة من ثقافات أعجمية عن طريق الترجمة والتعريب، مما جعلها أكثر استعداداً لوضع العلوم على مبدأ المنطق والفلسفة. أنتجت هذه الحاضرة أضخم كتاب في النحو سمي بقرآن النحو أو البحر على يد عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه، والذي لخص علم البصريين؛ إذ فيه 900 رأي لبصريين سابقين كما أمده الخليل بألف ورقة من علمه. ويمكن تلخيص خصائص هذه المدرسة في ما يلي:

- التشدد في القياس وكثرة الشواهد فهم لا يقيسون على الشاهد الواحد.
- إهدار الكثير من كلام القبائل التي لم تر فيها الفصاحة.
- عدم الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف.

نحاة هذه المدرسة:

من أشهر نحوي هذه المدرسة من الطبقة الأولى أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي ت69هـ كان أول من أسس العربية، ونهج سبلها ووضع قياسها وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار الناس يلحنون، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف، وحروف النصب والرفع والجر والجزم¹ وأرشده إلى وضع النحو علي بن أبي طالب الذي ألقى إليه أصولا احتذى بها.

وإلى أبي الأسود يرجع أيضا فضل نقط المصاحف فقط الإعراب، وحمل عنه ذلك التالون له والآخون عنه. ومن نحاة هذه الطبقة الأولى عبد الرحمان بن هرمز ت117هـ كان أعلم الناس بالنحو والعربية وأنساب قریش.

ونحاة الطبقة الثانية هم تلاميذ أبي الأسود الدؤلي أخذوا عنه جميعا كنصر بن عاصم الليثي ت89هـ الذي وضع نقط الإعجام وعنه أخذ يحيى بن يعمر، وكان يحيى بن يعمر عالما بالعربية والغريب والفقه وهو من التابعين من القراء من أهل البصرة، أخذ النحو عن الدؤلي، وعاصره عنبسة بن معدان الفيل وهو ممن أخذ عن الدؤلي النحو، وكذلك ميمون الأقرن.

وهؤلاء ممن أصل للعربية فوضعوا بعض مبادئ النحو وأبوابه، وكان لكل واحد منهم فضل في بسط القول ومدّ للقياس وتوضيح للعلل والدلائل، حتى إن الكثير من الناس يرجع وضع النحو إليهم جميعا، لا إلى أبي الأسود وحده، وكلهم من قراء الذكر الحكيم، أخذ عنهم النقطان فقط الإعراب ونقط الإعجام، وعمل به، واتبعت سنتهم فيه واقتدي بمذاهبهم، فاستطاعوا حفظ القرآن الكريم بسياج منيع منع تسرب اللحن إليه ولو في حرف وكان ذلك عملا خطيرا حقاً².

ومن نحاة الطبقة الثالثة معاوية بن عمر الديلمي من القرن الثاني المشهور بابن أبي عقرب عالم بالفقه والنحو، وكان أبو عمرو بن العلاء ممن يحفظ عنه العربية، وعبد الله بن إسحاق الحضرمي

¹ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 21.

² . شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 17.

أخذ النحو عن ميمون الأقرن، وهو أول من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل، وكان وتلميذه عيسى بن عمر كثيري الطعن على العرب¹.

وهو أول نحوي بصري حقيقي على رأي الأستاذ شوقي ضيف لأنه أول من صاغ النحو صياغة علمية دقيقة تقوم على الاستقراء الدقيق والاطّراد للقواعد والتعليل المحكم حتى أصبح لكل قاعدة أصلا مضبوطا تقاس عليه الجزئيات قياسا دقيقا²، وهو ممّن نهج لتلاميذه البصريين والتالين لهم التشدد في النقل والرواية وطرح الشاذ وفتح باب التأويل.

ويتصدّر الطبقة الرابعة تلميذه أبو عمرو بن العلاء وهو أوسع علما بكلام العرب لغاتها وغريبها من عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وكان يسمّي ما خالفه من كلام العرب وهو حجة "لغات"، ولم يكن يطعن على العرب، ويعاصره أخوه أبو سفيان بن العلاء ت165هـ وهو من الرواة وأصحاب الغريب، ومن هذه الطبقة أيضا أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد المعروف بالأخفش الكبير شيخ يونس بن حبيب وسيبويه، وقد أكثر سيبويه من النقل عنه، وعيسى بن عمر ت149هـ أخذ عن عبد الله بن إسحاق الحضرمي وكانا كثيري الطعن على كلام العرب الفصحاء، وكثير الغريب في كلامه وقراءاته، وهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو إذ وضع كتابين (الجامع) و(الإكمال) يقول عنهما الخليل بن أحمد الفراهيدي:

بطل النحو جميعا كلّه غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمسٌ وقمرٌ³.

والى غير ذلك من نحاة هذه الطبقة الذين يسلكون في اللغويين أكثر من النحويين. وفي صدارة نحاة الطبقة الخامسة الخليل بن أحمد الفراهيدي ت175هـ كان ذكيا فطنا استتبّط من علم العروض ومن علل النحو ما لم يستتبّطه أحد ولم يسبقه إلى مثله سابق⁴، وهو تلميذ عيسى

¹. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 31-32.

². شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 18.

³. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 23.

⁴. نفسه، ص 47.

بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وهو الذي شاد صرح النحو والتصريف ورفع قواعدهما بما رسمه من مصطلحات وضبط للقواعد، ويعاصره حماد بن سلمة وهو نحوي ومحدث بارز يعلم النحو بمسجد البصرة، ومنه تعلم يونس بن حبيب، ويونس بن حبيب راوٍ كبير من رواة اللغة والغريب، وكانت حلقاته بالبصرة تعجّ بالطلاب منهم سيبويه، وكانت له أقيسة ومذاهب تفرّد بها وآراء تخالف آراء سيبويه والخليل¹. ومن نحاة هذه الطبقة يعقوب بن إسحاق الحضرمي ت205هـ أقرأ القراء وأعلم الناس في اختلاف حروف القرآن وتعليقه ومذاهبه ومذاهب النحو في القرآن² وغيره ممّن يطول ذكرهم من نحاة الطبقة الخامسة.

ومن أصحاب الطبقة السادسة النضر بن شميل ت203هـ أخذ النحو عن الخليل، وهو صاحب حديث وغريب وشعر وفقه ونحو، ويحيى بن المبارك اليزيدي ت310هـ من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء في النحو والغريب والقراءة، عالم في العربية وأديب فاضل، أخذ عنه الناس الكثير من علمه، وأشهر نحاة هذه الطبقة على الإطلاق عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه ت180هـ، لزم حلقة حماد بن سلمة المحدث المشهور آنذاك، والذي مرّ ذكره، فحدث وأن خطّاه في قوله صلى الله عليه وسلّم: "ليس من أصحابي إلّا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء" فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء" ظنّه اسم ليس، فقال له حماد: قد لحت يا سيبويه ليس هنا استثناء، فلزم نفسه بتعلم اللغة والنحو فتردد إلى حلقات النحويين المشهورين وفي مقدّمهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير ويونس بن حبيب، واختصّ بالخليل بن أحمد أكثر من غيره حتى برع وصار نجما ساطعا في علمي النحو والتصريف، ونقل عن هؤلاء جميعا آراءهم النحوية واللغوية ومذاهبهم في كتاب لقّب بقرآن النحو والبحر عظمة فيه وفي صاحبه، قال عنه المبرد: "لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه"³. ومن طبقتة أيضا أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الصغير ت215هـ لزم سيبويه فأخذ عنه كلّ ما عنده، وهو الذي روى عنه كتابه، والطريق

¹. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 28.

². اليزيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 54.

³. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 60.

الوحيد إلى كتاب سيبويه بعده وعنه حملة العلماء كالجرمي والمازني والكسائي من أئمة الكوفة، وهو أكبر النحويين بعد سيبويه، ألف كتباً مختلفة منها: كتاب (الأوسط في النحو)، (المقاييس)، (الاشتقاق)، (المسائل الصغير)، وكتاب (المسائل الكبير) صنعه لتلاميذه الكوفيين في مسائل النحو والتصريف، وخالف سيبويه والخليل في الكثير من المسائل وحمل عنه ذلك تلاميذه الكوفيون ومضوا في المخالفة. وأبو عمرو الجرمي ت225هـ نحوي وفقه معاصر للمازني، ألف كتباً كثيرة في النحو والتصريف منها كتاب (المختصر في النحو)، (الأبنيّة)، كتاب (غريب كتاب سيبويه)، وآخر في شواهد الشعرية نسب إلى أصحابها الأبيات التي فانت سيبويه ما عدا الخمسين شاهداً، وكان علماء النحو في عصره يتداولون كتبه ويشرحونها مراراً، وغيره من أصحاب الطبقة السادسة.

وفي طليعة الطبقة السابعة أبو عثمان المازني ت249هـ أعظم النحاة في عصره شغل بتدريس كتاب سيبويه طوال حياته وصنّف حوله تعليقات وشروحات منها: (تفسير كتاب سيبويه)، (الديباج في جوامع كتاب سيبويه)، وألف في علل النحو، ووضع كتاباً في التصريف شرحه ابن جني وسمّاه (المنصف) وغيرها. وعنايته بموضوعات التصريف لا تقاس بشيء أمام موضوعات النحو، فهو بلا منازع إمام علم التصريف فهو الذي فصله عن علم النحو وأقامه علماً مستقلاً بأبنيته وأقيسته وتمارينه، وهو الذي فتح باب التمارين غير العملية في التصريف.

ومن هذه الطبقة أبو حاتم السجستاني ت255هـ والعباس بن الفرّج الرياشي ت257هـ والتوزي ت230هـ وغيره وهم من اللغويين غلبت عليهم الرواية من الاشتغال بمسائل النحو وموضوعاته. ويختم الزبيدي طبقات النحويين البصريين بمحمد بن المستنير قطرب ت206هـ ألف كتباً كثيرة في النحو واللغة منها: (العلل في النحو)، (الاشتقاق في التصريف)، (إعراب القرآن)، (المثلث في اللغة) وغيرها.

2. مدرسة الكوفة: اهتمت الكوفة بالنحو في وقت متأخر قياساً بالبصرة، وذلك في

منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان اهتمامها قبل ذلك منصبا على القراءات القرآنية ورواية

الأشعار والأخبار وقلما نظرت في قواعد النحو ومبادئه إلا ما وقع إليها ممّا حمله أساتذتها من محاضرات البصريين ومجالسهم، انشغلت عن ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاويه وبالقرءات وروايتها رواية دقيقة حتى عُرِفَت بمدرسة الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان، واشتهرت بين الأمصار بثلاثة من القرءاء السبعة المشهورين وهم: عاصم وحمزة والكسائي، إلى جانب اعتنائها بالأشعار ودواوين العرب.

وتعود بداية نشأة نحوها إلى أبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء، وهما ممّن ترددا إلى حلقات البصريين بالبصرة كعيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وتذكر كتب الطبقات أنّ الرؤاسي لم يدل بآراء قيّمة في النحو وزعم أنّ كتاب سيبويه من صنعه إلاّ أنّه مطروح العلم ليس بشيء كما يقول صاحب مراتب النحويين، وزعم معاذ الهراء هو الآخر معرفته بمسائل التصريف وبنا على هذا السيوطي رأيا في أنّه واضع علم التصريف، إلاّ أنّ ذلك وهمّ فأراؤه ليست بشيء كآراء الرؤاسي في النحو.

وتظهر ملامح هذه المدرسة ظهورا حقيقيا بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما من وضع أسسها وأصولها حتى رفعا بنيانها واستقلت بطوابع خاصة بها كان من أهمّها مخالفة البصريين في القواعد والأصول والمصطلحات، ما جعل الكثير من النحويين يفرّدون لهم مجلّدات كما فعل الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) حين جمع مائة وإحدى وعشرين (121) مسألة خلافيّة بينهما، وبلغ الأمر أن لا تذكر البصرة إلاّ وتساق معها الكوفة أو بالأحرى لا تذكر قاعدة نحويّة أو مصطلح نحوي إلاّ ومعه مقابله الكوفي. ورأى الكثير من الباحثين أنّ نحو الكوفة أثّر في الدراسات النحويّة من خلال منافسة أصحابها البصريين. وحكي عن الأخفش الأوسط من البصريين أنّه هو الذي وجّه الكسائي والفراء لمخالفة سيبويه حين قرأ على الكسائي كتاب سيبويه وأعدّه لينفذ إلى مذهبه النحوي الجديد مع تلميذه الفراء. وامتازت كذلك هذه المدرسة بالاتّساع في الرواية والقياس من جميع العرب بدوا وحضرا على خلاف المدرسة البصريّة التي تشدّدت أيّما تشدّد جعلها لم تنقل في كتبها إلاّ من صحّت عربيّته وسلمت فصاحته من عوامل

كثيرة. فكان أن شنّ عليهم البصريون حملات شنيعة قائلين بأنهم أفسدوا النحو بقياسهم على الشاذ والقليل وخصّوا الكسائي بذلك أكثر من غيره ولعلّ ذلك لأنّه هو من تصدّى لمنافسة سيبويه في بغداد وهياً له من الأسباب ما يجعله يفشل بحضرة الرشيد في المناظرة المشهورة بينهما المسماة بالمسألة الزنبورية تجد تفصيلاً عنها في كتاب الأنباري (الإنصاف) برقم 99، وهو من جعل الكوفيين بعده يتوسعون في الرواية لأنّه أخذ عن عرب غير فصحاء معروفين بفساد اللّغة. ويمكن إجمال خصائص هذه المدرسة في ما يلي:

- التوسّع في الرواية والأخذ بلغات العرب المتواترة وغير المتواترة.
- القياس على الشاذ وعلى المثال الواحد.
- التعويل على نحو البصرة ثم مخالفته.
- الاحتجاج بالقراءات متواترها وشاذها.
- عدم الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف مثلما فعل البصريون.

.نحاة هذه المدرسة:

يتصدّر أبو جعفر الرّؤاسي قائمة النّحويين الكوفيين، لزم عيسى بن عمر وأبا عمرو بن العلاء فأخذ عنهما النّحو، له كتاب في (الجمع والإفراد) وكتاب (الفصل). يعاصره معاذ الهراء وهو مثله كان يتردد إلى حلقات البصريين يأخذ عنهم النّحو والتصريف ثمّ يعود إلى الكوفة ويجلس للإملاء. ويبدأ النّحو الكوفي بدءاً حقيقياً بنحاة الطبقة الثّانية والثالثة كأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي 189هـ وتلميذه أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء 207هـ، أخذ الكسائي النّحو عن الرّؤاسي ثم رحل إلى البصرة فأخذ عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ولزم الخليل بن أحمد حتى برع، وهو من القراء المشهورين للذكر الحكيم. وأخذ عنه تلميذه الفراء الذي كان أبرع الكوفيين في علمهم، وكتابه (معاني القرآن) لم يُعمل قبله ولا بعده مثله لأنّه حمل العربية على الألفاظ والمعاني معاً فبرع¹. ومن طبّقته القاسم بن معن عالم بالغريب والنّحو والشعر

¹. الزبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، ص 131.

وعلي بن المبارك الأحمر تـ194هـ، وهشام بن معاوية الضرير تـ209هـ، وغيرهم ممّن أخذ عن الكسائي.

ومن نحاة الطبقة الرابعة من أصحاب الفراء سلمة بن عاصم تـ بعد 270هـ وأبو عبد الله الطوال تـ243هـ وغيرهم ممّن لهم معرفة وقدم بالنحو.

3 - المدرسة البغدادية: ظهرت المدرسة البغدادية في القرن الرابع الهجري ببغداد، وكان أهمّ ما يميّزها هو الانتخاب من المصنّفات النحوية البصرية والكوفية جميعها، وهو نهج جديد اتّبعه نحاتها، فأوائل نحاتها قد تتلمذ للمبرّد إمام المذهب البصري أو ثعلب إمام المذهب الكوفي ببغداد فكان أن ظهرت ببغداد نزعتان تعمّقتا في مصنّفات المذهبين والنفوذ من خلالها إلى آراء جديدة، ما جعل الكثير من كتّاب التراجم والسير يسلكونهم في البصريين أو الكوفيين كما فعل الزبيدي في طبقاته، ولأنّ علمين مشهورين من أعلامها ينسبان اسميهما في البصريين وهما أبو علي الفارسي وتلميذه عثمان بن جني. ومن أشهر نحاتها ممّن غلب عليه المذهب الكوفي محمد بن كيسان تـ299هـ وابن شقير تـ315هـ وابن الخياط تـ320هـ، وغلب على نحاتها الميل إلى المذهب البصري كما ظهرت عندهم كتب أصول النحو ككتاب (الخصائص) لابن جني و(أصول النحو) لابن السراج. ومن أهمّ ما يميّز هذه المدرسة:

- الانتخاب من المذهبين البصري والكوفي أفضل الآراء.
- الخروج من الخلافات والتعقيدات.
- الميل إلى المذهب البصري في الغالب.
- وضع أصول النحو كعلم ومصطلح.

. نحاة هذه المدرسة:

لم يفرد الزبيدي في طبقاته النحاة البغداديين بمدرسة خاصة مثلما فعل للبصريين والكوفيين وغيرهم أو كما فعل أصحاب التراجم والطبقات القدامى والمحدثين، بل ذكرهم منسوبين إلى شيوخهم

البصريين أو الكوفيين، لذا جعل البغداديين الذين على المذهب البصري في ثلاث طبقات بعد طبقات البصريين السبع، والبغداديين الذين على المذهب الكوفي في طبقتين بعد طبقات الكوفيين الأربع.

ويعدّ محمد بن يزيد المبرد 285هـ أعلم الناس بمذهب البصريين وإليه أفضى علمهم، قرأ كتاب سيبويه على الجرمي ثم المازني حتى برع فيه ولمع اسمه في النحو، اصطدم ببغداد بثعلب إمام الكوفيين ببغداد، وكثرت بينهما المناظرات حتى جعل الكثير من تلاميذ ثعلب يتحولون إلى حلقاته لحسن بيانه وقوة حجّته وجدله، له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والأدب أشهرها (المقتضب) في النحو، و(المدخل إلى سيبويه)، و(إعراب القرآن) و(الكامل) في الأدب. اشتهر من تلاميذه أبو إسحاق الزجاج 310هـ صنّف كتباً مختلفة في اللغة والنحو والعروض والقرآن، وله آراء نحوية كثيرة، ومحمد بن السري بن السراج 316هـ أخذ النحو عن المبرد والزجاج والسيرافي وأبي علي الفارسي، اشتهر من كتبه كتاب (الأصول الكبير) في علل النحو ومقاييسه انتهج فيه نهج المناطق وله كتب نحوية أخرى كثيرة وآراء كثيرة تدور في كتب النحو. ومن أصحاب المبرد أيضاً المبرمان في القرن الرابع وأبو الحسن علي بن سليمان الأخفش 315هـ. ومن أصحاب الزجاج أبو القاسم الزجاجي 337هـ وأبو الفهد البصري، ومن أصحاب ابن السراج أبو سعيد السيرافي وأبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني وهم ممّن لمع اسمهم وطارت شهرتهم في النحو واللغة وهم أصحاب مؤلفات نحوية كثيرة، وأخذت المدرسة البغدادية مع الفارسي وابن جني تخطو نحو الانتصار الشديد للبصريين والتعصّب لهم والتحمّس لآرائهم. إلى جانب الكثير من النحويين البغداديين المتأخّرين ممّن نزع نزعة قويّة إلى المذهب البصري كأبي البركات الأنباري 577هـ وأبي البقاء العكبري 616هـ ويعيش بن علي بن يعيش 643هـ ومحمود بن عمر الزمخشري 538هـ.

ومن أصحاب المذهب الكوفي ببغداد أحمد بن يحيى ثعلب 291هـ كان أعلم من تقدّم من الكوفيين وأهل عصره بالنحو، أخذ النحو عن أصحاب الفراء كسلمة بن عاصم ومحمد بن قادم وأبي عبد الله الطوال، صنّف مؤلفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال، ولم يصلنا منها إلاّ كتاب

(المجالس) وهو كتاب اشتمل على النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والأشعار والأقوال والأمثال، وكتاب (الفصيح) وهو كتاب للمبتدئين أراد به تقويم السنة المبتدئين مثلما أراد الفراء بكتابه (البهاء في ما تلحن فيه العامة)¹. واشتهر من تلاميذه نحاة كثيرون يتقدمهم أبو موسى الحامض تـ305هـ جلس مجلسه بعد وفاته، وكان يتعصب له وللكوفيين، وغلّامه أبو عمر الزاهد تـ345هـ وله مؤلفات كثيرة في اللغة والنحو، وأبو بكر الأنباري تـ328هـ صنّف هو الآخر في اللغة والنحو وعلوم القرآن وغريب الحديث ككتاب (المقصور والممدود) و(المذكر والمؤنث) و(الكافي) و(الموضح) في النحو.

4 - المدرسة الأندلسية: شدّ الأندلسيون رحالهم إلى مدن العلم بالمشرق منذ وقت مبكرٍ لمشاهدة العرب ونقل العلوم عنهم، ومن أوائلها علوم القرآن الكريم من قراءات وذكرٍ ليعودوا إلى مواطنهم بعد ذلك ويعلموا الناس تلك المبادئ التي تلقّوها مع بعض مبادئ العربية ونحوها، لذا لا عجب أن يكون أول ما ألف فيه الأندلسيون هو القراءات. وعرفوا النحو بادئ الأمر حين رحل جودي بن عثمان الموروري تـ198هـ إلى العراق وتردد إلى حلقات الكسائي والفراء والرياشي، وعاد إلى بلاده ومعه كتاب الكسائي وعلم الكوفيين، وهو أول من ألف في النحو بالأندلس. ويتكاثر بعده المعلمون في القرن الثالث الهجري والقراء والمؤدّبون. ولم تعرف الأندلس النحو البصري إلا في أواخر القرن الثالث الهجري وذلك حين رحل الأفشينق محمد بن موسى تـ307هـ إلى المشرق ويلقى أبا جعفر الدينوري ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية ويقرئه لطلابه بالأندلس. على أنّ الأندلس تأخّرت زمنا طويلا عن مدارس كتاب سيبويه قياسا بالمغرب الذي عرف كتاب سيبويه منذ القرن الثاني للهجرة.

ولم ينطلق الاهتمام بكتاب سيبويه بالأندلس إلا في القرن الرابع الهجري على يد محمد بن يحيى الرباحي تـ358هـ الذي فتح باب الاهتمام بكتاب سيبويه ونحو البصريين، وهو من سنّ بالأندلس النظر في دقائق العربية من إدغام وإمالة وتصريف وإعراب، والاعتلال لمسائلها

¹. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 226.

والتدقيق في غوامضها، وذلك حين لقي بالمشرق أبا جعفر النحاس وفقهه في كتاب سيبويه¹، ويعاصره أبو علي القالي الذي أحدث هو الآخر ثورة لغوية ونحوية خصبه بعدما عاد من المشرق ونزل بالأندلس حاملا معه ذخائر العربية من لغة وشعر ونحو ومعه كتاب سيبويه، وقد أخذه عن ابن درستويه عن المبرد. وقد خلف الرياحي والقالي وراءهما جيلا من النحاة كان يُعنى بمدرسة كتاب سيبويه ونحو الكوفيين كان من أشهرهم الزبيدي صاحب كتاب (طبقات النحويين واللغويين)، وابن سيده الضرير ت448هـ صاحب معجم (المخصص).

وينغمس النحاة الأندلسيون بعد ابن سيده الضرير في مخالطة جميع آراء النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين، ويتجهون اتجاها جديدا في الدراسات النحوية وهو الاختيار من آراء البغداديين ويولعون بآراء أبي علي الفارسي وابن جني، ويسيطرون في كثرة التعليقات طالبين عللا كثيرة للظواهر النحوية، وكان الأعلام الشنتمري ت476هـ ممن نهج لهذا النهج الجديد بقوة وعلى مصرعيه في كثرة التعليقات والنفوذ إلى الآراء الجديدة، وكانت عنايته بكتاب سيبويه فائقة التصور شارحا لطلابه دقائقه ومحتلا آراءه. ويعاصره في بيئته ثلاثة من أعلام النحو الأندلسيين وهم السيد البطليوسي ت521هـ وابن الباذش ت528هـ وابن الطراوة ت528هـ، عاشوا كلهم في عصر المرابطين في القرن الخامس الهجري. وتشتهر على يدهم الأندلس بالتفقه العميق في كتاب سيبويه تدريسا وشرحا وتأليفا حتى لم تكن بيئة عربية أخرى تسامتها في ذلك.

ألف هؤلاء مؤلفات نحوية كثيرة مع النفوذ إلى آراء نحوية جديدة من خلال شرح المؤلفات البصرية والبغدادية مثل كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجي وكتاب المقتضب للمبرد وأصول ابن السراج وإيضاح الفارسي، مع الانتخاب من آراء الكوفيين تارة.

وفي عصر الموحدين في القرن السادس يتكاثر عدد النحاة الأندلسيين بالأندلس، ومنهم من يشدّ رحاله إلى مدن المغرب المختلفة لرغد الحياة آنذاك بها واستقرار أوضاعها السياسية تحت حكم الموحدين، حتى إنّ أكثرية كبرى من نحاة الأندلس وعلمائها اللغويين قد استقروا بالمغرب كالسهيلي

¹ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 310.

وابن خروف والشلوبين وابن هشام الخضراوي وغيرهم كثير، وكانت من أهم كتب الأندلسيين النحوية (نتائج الفكر) للسهيلي، وشروحاتهم الكثيرة على كتاب سيبيويه، وقيل عن شرح الصفار الأندلسي قاسم بن علي بن محمد ت630هـ إنه أحسن شرح على كتاب سيبيويه في المشرق والمغرب. وتمضي الدراسات النحوية بالأندلس إلى قمة الازدهار والتطور والولوع بسيبيويه وأقيسته وتعليقاته في القرن الخامس إلى أن يظهر صوت جديد يدعو إلى هدم الكثير من أسس النحو العربي ويقوم على رأس هذه الدعوة ابن مضاء القرطبي ت592هـ في كتابه (الرد على النحاة). ومن أهم ما يميّز هذه المدرسة من أسس:

- وضعهم لمتون نحوية مشابهة لعمالقة المشرق.
- التأثر بالمذاهب النحوية السابقة.
- الانتخاب من الآراء النحوية السابقة خصوصا مذهب البغداديين.
- كثرة الاجتهادات والنفوذ إلى الآراء الجديدة.
- كثرة التعليقات والتفديرات.
- كثرة الشروحات النحوية.
- ظهور أفكار جديدة على يد ابن مضاء داعية إلى خلاف ما عُرف.
- تيسير النحو.
- وضع المنظومات النحوية.
- كثرة الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف.
- الدفاع عن القراءات القرآنية جميعها والاستشهاد بالقراءات الشاذة.

. نحاة هذه المدرسة:

النحاة الأندلسيون في ست طبقات حسب ترتيب الزبدي في طبقاته، تمثل الطبقة الأولى النحاة الأوائل بالأندلس الذين عكفوا على تدريس الفقه وتعليم الشباب مبادئ العربية لتلاوة الذكر الحكيم تلاوة صحيحة لذا كان هؤلاء ممن يرتحلون إلى المشرق لتلقي علوم الدين ثم العودة بها إلى

الأندلس لتعليمها ونشرها، فمن أشهر هذه الطبقة أبو موسى الهواري من أهل القرن الثاني الهجري كان من القراء المشهورين بالأندلس في إمارة عبد الرحمن الداخل تـ172هـ، رحل إلى المشرق فلقى مالكا ونظراءه من الأئمة ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظراءهما، كان له كتاب في القراءات وكتاب في تفسير القرآن¹. ويعاصره مواطنه الغازي بن قيس مؤدبا للناشئة بقرطبة مبادئ العربية، رحل إلى المشرق فكان أول من أدخل موطأ مالك بن أنس وقراءة نافع الأندلس.

وأول نحوي بالمعنى الدقيق هو جودي بن عثمان الموروري تـ198هـ، رحل إلى المشرق فلقى الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي وكتب الكوفيين المغرب والأندلس كما أنه أول من صنف في النحو كتابا بعنوان (منبه الحجرة).

ومن نحاة الطبقة الثانية عبد الله بن الغازي تـ230هـ من أهل العلم بالعربية والنحو والشعر والقراءات، واشتهر من معاصريه عبد الملك بن حبيب السلمي تـ238هـ لقّب بعالم الدنيا لأتته جمع إلى علم الفقه والحديث علم الإعراب واللغة والتصريف في فنون الأدب، وله مؤلفات كثيرة منها (إعراب القرآن).

وتكثر أسماء العلماء من الطبقة الثالثة وهم مؤدّبون وشعراء وفقهاء كأحمد بن تبري وبكر بن عبد الله الكلاعي وجابر بن غيث من أهل القرن الثالث ويشتهر منهم: محمد بن عبد السلام الخشني رحل إلى المشرق فلقى المازني والرياشي وغيرهما من النحاة فنقل عنهم وكان بصيرا بكلام العرب. ومن أشهر نحاة الطبقة الرابعة أبو صالح المعافري تـ302هـ فقيه على مذهب مالك وكان متقنا في النحو والشعر والعروض وضروب الأدب، وأبو بكر بن خاطب المكفوف العالم في النحو وقد صنف في النحو كتابا، ومواطنه أبو الحسن مفرج بن مالك التّحوي له كتاب في شرح الكسائي وعليه تخرّج أكثر أهل زمانه.

¹. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 253.

ويبرز من نحاة الطبقة الخامسة محمد بن موسى بن هاشم الأفشينق تـ307هـ الذي يقول عنه الزبيدي إنه رحل إلى المشرق فلقى أبا جعفر الدينوري وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته وأخذه عنه رواية، كما لقي المازني وأخذ عنه النحو وروى كتب ابن قتيبة. ويكثر مؤدّبو هذه الطبقة ممّن عني بتدريس النحو مثل أبي عمرو بن حجاج من القرن الرابع من أهل العلم والنحو واللغة والحفظ لأيام العرب، وكان متقدّماً في علمي العروض والنحو، وأبي الأصبع عيسى بن أبي جرثومة، كان يؤدّب بالنحو والقرآن والحساب والعروض، وأبي بكر بهلول الخثمي يؤدّب بالنحو والشعر الصبية وغيرهم كثير من أهل العلم.

ومن نحاة الطبقة السادسة الذين ذاع صيتهم بالتفقه بكتاب سيبويه والاهتمام به: أبو وهب عبد الوهاب، وأحمد بن يوسف بن حجاج تـ336هـ من أعلم الناس بالنحو وأحفظهم لمسائله، وكان كتاب سيبويه بين يديه لا يني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه¹، ومحمد بن يحيى الرياحي تـ358هـ الذي رحل إلى المشرق فلقى أبا جعفر النحاس فحمل عنه كتاب سيبويه رواية ثم عاد إلى قرطبة وجلس للتأديب به في داره فجاءه الناس من كلّ فجّ، يشرح لهم مسائله ويفسّر لهم معانيه مع ما كان له من دقّة النظر وجودة التحليل والغوص في علله، وهو الذي فتح باب الاهتمام بكتاب سيبويه بالأندلس لأنّه كان يعقد كلّ جمعة مجلساً للمناظرة فيه بين طلابه، فلم يكن قبله كبير اهتمام بكتاب سيبويه بالأندلس حتى ورد عليهم الرياحي، يقول عنه الزبيدي: "ولم يكن عند مؤدّبي العربية ولا عند غيرهم ممّن عني بالنحو كبير علم حتى ورد محمد بن يحيى عليهم، وذلك أنّ المؤدّبين إنّما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم سبيل النظر وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في الشرق من استقصاء

¹ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 299.

الفنّ بوجهه، واستيفائه على حدوده، وإنّهم بذلك استحقوا اسم الرياسة¹. وهو آخر نحوي من طبقات الزبيدي ختم به طبقات الأندلسيين، وبطبقات الأندلسيين ختم الزبيدي كتابه، ويعاصر الرياحي بقرطبة أبو علي القالي الذي أحدث نهضة لغوية ونحوية بالأندلس حين استقرّ بها كان عمادها ذخائر العرب من لغة وشعر ونحو التي حملها من المشرق، منها كتاب سيبويه أخذه عن ابن درستويه عن المبرّد.

وخلفه والرياحي جيل من النّحاة عكفوا على مدارس كتاب سيبويه وغيره من الكتب حتى ذاع صيت الأندلس في النّحو وشابهت البصرة في تفوّقها وعنايتها بالنّحو.

5. المدرسة المصرية: نشأت الدراسات النّحوية بمصر مع عناية قرائها بضبط آيات القرآن الكريم وقراءاته على وجه الضبط والإتقان، فمن البديهي أن تنشأ مع تلاوة القرآن الكريم تلقّي بعض مبادئ العربية حتى يحسن الطلاب قراءته، وقد نزل بها عبد الله بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي وهو من القراء، أخذ عنه القراءة نافع مقرئ أهل المدينة.

ويرجع ظهور الدراسات النّحوية بمصر إلى ولاد بن محمد التميمي البصري الأصل، رحل إلى العراق فلقى الخليل ولازمه وسمع منه الكثير ثم عاد إلى مصر ومعه كتب الخليل²، وكان يعاصره أبو الحسن الأعزّ تتلمذ على الكسائي ونقل علمه إلى مصر، وبذلك يكون بمصر التياران البصري والكوفي منذ وقتٍ مبكرٍ جداً.

وتتوالى بعدهما طبقات كثيرة من النّحاة النابهيّن الراحلين إلى مصر ممّن صنّف لطلابهم كتباً نحوية كأحمد بن جعفر الدينوري ت289هـ صهر ثعلب رحل من بغداد إليها وصنّف لطلابه المصريين كتاباً سمّاه (المهذّب) وصنّف أيضاً في ضمائر القرآن، وعلي بن سليمان الأخفش الصغير ت315هـ كان يدرّس النّحو للمصريين على مذهب سيبويه وكان يتعصّب للمبرّد والبصريين.

¹ . الزبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، ص 311.

² . شوقي ضيف، المدارس النّحوية، ص 328.

وفي القرن الرابع الهجري يتكاثر عدد النحاة بمصر وتزدهر الدراسات النحوية على يد طائفة من النابهين فيه كابن ولّاد المصري ت332هـ صاحب كتاب (الانتصار لسبويه من المبرد) وفي اللغة صنّف (المقصود والممدود على حروف المعجم)، ومواطنه أبي جعفر النحاس ت307هـ صاحب (التفاحة في النحو) و(الكافي) وغيرها من المؤلفات، وهو فيها كلّها يأخذ من الآراء السابقة ما وافق ظنّه.

وفي القرن الخامس يظهر ابن بابشاذ ت469هـ صاحب (المقدمة في النحو) وكتاب (المحتسب) وكان يمزج بين الآراء البصرية والكوفية والبغدادية مع النفوذ إلى الآراء الجديدة. وينزل في أواخر العصر الفاطمي بمصر أبو موسى الجزولي المغربي صاحب (الجزولية) ويجلس إلى إملاءات ابن بري، ويلحقه تلميذه يحيى بن معط صاحب (الدرة الألفية) و(الفصول الخمسين) ويتصدّر لإملاء وتدريس النحو بجامعة العتيق للطلاب. وتثمر الدراسات النحوية بمصر في أواخر القرن السابع والثامن الهجريين بظهور طائفة من العلماء النابهين الذين لهم فضل ازدهار ثمارها كابن مالك الأندلسي وابن الحاجب وابن هشام الأنصاري وتشقّ مع هؤلاء الدراسات النحوية طريق التدقيق والساداد في البحث عن التعليقات والعوامل والتدقيق في آراء السابقين، وتتكاثر بعدهم الشروحات والحواشي على مؤلفات البصريين والبغداديين والأندلسيين والمغاربة. ويمكن إجمال خصائص هذه المدرسة في ما يلي:

- كثرة الشروحات والحواشي.
- وضع المتن النحوية.
- الإسهاب في الشرح والتعليل.
- الانتخاب من الآراء النحوية السابقة.
- مزج النحو بالمنطق والفلسفة.
- وضع المصطلحات النحوية وتوضيحها.
- الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف.

نحاة هذه المدرسة:

والنحويون واللغويون المصريون في ثلاث طبقات في كتاب الزبيدي، يتصدرهم ولّاد بن محمد بن محمد التميمي وهو بصري لزم الخليل بن أحمد الفراهيدي وأخذ عنه الكثير ثم أخذ يحاضر الطلاب بمصر بإملاءات الخليل ولم يكن قبله كبير شأن وعناية بالنحو واللغة في مصر، ويعاصره أبو الحسن الأعز وهو ممّن أخذ عن الكسائي فكان لهما أن عرفا المصريين على المذهبين البصري والكوفي منذ وقت مبكر جدا.

ومن نحاة الطبقة الثانية أبو علي الدينوري ت289هـ صهر ثعلب، حمل عن المازني كتاب سيبويه وقرأه على المبرّد، ثم نزل مصر، وحمل معه اختلاف البصريين والكوفيين وتصدّر لتدريس المذهبين بمصر، له (المهذب في النحو) وله مختصر (ضمائر القرآن)، ثم عوّل على تدريس المذهب البصري دون مخالطته بالمذهب الكوفي من إملاءات الأخفش الأوسط¹. ومحمد بن الوليد بن ولّاد التميمي ت298هـ عكف على دراسة النحو مثل أبيه، قرأ الكتاب على المبرّد ببغداد ثم قعد لإملائه بمصر وصنّف لطلابه كتاب (المنمّق).

ومن نحاة الطبقة الثالثة أبو العباس بن ولّاد ت332هـ عكف على تدريس النحو مثل أبيه وجده، رحل إلى بغداد ولقي الزجاج وأخذ عنه النحو، صنّف مصنفات كثيرة أشهرها (الانتصار لسيبويه من المبرّد) نقض فيه المبرّد ونزّه إمام النحاة سيبويه، وكان شديد الإعجاب بالبصريين، ومواطنه أبو جعفر النحاس أخذ هو الآخر عن الزجاج وابن السراج أصحاب المبرّد وحلقات أصحاب ثعلب ببغداد ثم عاد إلى موطنه يدرّس كتاب سيبويه، من مؤلفاته (التفاحة في النحو) و(المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين) و(إعراب القرآن) وغيره من النحويين المصريين الذين أخذوا عن البغداديين.

وما يلفت النظر أنّ النحويين المصريين في القرنين الثاني والثالث ممّن أخذ وتتلّمذ على البغداديين، لذا فقد وجّهوا الدراسات النحوية بمصر إلى مذهب بغداد المتمثّل في الاختيار والانتقاء

¹ . الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 215.

من المذهبين السابقين مع النفوذ إلى آراء جديدة، مع ميلهم الواضح إلى المذهب البصري ومفاضلة آرائه، لكن سرعان ما تخرّج مصر نحاة يسировون على الانتقاء والاختيار مع النفوذ إلى أفكار جديدة منهم ابن بابشاذ ت469هـ الذي رحل إلى بغداد، وابن بري ت582هـ وغيرهما.

وفي عصر المماليك تزدهر الدراسات النحوية كثيرا وتأتي ثمارها فينبغ في النحو أعلام بارزة كابن الحاجب ت646هـ وابن هشام ت761هـ، كما تظهر أعلام بارزة بعد ابن هشام ممن له فضل في تطوير الدراسات النحوية بمصر ورفعها إلى قمة الازدهار.

4 - وجود مدرسة نحوية مغربية: إنّ الحديث عن أمر ما أو محاولة الحديث

عن خصائصه يتطلب قبل كلّ شيء إثبات وجوده هو أولاً، لذا وجب عليّ الإجابة عن هذا السؤال: هل للمغرب الإسلامي مدرسة نحوية أو مذهب نحوي على لغة القدامى ؟
للإجابة عن هذا السؤال أستعرض بعض آراء المحدثين والقدامى في هذه القضية لبيان الحقيقة.

إنّ الكثير من المحدثين يعترف بوجود نشاطات نحوية في المغرب منافسة للأقطار الأخرى، منذ القرون الأولى من البحث، نبغ فيه علماء أجلاء وأثر عنهم مؤلفات نحوية قيّمة، ويعترفون أيضا بسبق المغرب قطر الأندلس في هذه النشاطات، منهم: الأستاذ أحمد مختار عمر الذي يقول: "وبعد القرن الثالث نافست أقطار ومدن أخرى البصرة والكوفة في الدراسة النحوية، وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والأندلس، وظهر نحاة أعلام في كلّ بلد من هذه البلاد تجد تفصيلا عنهم في كتب التراجم المختلفة"¹، ومنهم أيضا الأستاذ مهدي المخزومي الذي يقول: "أمّا قبل الكوفة فالنحو بصري محض، وأهل العربية سواء أكانوا

¹. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط 6. القاهرة: 1988، عالم الكتب، ص 127.

في البصرة أم الكوفة إنما أخذوا النّحو من معاهد البصرة، ثم انتشروا في الأمصار في الكوفة أولاً، وفي بغداد ثانياً، ثم في مصر والمغرب والأندلس¹.

وكان الأستاذ محمد الطنطاوي أكثر المحدثين وضوحاً في هذه القضية، فقد عقد فصلاً كاملاً للحديث عن النّحو في المغرب أسمّاه (علم النّحو في الأندلس والمغرب وعلماءه) ثم راح يبيّن تشدد المغاربة في الأخذ من منابع الفصاحة والرحلة إلى علمائها في قوله: "تجشم أفراد من الأندلس والمغرب الأسفار إلى المشرق، ورووا عن علمائهم واقتبسوا من معارفهم، إذ لم يكن في مقدورهم الرحلات إلى البوادي ومشافهة الأعراب فيها كما صنع المشارقة، وقفلوا إلى المغرب والأندلس مزوّدين بعلوم المشاركة، زيادة على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم، إلاّ أنّه كان للمغاربة فضل سبق على الأندلسيين لقرب بلادهم من المشرق وبعد الأندلسيين منه"².

ثمّ بيّن ملامح نحو المغاربة والأندلسيين والذي لم يكن تقليداً محضاً للنّحو المشرقي، بل فيه استدراقات واجتهادات جديدة في قوله: "ظهر في الأندلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق، وانتشرت دراسة النّحو في سائر المدن... وبعدها استغنى الأندلسيون عن المشاركة واعتمدوا على أنفسهم، وعدلوا عن بعض آراء المشاركة في النّحو، وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه واستدركوا عليهم مسائل فانتهم، وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عُرف بمذهب المغاربة أو الأندلسيين، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجري الذي يعدّ بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد"³، وهو يرى أنّ المغرب والأندلس مذهب واحد في النّحو.

ووضع الأستاذ يوسف أحمد المطوع في الحولية السادسة من حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت عام 1985 مؤلفاً عن (نحاة القيروان)، رتبهم من القرن الثاني إلى السادس الهجري وترجم لهم. أمّا الأستاذ حسن عون بعدما بيّن مكانة كتاب سيبويه في نفس العلماء الذين اتّخذوه دستوراً في

¹ . مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، ط 2. مصر: 1958، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص 79.

² . محمد طنطاوي، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، ط 2. القاهرة: د ت، دار المعارف، ص 219.

³ . نفسه، ص 220.

النحو ومعيارا للعربية فدرسوه دراسة مستفيضة وتعمقوا في مسائله فهما عميقا وكتبوا عنه، وشرحوه وعلقوا عليه خلص إلى أن أكبر عدد من هؤلاء العلماء هم مغاربة وأندلسيون في قوله: "إن عدد العلماء الذين فتنوا بكتاب سيبويه وتخصصوا فيه دراسة وتأليفا يقرب من مائة عالم في سائر الأقطار العربية المختلفة، وأهم هذه الأقطار في تقديم أكبر عدد من أولئك العلماء هي بيئة الأندلس والمغرب، إذ وُجد هناك ما يزيد على الأربعين عالما"¹. وهو ما ذهب إليه الأستاذ علي النجدي ناصف في صدارة بلاد المغرب والأندلس في تقديم أكبر عدد من الدراسات النحوية على سائر البلدان الأخرى حين قال: "وقد رجعت إلى بغية الوعاة وكشف الظنون أتتبع دراسات الكتاب وأستوعبها إحصاء وعداً، فإذا للأندلس وما يسامتها من برّ المغرب قرابة أربعين، وللعراق وما يليه قرابة خمس وعشرين، ولمصر أربع لا غير. وليس هذا التفاوت بعجيب ففي الشرق كان مقرّ الخلافة العباسية وإليه كانت رحلة العلماء والشعراء وأصحاب الكفاية والمزية العامة، وفي الغرب كان مقرّ دولة أخرى عربية تتنافس الخلافة وتحرص أن تجاريها في كلّ ميدان"².

هذا عن موقف المحدثين من وجود مدرسة نحوية مغاربية.

وعن موقف القدامى من هذه القضية فهي مماثلة، إذ أجد معظم كتب التراجم والسير قد أوردت في ثناياها أسماء لأعلام مغاربة وأندلسيين منثورة هنا وهناك، وترجمت لهم بالتفصيل، من هذه الكتب: (الصلة في تاريخ أئمة الأندلس) لابن بشكوال ت578هـ، (إنباه الرواة على أنباه النحاة) للقفطي ت624هـ، و(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان ت681هـ و(الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب) لابن فرحون المالكي ت799هـ، و(البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) للفيروزآبادي ت817هـ، و(طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شهبه ت851هـ، و(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لابن تغري ت874هـ، و(بغية الوعاة في

¹. حسن عون، تطوّر الدرس النحوي، د.ط. د.ب: 1980، معهد البحوث والدراسات العربية، ص 53.

². علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، ط 2. القاهرة: 1979، عالم الكتب، ص 192.

طبقات اللغويين والنحاة) للسيوطي ت911هـ، و(نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للمقري التلمساني ت1040هـ وغيرها...

وبعد أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ت379هـ أوضح من أثبت من القدامى وجود مذهب نحوي في المغرب في (طبقات النحويين واللغويين) من خلال فصل كامل خصصه للنحويين واللغويين القرويين، جعلهم في أربع طبقات، وسبقهم في ذلك النشاط الأندلسيين الذين أوردتهم آخر كتابه، يقول عن مزاياه الأستاذ محمد طنطاوي: "ولهذا الكتاب منهج خاص في التراجم يرشد إلى المقصود بسهولة، فإنه من جهة فصل بين النحويين واللغويين، وجعل لكل بابا، ومن جهة أخرى ذكر البصريين وحدهم، ثم الكوفيين، ثم المصريين، ثم الإفريقيين، ثم الأندلسيين، ورتبهم طبقات طبقه تلي أخرى مشيرا إلى مدارسهم وشيوخهم مع جودة الضبط"¹، وهو أول من مهد لتوزيع النحاة واللغويين إقليميا إلى مدارس نحوية مختلفة.

.نحاة هذه المدرسة الأوائل:

من النحويين المغاربة الذين ذكرهم الزبيدي باسم القرويين من الطبقة الأولى: أبو مالك الطرماح من أهل القرن الثاني الهجري، عالم باللغة والشعر، وعياض بن عوانة نحوي وعالم. ومن نحاة الطبقة الثانية إبراهيم المهري عالم في النحو وأخوه أبو الوليد المهري ت253هـ شيخ أهل اللغة والعربية والنحو والرواية والمقدم في عهده وزمانه على الناس، وله كتب كثيرة². ومحمد بن صدقة المرادي من أهل طرابلس عالم باللغة والنحو، وأبو سعيد بن غورك قيل إنه أعلم من أبي الوليد المهري بالقرآن وحدود النحو واللغة، وأحمد بن أبي الأسود النحوي من أصحاب أبي الوليد المهري كان غاية في النحو واللغة وله أوضاع في النحو والغريب ومؤلفات حسان.

ومن نحاة الطبقة الثالثة حمدون النحوي المعروف بالنعجة ت بعد المائتين أعلم الناس بالنحو خاصة من المهري لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه، وله كتب في النحو وأوضاع في اللغة، وأبو

¹. محمد طنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص 227.

². نفسه، ص 299.

محمد المكفوف ت308هـ أخذ عن المهري والنعجة حتى علا عليهما في الغريب والشعر وتفسير الشروحات وأيام العرب والنحو وله فيها كتب كثيرة، وإليه الرحلة من جميع إفريقية والمغرب. ومنهم أيضا أحمد بن المدني نحوي وعروضي ومؤدب، وخلف الأضرابلسي صاحب نحو ولغة ت290هـ، وعلي بن الحضرمي كان ممن يناظر في النحو، ومحمد بن سالم المعروف بالعقق كان ممن يجادل في النحو، وابن الحداد الذي كان يؤدب في كل فنون المعرفة وله فيها كتب كثيرة، إلى غير ذلك من نحاة الطبقة الثالثة.

ومن نحاة الطبقة الرابعة أبو السميذع ت297هـ من أصحاب حمدون النعجة وتلاميذه، عالم بالعربية واللغة والأخبار، وابن أبي عاصم اللؤلئي ت318هـ من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والحفظ ودواوين العرب، أخذ عن المكفوف النحوي، ومنهم الداروني إمام في اللغة والعلم بالشعر وكان مشغوبا بديوان ذي الرمة، وكان له ميل إلى مذهب الكوفيين.

5 - المعارضون لوجود المدارس النحوية: رغم إقرار القدامى والمحدثين بوجود

مذاهب نحوية مختلفة أو مدارس بلغة العصر؛ فإن الكثير من المحدثين لم يرض بذلك، فراح ينكرها على اعتبارات مختلفة، فمن الرافضين القول بوجودها على أساس نهج النحويين نهجا خاطئا في دراساتهم الأستاذ كمال بشر في (دراسات في علم اللغة) فقد قرر أن البصريين والكوفيين قد خرجوا جميعا عن المنهج الصحيح في تقعيد القواعد، فالبصريون قد أسرفوا في شحن النحو بالفلسفة والمنطق، والكوفيون تغالوا في التوسع في المسموع والقياس عليه، فلم يلزم كلا الفريقين بخط تفكيري سليم، فالنقص والقصور في أسلوب دراسة اللغة ينطبق عليهما دون تفريق وبناء على ما تقدم صرح "ليست هناك في رأينا مدارس لغوية: كوفية أو بصرية أو غيرهما، وإنما هناك مجموعات من الدارسين عاشت كل مجموعة في مدينة مختلفة، فهي إذن مدارس جغرافية لا علمية"¹. وكذلك استنتج الأستاذ علي أبو المكارم في (تقويم الفكر النحوي) أخطاء موضوعية مهمة في مناهج الفكر النحوي التقليدي أهمها اتباع النحاة مزيجا غريبا من

¹. كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، ط 9. مصر: 1986، دار المعارف، ص 54.

مناهج شتى وركاما هائلا من الثقافات المختلفة ممّا ساعد على تنمية شخصية الباحث بدلا من بلورة مادة البحث وساهم في تضخيم إحساسه بذاته حتى انعكست بشكل أو بآخر على موضوعه، "وكان أبرز أشكال هذا الانعكاس استخدام كل باحث نحوي لما يجيد من المناهج في التدليل على صحة ما يذهب إليه دون اعتبار لمدى اتّصالها باللغة وعلاقتها بالتركيب"¹. ثم قال إنّ انتشار هذه الأخطاء بين التجمّعات النحوية الجغرافية المختلفة بالإضافة إلى انتشار الأساليب المتّبعة منهجيا بينها يكشف عن فساد تلك الفكرة التي شغلت الكثير من الدارسين في النحو العربي قدامى ومحدثين وهو وجود مدارس نحوية مختلفة تتميز كل منها بأسلوبها الخاص ومنهجها الذاتي، ويؤكد ما سبق أنّ منهج الدراسة النحوية واحد في مدنه المختلفة تحكمه قواعد عامة وإن تفاوت تأثير بعضها. فإنّ ليست ثمة مدارس بالمعنى الذي يقطع بوجود منهج مميز لكل منها في النحو وإنّما هناك تجمّعات مدنيّة وهذه التجمّعات تتحرك في إطارات متشابهة وتطبق أصولا واحدة، وإن اختلفت في بعض الجزئيات فإنّه اختلاف لا ينفي عنها وحدة المنهج واتّفاق الأصول². وكذلك رفض الأستاذ إبراهيم السامرائي القول بوجود مدارس نحوية بحجة إسراف المحدثين في استعمالات عصرية غير صحيحة حين قال: "أخذ الدارسون بالسعي نحو المعاصرة فأخذوا لفظ (المدارس) لتؤدّي ما شاع لدى الأوائل من استعمال مذاهب أو طرائق، فكانت مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة مصر ومدرسة الشام ومدرسة الأندلس ومدرسة إفريقية، ولا أستبعد أن يبلغ الهوى بأحد الدارسين فيزعم بمدرسة الموصلين وغيرها من مدن العالم الإسلامي"³. وقال في مقدّمة كتابه: "هذا كتاب موجز كنت أهتم منذ زمن بعيد أن أضعه، وذلك لأنني رأيت المعاصرين قد غلوا في إطلاق مصطلح (المدرسة) في الكلام على الاختلاف بين البصريين والكوفيين، لأنّ مواد الاختلاف تتصل بالفروع من الدرس النحوي، فهي إذن فوائد لغوية ولم

¹. علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، د ط. القاهرة: 2005، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 235.

². نفسه، ص 267 - 278.

³. إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع، ط 1. عمّان: 1987، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 140.

يكن الخلاف النحوي القديم بينهم شيئاً يخولنا أن نقول (مدارس نحوية)¹. وتعجب كثيرا من إطلاق الأستاذ طه حسن في درسه الأدبي على قصائد أوس بن حجر (مدرسة أوس بن حجر) فقال: كيف تميّزت قصائده في بنائها الخاص الذي يختلف عما كان لسائر الجاهليين ؟ وقد استمر المحدثون في هذا النهج في إطلاق (مدرسة) على مدارس الشعر الحديث فكانت مدرسة الإحياء ومدرسة الديوان ومدرسة المهجر على الاختلاف في منازعهم الفكرية²!

وكأنّ الأستاذ السامرائي ثائر على الكثير من استعمالات العصر ففي كتابه (العربية تاريخ وتطور) رفض أيضا ما أسماه الدارسون المعاصرون (لهجة) بدل (لغة)، وقال إنّه من الخطأ البحث فيها؛ إذ قال: "لقد آثر المعاصرون مصطلح اللهجة واللهجات على ما أسماه أهل اللغة القدامى لغة، فقول القدامى هذا على لغة هزيل أو عقيل أو لغة أزد وكقولهم جاء في هيهات ست وثلاثون لغة، وكأنّ المعاصرين درجوا على خطأ، وقد قرّ في عينهم أنّ الشذرات اللغوية تؤلف مادة يستطيع بها الدارس أن يقيم بناء وافيا بالغرض، والحق أنّه لن يصل فيه إلى كلام فاصل للاختلاف الشاسع بين لغة قبيلة وأخرى من نفس المجموعة شرقية أو غربية، وكذلك لصعوبة تحديد البقعة الجغرافية لتلك القبائل"³.

أمّا الرافضون القول بوجود مدارس نحوية على أساس التقسيم الجغرافي فهم كثر وحججهم أنّه من الخطأ نسبة العلوم إلى مدن نشأت بها واشتهرت فيها، لأنّ ذلك النتاج العلمي لم يكن مدينا إلى مدينة معينة كالبصرة أو الكوفة أو بغداد أو غيرها وإنّما مدين إلى علمائها، فراحوا من أجل ذلك يقترحون تسميات بدائل أذكر منهم الأستاذ حسن عون الذي وضع ملامح تطوّر الدرس النحوي في مدارس منسوبة إلى أصحابها من أئمة النحاة البارزين، وليس مدينا هذا التطوّر إلى مدن عرفت بنشاطها في الدرس النحوي كما ألفنا أن نقول إنّه نتاج مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد لأنّه منذ القرن الثالث الهجري لا يصوّر الواقع ولا يعبر عن الحقيقة، لذلك وضع تطوّر الدرس النحوي في

¹. إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع، ص 7.

². نفسه، ص 12.

³. إبراهيم السامرائي، العربية تاريخ وتطور، ط 1. بيروت: 1993، مكتبة المعارف، ص 281.

ثلاث مدارس هي مدرسة سيبويه ثم مدرسة الزمخشري ثم مدرسة ابن مالك، وقال إنّه مسلك لغوي الإغريق واللاتينيين قديما وكذلك فلاسفتهم فقد أثر عنهم القول هذه أكاديميّة فلان أو فلان من الفلاسفة، أو مدرسة فلان أو فلان من اللغويين أو الرياضيين ولم تكن هذه المدارس أو تلك الأكاديميات منسوبة إلى أثينا أو كريت أو ساموس¹. ومنهم أيضا الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه (من تاريخ النحو) حين قال "أدار القدامى أصحاب الطبقات التصنيف على البلدان فقالوا نحاة البصرة ونحاة الكوفة ونحاة بغداد، وجرى هذا الاستعمال مع تساهل كبير على أقلام المحدثين فقالوا مذهب البصريين أو مدرسة البصرة ومذهب الكوفيين أو مدرسة الكوفة، وقد حان الوقت لتصحيح هذه القسمة لأنّ لا وطن للعلم وإنّما تتعاون على إنتاجه جماهير من كلّ جنس، وكان الأصحّ ألا يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي بل نزعة سماعيّة يقابلها نزعة قياسيّة"². وهو بذلك قد اقترح بديلا وهو أن يسمّى المذهب البصري بالنزعة السماعيّة والمذهب الكوفي بالنزعة القياسيّة، وقد صحح بهذا ما ذهب إليه الكثير من الدارسين من اعتبار المذهب البصري ذا نزعة قياسيّة والمذهب الكوفي ذا نزعة سماعيّة. ثم خلاص إلى رأي آخر في كتابه (في أصول النحو) بعد دراسة إلى أنّ السماع الصحيح والقياس المنظم نزعتان تتمثلان على حَقّهما بالبصرة لا الكوفة³.

وكذلك اقترح الأستاذ أحمد مختار عمر في (البحث اللغوي عند العرب) أن تنسب الدراسات النحويّة إلى النظريات التي اشتهر بها أصحابها بدل إسنادها إلى المدن التي نشأت بها، لأنّه استخلص أنّ الأساس الوحيد الذي بني عليه تقسيم البحث النحوي إلى مذاهب أو مدارس هو المعيار الجغرافي فقبل مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة وغيرهما... لانتماء البصريين إلى البصرة والكوفيين إلى الكوفة... وهو تصوّر خاطئ برأيه ينبغي إعادة النظر فيه؛ لأنّ النظريّة العلميّة التي تجمع جماعة من العلماء لا يحدّها رقعة جغرافيّة محددة فالأصح في اصطلاح

¹. حسن عون، تطوّر الدرس النحوي، ص 6-7.

². سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، د ط. بيروت: د ت، دار الفكر، ص 3-76.

³. سعيد الأفغاني، في أصول النحو، د ط. د ب: 1994، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، ص 212.

(مدرسة) ليس تواجد جماعة من العلماء في مكان واحد، وإنما اشتراكهم في خطّ فكري معيّن ولو من بلدان متباعدة وجنسيات مختلفة...¹ وراح من أجل ذلك يضرب أمثلة لنحويين كوفيين وافقوا بصريين في مسائل، وبصريين وافقوا كوفيين، وبغداديين من أصول مختلفة وافقوهما ممّا كشف على فشل المعيار الجغرافي. وممّا يعضد قوله أنّ النظرية النحوية البصرية كانت الأساس في معظم الأمصار العربية في مختلف الأزمنة، هي التي بسطت آراءها في كتب النحو، ثم إنّ معظم نحاة الكوفة وبغداد ومصر والمغرب والأندلس عرفوا بكثرة الترحال والتنقّل من بلد إلى آخر لطلب العلم أو التكبّب ممّا يصعب من تحديد انتمائهم. ثم أضاف إنّ التقسيم الجغرافي يعطي إحساساً بمحليّة العلوم وخلق جوّ من التحيز والتعصّب، وفضّل في الأخير تبني المعيار القائم على أساس النظريات المستقلّة كالقول (بنظرية سيبويه في الالتزام بما سمع عن العرب)، و(نظرية الفراء في النصب على الخلاف)، و(نظرية ابن فارس في ردّ الكلمات الكبيرة إلى أصول أقلّ حجماً)². وهكذا دواليك وهو معيار تبناه من الغربيين كقولهم (نظرية بلوم فيلد السلوكية) و(نظرية تشومسكي اللغوية) وغيرها...

ومثلهم كثير من الباحثين من لم يرض بالتقسيم الجغرافي المعتمد في الدراسات اللغوية أيّا كانت، فمثلاً حين قسم علماء اللهجات العربية إلى عرييتين: عربية الشمال أي لغة عدنان (عرب الشمال) وعربية الجنوب أي لغة قحطان (عرب الجنوب) انتقد عالم الساميات الأستاذ إسرائيل ولفنسون هذا التقسيم الجغرافي وقال إنّه لم يكن صحيحاً ولا دقيقاً، لأنّ العلماء لم يقدّموا لنا حدوداً فاصلة واضحة تفصل شمال الجزيرة عن جنوبها³. ولم يرفض الأستاذ عبد الأمير محمد أمين الورد في (المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير) تبني الأساس الجغرافي معياراً لتقسيم البحث النحوي إلى مدارس بل رفض أمراً آخر فحين نظر في كتاب (الأصول) للأستاذ تمام حسان الذي ذكر أصولاً نحوية بصرية رفضها الكوفيون، وأصولاً كوفية رفضها البصريون وقرر حينها

¹. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 116 - 117 - 118.

². نفسه، ص 124.

³. إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ط 1. مصر: 1929، مطبعة الاعتماد، ص 163.

تمام حسان وجود مدرستين حقيقتين في النحو العربي هما البصرية والكوفية قال عبد الأمير إن القول بوجود مدارس نحوية غير البصرية والكوفية ضرب من التزيّد لدى الدارسين قديما وحديثا ما لم تستند إلى أسس علمية واضحة كذلك التي وضعها تمام حسان في أصوله، فلا مدرسة بغدادية ولا مصرية ولا فيروانية ولا إفريقية ولا أندلسية بل مدرسة ثالثة وهي القرطبية تلك التي وضعها أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن مضاء القرطبي 592هـ لأنّ الناظر في هذه المدرسة يجد منهاجاً جديداً وأساساً وأصولاً مغايرة كلّها لأسس المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية ممّا يجزم الجزم القاطع بأنّ الذي يراه أمامه منهج جديد واتّجاهات جديدة في دراسة العربية¹.

أمّا الأستاذ علي مزهر الياسري في (الفكر النحوي عند العرب) قد تبوّى مفهوماً غربياً محضاً لمصطلح مدرسة مخالفاً كل الاختلاف سائر الدارسين، تساءل مستنكراً "كيف لنا أن نطلق مصطلحاً حديثاً كمدرسة على التفكير النحوي القديم؟! " وقال في الجواب: "إنّنا لن نظفر بشيء لأنّ مصطلح (مدرسة) في الاستعمال الحديث يعني منهجاً مستقلاً في أصول النظر إلى الأشياء ووسائل البحث فيها وتفسير ظواهرها، فكلمة *école* الفرنسية حين تستخدم للتعبير عن مذهب من المذاهب الفكرية أو الأدبية أو الفنية إنّما تعني أسلوباً جديداً في التفكير والبناء قد ينكر كلّ التكرّر لما هو شائع متعارف عليه قبل ذلك"². فهذا الاصطلاح خاطئ برأيه لأنّه لم يكن بين نحاة البصرة ونحاة الكوفة خلاف في أصول التفكير النحوي بل خلاف في عدد من المسائل وهي جميعها لا ترسم معالم منهج خاص في طبيعة الدرس لأنّها لا تصدر عن الأسس بل عن أسباب فرعية تتعلق بطريقة الاحتجاج وتوجيه العلة أو القياس وما عدد المسائل الخلافية بينهما إلّا جزءاً يسيراً³، ثم أضاف أنّ القدامى ما كانوا يقصدون بمذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين منهجاً خاصاً في الدرس النحوي وإنّما قصدوا به تقسيماً

¹. عبد الأمير محمد أمين الورد، المدارس النحوية، ص 36-37-38.

². علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، تق: عبد الله الجبوري، ط 1. بيروت: 2003، الدار العربية للموسوعات، ص 363.

³. نفسه، ص 361.

معتمدا على البيئة النحوية لا أكثر، ثم أضاف "وما مذهب الأندلسيين والمصريين بضرب من الجديد والاختلاف..."¹ وأوصى في الأخير بالتريث في استخدام المصطلحات العصرية فقال "إنه كان لزاما على الباحث المحدث ألا يغالي في تحميل المصطلحات على ما ليس لها لأنه مطالب بدقة التعبير وسلامة الدلالة..."².

أما عن القائلين بوجود مذهب واحد في النحو العربي والذي هو البصري ومنكرا للمذهب الكوفي قد اشتهر به المستشرق الألماني جوتولد قايل مقدّم كتاب الإنصاف للأنباري حين قال: "ومع عظيم الإجلال لمناقبهم (الكوفيين) فإنهم لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة"³. وكانت حججه أن كل خلافت الكسائي والفراء للخليل وسيبويه إنما كانت امتدادا لما سمعاه بالبصرة من أستاذهما يونس بن حبيب الذي كان له قياس خاص ومذاهب ينفرد بها، واستدل على ذلك قايل أن الأنباري في كل مرة يذكر يونس يذكر معه الكوفيين متابعين له في آرائه، وزعم في حجة ثانية أن الخلافات بين الكسائي وتلميذه الفراء كثيرة جدا فلم يؤلفا جبهة علمية موحدة لأن من شروط المدرسة تأليف جبهة علمية موحدة بين أفرادها يجمعهم وحدة الرأي⁴.

وكان أن ردّ عليه شوقي ضيف بإسقاط كل حججه واحدة تلو الأخرى بقوله في الأولى: "أجمع القدماء على أن نحو الكوفيين يشكّل مذهباً مستقلاً أو كما نقول بلغة العصر (مدرسة مستقلة) سواء منهم أصحاب كتب الطبقات والتراجم مثل ابن النديم في (الفهرست)، والزبيدي في (طبقات النحويين واللغويين) أو أصحاب كتب المباحث النحوية التي تعرض دائماً في المسائل المختلفة وجهتي النظر المتقابلتين الكوفية والبصرية..."⁵. أما عن زعمه أن الأنباري في كل مرة يذكر فيها يونس بن حبيب يذكر بعده الكوفيين موافقين له فيما ذهب إليه فقد قال ضيف إن عدد هذه المسائل لا تعدو أربعة ! وأضاف الزمخشري عليها خمسة وقد شكك فيها ضيف. وفي زعمه أن الكسائي

¹. علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، ص 368.

². نفسه، ص 363.

³. ع / مصطفى عبد العزيز السنجرجي، المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص 141.

⁴. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 155.

⁵. نفسه، ص 155.

والفراء لم يؤسسا جبهة موحدة الرأي لكثرة الخلافات بينهما كان أن ردّ عليه أن ذلك لم يكن صحيحا لأنهما أسسا جبهة قوية ما دام أنهما قد ناظرا البصريين وما مخالفة التلميذ لأستاذه إلا أمرا طبيعيا. وما يعضد حجة شوقي ضيف أن الكثير من النحويين قد خالفوا أئمتهم فسيبويه قد خالف الخليل وقد خالفهما جميعا تلميذهما الأخفش الأوسط، والمازني قد خالف أستاذه سيبويه في التصريف، والمبرد خالفه أيضا وألف في ذلك كتابا... ورغم ذلك فقد ألفوا مدرسة.

وراح بعدها شوقي ضيف يثبت خصائص هذه المدرسة ليواجه بها قائل فقال في خاتمتها: "والصحيح أن نشاط الدراسات النحوية في الكوفة إنما بدأ بدءا حقيقيا مع الكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان رسما حدود النحو الكوفي وفصوله ووضعوا أسسه وأصوله، بحيث أصبح للكوفة مدرسة نحوية تستقل بطوابع خاصة من حيث الاتساع في الرواية والقياس، ومن حيث وضع مصطلحات جديدة، وما يجري معها من عوامل ومعمولات. ويتوضح هذه الطوابع المستقلة نقضت ما زعمه قائل من أنه لم تكن للكوفة مدرسة نحوية خاصة..."¹

والحقيقة أنه لم ينكر المدرسة الكوفية إلا قلة وعلى رأسهم قائل والذي نقضه شوقي ضيف مثبتا وجود هذه المدرسة.

وعن المنكرين للمذهب البغدادي فهم كثيرون، وذكر شوقي ضيف أن من حججهم في ذلك أن الزبيدي لم يذكر البغداديين بهذه التسمية في طبقاته، ولم يخصص لهم ما خصصه للبصريين والكوفيين والمصريين والقرويين والأندلسيين، بل ذكرهم منسوبين إلى شيوخهم البصريين أو الكوفيين وأن علمين بارزين من البغداديين وهما أبو علي الفارسي ت377هـ وتلميذه عثمان بن جني ت392هـ ينسبان أنفسهما في البصريين، وأن مذهبهم النحوي لم يكن مذهباً نحويًا جديدًا يخول تسميته بالمدرسة، قال: "حاول بعض الدارسين المعاصرين أن ينفي وجود المدرسة البغدادية معتمدا على من يصنفون أفرادها في البصريين والكوفيين وأن علمين من أعلام جيلها الثاني ينسبان أنفسهما في البصريين وهما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني بقولهما

¹. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 368.

(أصحابنا) وبانتصارهما في أغلب الأحيان للآراء البصرية¹. وكان أن ردّ عليهم شوقي ضيف أنّ أصحاب التراجم قد أفردوهم بمدرسة مستقلة كابن النديم في الفهرست وأبي الطيب اللغوي في مراتبه وغيرهما من القدامى وأصحاب المؤلفات النحوية الحديثة أيضاً، وأنّ ما زعمه الفارسي وابن جني من نسبة أنفسهما في البصريين لا يكفي لنعدّهما حقاً منهم بل هما من الجيل الثاني من البغداديين السابقين والنفوذ من خلالهما إلى آراء نحوية جديدة فقال: "اتّبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري نهجا جديدا في دراساتهم ومصنّفاتهم النحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعا ممّن تتلمذ للمبرّد وثعلب فنشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما ويُعنى بالتعمّق في مصنّفات أصحابهما والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة"².

أمّا عن سائر المعاصرين الرافضين القول بوجود مدارس نحوية مختلفة ممّن ذكر فإنّ رفضهم جاء استنادا إلى اشتراطهم شروطا مستمدّة من مذاهب الغربيين في اتّجاهاتهم اللغوية، وكان ممّن ذكر الأستاذ أحمد مختار عمر الذي رفض القول بوجود مدارس نحوية استنادا إلى المعيار الجغرافي فرفض القول بالمدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية وغيرها... بل فضّل إسناد الدراسات النحوية إلى النظريات التي اشتهر بها أصحابها كالقول (بنظرية الفراء في النصب على الخلاف) و(نظرية سيبويه في الالتزام بما سمع عن العرب) ... لكنّه بعد هذا الكلام عقد عنصرا جديدا يتحدّث فيه عن الفروق بين المذهبين البصري والكوفي بعنوان (أهمّ الفروق بين مدرستي البصرة والكوفة) ويقول فيه "إنّ المعيار الجغرافي هو الأساس المتّخذ للتقسيم"³ ! ويتناقض كلامه في موضع آخر حين قال: "وبعد القرن الثالث نافست أقطار ومدن أخرى البصرة والكوفة في الدراسة النحوية وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والأندلس وظهر نحاة أعلام في كل بلد من هذه البلاد تجد تفصيلا عنهم في كتب التراجم المختلفة"⁴.

¹. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 245.

². نفسه، ص 245.

³. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 124.

⁴. نفسه، ص 115.

كذلك تتناقض موقف الأستاذ سعيد الأفغاني الذي رفض اتّخاذ المعيار الجغرافي أساساً لتقسيم المدارس النحوية في كتابه (من تاريخ النحو) بما أبداه في كتابه (في أصول النحو) لأنّه وضع عنواناً كان (لمحة تاريخية عن مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة... الفروق بين المذهبين البصري والكوفي)¹ أي أنّه تبنّى المعيار الجغرافي في التصنيف وأكثر من هذه العبارات: نحاة البصرة، نحاة الكوفة، أئمة البصريين، أئمة الكوفيين، نحاة المصريين، نحاة الأقاليم، ولم يقل بالنزعة السماعية والنزعة القياسية البديلتين.

وعلى هذا فإنّ المعيار الجغرافي لا يمكن أن ينكر في تسمية المدارس النحوية لأنّ البحث النحوي في مختلف القرون نسب إلى أئمة ظهوروا في بيئات مختلفة كالبصرة والكوفة وبغداد ومصر... فهو نتاج علماء هذه المدن فكان من البديهي أن تنسب هذه الاتجاهات النحوية إلى مكان ميلادها.

أمّا عن اقتراح الأستاذ أحمد مختار عمر نسبة الدراسات النحوية إلى النظريات التي وضعها أصحابها كالقول (بنظرية الفراء في النصب على الخلاف) وغيرها مثلما قال بذلك الغربيون ك (نظرية بلوم فيلد السلوكية) أو (نظرية سوسور البنوية) أو (نظرية جريم في النحو التاريخي) فإنّه من العسير جداً اتّباع هذا المنهج الغربي لأنّه يتعدّر على الباحث أن يلخص آراء النحاة العرب الذين ما أكثر عددهم في كلمتين أو ثلاث في مسائل النحو العربي المتشعبة التي لا تعدّ ولا تحصى ثم ينسبها إليهم ! وكان ذلك يسيراً عند الغربيين في دراساتهم اللسانية التي تعدّ على أصابع اليدين. ولذلك من الصواب واليسير نسبة الدراسات النحوية إلى المدارس التي تنتمي إليها جغرافياً.

أمّا عن الأستاذ إبراهيم السامرائي الذي أنكر وجود مدرستين في النحو هما البصرية والكوفية بدعوى أنّ النحو العربي واحد في جميع الأقاليم فإنّه قد افتتح فصول كتابه (المدارس النحوية أسطورة وواقع) بفصل سمّاه (المدرسة البصرية وأصولها لدى الأوائل) وبعدها مباشرة فصل آخر أسمّاه (المدرسة الكوفية أصولها وبدايتها وأصحابها) وراح يثبت فيهما اختلاف وجهتي النظر في

¹ . سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ص 160.

مسائل النحو وإعرابها وأصول احتجاجهما! والحقيقة أنه ما كان لينكر وجود المدرستين كما ادّعى لو لم يعاديه الأستاذ مهدي المخزومي صاحب (المدرسة الكوفية) لأنه حين نشر الأستاذ السامرائي مقالا بعنوان (ألنا مدارس نحوية؟) بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني بأسلوب استفهام أن القول بوجود مدارس شيء بولغ فيه كان أن ردّ عليه الأستاذ المخزومي متهجّما مغاضبا عليه وناقدا لما جاء في مقاله، فكان أن ردّ عليه الأستاذ السامرائي بإنكار مدرسة الكوفة، وحتى مدرسة البصرة في كتابه (المدارس النحوية أسطورة وواقع)¹.

أما عن الأستاذ علي مزهر الياسري الذي تبنت مفهومها غربيا لمصطلح مدرسة الذي يعني به منهاجا مستقلا في أصول النظر إلى الأشياء ووسائل البحث فيها، وأسلوبا جديدا في التفكير والبناء قد ينكر كلّ التنكّر لما هو شائع متعارف عليه قبل ذلك، ولذلك كان من الخطأ برأيه إطلاق هذا المصطلح على منهج البصريين ومنهج الكوفيين وغيرهم لأنه ليس بينهم خلاف في أصول التفكير النحوي، فإنه مفهوم لم يكن صحيحا في كلّ الأحوال والمثال على ذلك أن مدرسة كوبنهاجن النسقية بزعامه هلمسلاف لم تنتكر كلّ التنكّر لأسلوب تفكير المدرسة الوظيفية الفرنسية التي يتزعمها مارتيني وكلاهما لم تنتكرا لمنهج تفكير مدرسة سوسور البنوية، لأنهما استمررا وتطويرا لآراء سوسور البنوية في مفهومي النظام والوظيفة مع اجتهادات جديدة، فقد طوّرت المدرسة الوظيفية نظرية الفونولوجيا أو ما بدأه سوسور في الوظيفة الأكوستيكية للدوال، وطوّرت المدرسة النسقية النظام الذي وضعه سوسور شرطا لتكوين الجمل وأسمته نسقا فحللت الوحدات اللسانية أو المدلولات تحليلا معنويا، فلم تتناقضا ولم تناقضا ما سبق من مناهج لسانية². أما عن زعمه أن لا خلاف جوهري في أصول التفكير النحوي بين البصريين والكوفيين والنحويين المتأخرين فكان أن ردّ على ذلك شوقي ضيف وغيره لمن قال بذلك من قبل بحجج مقنعة من أن للكوفة مدرسة نحوية استقلت عن المدرسة البصرية بطواع خاصة في الأصول من

¹. ينظر: إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع.

² - Jean Michel Adam, la linguistique textuelle introduction à l'analyse textuelle des discours. 2eme édition. Paris : 2008 , Armand colin, p 18.

حيث الاتساع في الرواية والقياس ومن حيث وضع مصطلحات نحوية جديدة وما نتج عنها من عوامل ومعمولات، وكذلك استقلت كل مدرسة من المدارس المتأخرة بطوابع خاصة بها.

أما عن صاحب (تطور الدرس النحوي) الأستاذ حسن عون الذي رفض نسبة المدارس النحوية إلى البيئات التي نشأ بها النحو لأن تطوره لم يكن مدينا لها بل هو مدين في الواقع لمجهود بعض علماء النحو وثمرات من ثمرات نشاطهم العقلي فكان من الصواب نسبتها إلى أسمائهم وقد كان ذلك بزعمه مسلك لغوي الإغريق واللاتينيين وفلاسفتهم القدامى فلم يؤثر عنهم نسبة أية مدرسة إلى مدينة ما بل إلى أسماء علمائها، فكان لزاما برأيه على اللغويين والنحويين العرب ألا ينسبوا أية مدرسة نحوية أو لسانية أو أدبية إلى مدينتها بل إلى أسماء روادها.

إلا أن هذا الذي سنّه علماء الإغريق القدامى واللاتينيين ليس قانونا ينبغي أن ننهجه والدليل على ذلك أن الكثير من المدارس اللسانية الحديثة تنسب إلى البلد الذي نشأت به كمدرسة براغ ومدرسة كوبنهاجن (النسقية) ومدرسة أكسفورد (في التحليل الفلسفي للغة) وقولهم اللسانيات الأوربية واللسانيات الأمريكية... ثم إن علم النحو العربي علم شاسع بحر من القواعد ورجاله في جميع العالم الإسلامي لا يعدّون ولا يحصون وآراؤهم كذلك فلا يمكن أن نسمي المدارس النحوية بأسمائهم وإلا لصار لكل نحوي مدرسة وصارت عدد المدارس بعدد النحاة ! ولا يمكننا أن ننسبها إلى آرائهم لكثرة آرائهم في مسائل النحو الكثيرة، ثم لو نسبناها إلى الآراء التي اجتهدوا فيها فما هي التي سنختارها من مجموع ما اجتهدوا فيه ؟ ثم إن الصعوبة ستتمثل أمامنا في استخلاص نظريات منها بمصطلحات دقيقة، وإن فعلنا ذلك فلن يكون من النتائج إلا أن يضيع الدارس بينها، فيعزف عن الدرس النحوي !...

والحقيقة أن الآراء الحديثة التي حاولت الانتفاض من جهود النحويين القدامى والإنكار لوجود مذاهبهم بحجج مختلفة لا تعدّ ولا تحصى، وكان يغذيهم في أغلب الأحيان اتصالهم بالثقافة الغربية فحاولوا إسقاط مناهجها على دراسات اللغويين العرب القدامى وحين فشلوا في ذلك تناولوا عليهم وما إنكارهم لوجود المدارس النحوية المختلفة بمختلف الأسباب إلا إنكار لعلمائها الأفذاذ وصنيعهم

في حصن القرآن الكريم بسياج منيع وأختم الكلام بما قاله الأستاذ مصطفى عبد العزيز السنجرجي في هذا الصدد متخوفاً من عواقب ذلك قائلاً: "إنّ من دواعي الأسف أن نرى آراء متطرّفة يحاول أصحابها الانتقاص من جهود اللغويين العرب منتشرة لدى بعض المحدثين الذين أتيحت لهم فرصة الاتصال بالثقافة الغربيّة والاطّلاع على مناهجها الحديثة فهاموا بها وأغرموا باتّجاهاتها وحاولوا تطبيقها على مناهج اللغويين العرب وحين استصعب عليهم ذلك اجترأوا على التقليل من شأنهم، وانتقاص جهودهم، وكان من أخطر النتائج لهذا الصنيع هو أنّ بعض الناشئين قد تزعزعت ثقتهم في تراث أسلافنا المجيد، وضعفت عنايتهم بدراسة العربيّة، وأخوف ما أخافه أن يتفاقم هذا الأمر حتى يؤدّي إلى قطع الصلة بين ماضيها العريق وحاضرنا المتطوّر"¹، وهو ما ذهب إليه الكثير من الباحثين الذين رأوا في ذلك تهديداً على العربيّة.

- خلاصة الفصل: إنّ الآراء المختلفة التي حاولت رفض المدارس النحوية بنت حججها على اعتبارات مختلفة كان أهمّها رفض المعيار الجغرافي المتّخذ، فمعظم العلماء رفضوا تبني المعيار الجغرافي أساساً للتقسيم وذلك لأنّ الدرس النحوي منذ القرن الثالث الهجري لا يصدّر الواقع ولا يعبر عن حقيقة الأمر، إذ كثرت رحلات العلماء من مصر إلى آخر فلم يعد هناك تجمّعات علميّة من نفس الجنسيّة وأفضل مثال على ذلك مدرسة بغداد التي يتوزّعها علماء من مختلف الجنسيات، فلا وطن للعلم إذن وإنّما يتعاون على إنتاجه أفراد من كلّ جنس، ومن أجل ذلك راحوا يقترحون بدائل لتسميّة المدارس، إلّا أنّ التسميات المقترحة لم تلق رواجاً، لذا فتقسيم المدارس جغرافياً هو الصواب فهذا ما أثر عن علمائنا الأوّلين حين سمّوا المدارس النحوية بأسماء المدن التي نشأت فيها الاجتهادات، فقالوا مدرسة البصرة والكوفة وبغداد ومدرسة مصر وغيرها، وكتاب (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي أوّل كتاب في التراجم والطبقات يوضّح توزيع علماء النّحو إقليمياً، لذا فتبني بديلاً آخر غير التقسيم الجغرافي قد يحدث اضطراباً كبيراً، فالجدير بالقول مدرسة البصرة ومدرسة بغداد... وكان الزبيدي في طبقاته أوّل من أثبت وجود مذهب نحوي بالمغرب أو مدرسة نحوية بلغة العصر

¹. مصطفى عبد العزيز السنجرجي، المذاهب النحوية في ضوء الدراسات الحديثة، ص 205.

من خلال فصلٍ كاملٍ، ويرى أنّ إقليم المغرب أسبق من الأندلس في النشاط النحوي وذلك منذ القرن الثاني للهجرة، وأورد أسماء كثيرة لرجال النحو واللغة المغاربة باسم القيروانيين أو القرويين في طبقات كثيرة، وهذا ما ذهب إليه الكثير من الباحثين المعاصرين، فللمغرب مذهب نحوي أو (مدرسة نحويّة) بلغة العصر منذ القدم.

الفصل الثاني:

الحركة النحويّة والعلميّة في المؤسسات

العلميّة بالمغرب الإسلامي.

- الفصل الثاني: الحركة النحوية والعلمية في المؤسسات العلمية بالمغرب

الإسلامي:

- 1 - الرباطات.
- 2 - الزوايا.
- 3 - الكتاتيب.
- 4 - المساجد.
- 5 - المدارس.
- 6 - عوامل ازدهار العلوم بالمغرب الإسلامي:
 - 1 - الرحلات العلمية.
 - 2 - المجالس العلمية.
 - 3 - خزائن الكتب.
 - . خلاصة الفصل.

تمهيد: عاش المغرب الإسلامي في الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى الثامن الهجري أزهى عصور حياته، فقد أطلّت هذه الحقبة ظهور دول بربريّة من صميم كيانه، مستقلة استقلالاً تاماً وقطعت التبعية للمشرق وسياسته، وذلك إثر انتقال الدولة العبيديّة التي نشأت بالمغرب إلى مصر باسم الدولة الفاطميّة في القرن الرابع الهجري، وكانت أوّل الدول البربريّة المستقلّة بكيانها الدولة المرابطيّة في القرن الخامس، ثمّ الدولة الموحيديّة في القرن السادس، ثمّ انفكاكها في القرن السابع وظهور الدول الزيانيّة والمرينيّة والحفصيّة بالمغرب الثلاثة في السابع والثامن الهجريين، وفي ظلّ هذه الدول عاش المغرب أرقى عصوره إذ ارتقت فيه العلوم والمعارف والفنون إلى أعلى المراتب وعجّ بالعلماء والطلبة، وكان مقصداً حتى للكثير من المشاركة، وذلك بفضل إنشاء معاهد العلم المتنوعة؛ إذ عرف في القرن الخامس ظهور المدارس الأولى في نفس الوقت الذي أنشئت فيه المدارس الأولى بالمشرق، وكان التعليم بهذه المؤسسات فريضة على كلّ مواطن، فكان لمختلف معاهد العلم بالمغرب الإسلامي أثر طيّب في تكوين الفكر المغربي بما في ذلك فكرهم النحوي، وعُرف عن خلفاء هذه الدول تقديسهم للعلم وحبّهم للعلماء، فأثروا المؤسسات التعليميّة المختلفة بعلماء متخصصين لإلقاء الدروس، وبتنظيم تعليميّة مزوّدة بأحسن المؤلّفات وأهمّها في كلّ فنّون المعرفة، فتزوّد المغاربة بمختلف العلوم الدينيّة واللغويّة والعقليّة حتى سطع نجم المغرب في الوقت الذي كان المشرق يتقطّع وتتكايل عليه الجيوش الصليبيّة المغوليّة لتطمس الحضارة العربيّة الإسلاميّة منه... فكانت أولى المعاهد التي عرفت مدناً بالمغرب الإسلامي لنشر الدين والعلم هي الرباطات والزوايا، ثمّ الكتاتيب والجوامع والمدارس، فقد توزّعت الحركة العلميّة بين هذه المؤسسات التي قامت بنصيبها في النهوض بالعلم والثقافة والبحث ممّا أسهم في النمو العلمي بالبلاد. ومن روافد العلم الأخرى التي تتّقف منها المغاربة مجالس العلماء ومجالس الخلفاء، والرحلات العلميّة، وخزائن الكتب والمكتبات، فقد أدّت هذه الروافد مهمّة تعليميّة وتنقيفيّة عظيمة تخرّج منها نخبة علميّة مرموقة.

1. - الرّباطات: تعدّ الرّباطات أولى المؤسسات التعليميّة التي عرفت حواضر المغرب العربيّة الإسلاميّة الجديدة التي فتحها العرب، من برقة إلى طنجة، وكانت ثغورا لإيواء الجند للجهاد في سبيل الله ضد العدو البيزنطي (الروم) لذا كانت آنذاك مؤسسة على امتداد طول الشريط الساحلي من طرابلس شرقا إلى المحيط غربا، وأماكن للعبادة والمرابطة والتقوى مصداقا لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون) آل عمران 200، وقيل في (رابطوا) قولان: قيل رابطوا على الجهاد، وقيل رابطوا على انتظام الصلوات¹. وقبل عصر المرابطين كانت الرّباطات ذات أهميّة عظيمة، يقصدها المغاربة والعرب الفاتحون للجهاد ضد البيزنطيين والمرتين عن الإسلام، ولتلقّي مختلف العلوم الدينيّة واللغويّة، وكانت القيروان التي أسسها عقبة رباطا كبيرا اتخذها العرب لصدّ غارات البيزنطيين، وقال عقبة عن غرض إنشائه للقيروان "نريد أن نقرّبها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرّباط... فأهلها مرابطون"². وقد توسّع الأغالبة في بناء الرّباطات التي سمّيت بالمحارس، فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندريّة إلى المحيط الأطلسي، وكان المسلمون يتسابقون إليها، ويرون فيها لونا من ألوان الجهاد والدفاع عن الإسلام حتى لم تستطع الأساطيل البيزنطية في القرن الثاني للهجرة من أن تتال من الساحل الإفريقي لأنّ المحارس والرّباطات كانت بالمرصاد. ومن أشهر رباطات المغاربة رباط (المنستير) بمدينة المنستير على سواحل تونس، "فقد درّس فيه سحنون بن سعيد التتوخي صاحب المدونة الفقه، وأحمد بن الجزار القيرواني الطبيب المشهور الذي كان يدرّس فيه الطبّ ويعالج المرضى"³. ورباط سوسة الذي بناه الأغالبة، ورباط مدينة سلا ورباطات منطقة بجاية. ومن أشهرها أيضا رباط رادس بتونس، وقد كتب علماء المشرق إلى أهل إفريقيا يقولون: "من رابط برادس يوما واحدا حجّنا عنه حجة"، ونقل عن أنس بن مالك وزيد بن ثابت أنّهما قالا "من رابط

¹. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، د. ط. القاهرة: د. ت، دار الفكر العربي، ص 128 .

². نفسه، ص 129 .

³. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 66 .

برادس يوما واحدا فله الجتّة"¹. وقد ذاع صيت المذهب المالكي في كل مدن المغرب، فغدت الرباطات مدارس يدرس فيها الفقه المالكي والحديث النبوي الشريف، وانتشر فيها الفقهاء المالكيون يعمّرونها ويعلمون فيها حتى قيل "إنّ قصور زياد المرباط بساحل إفريقية دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك"². وقد خدمت الرباطات في المغرب الإسلام والعروبة خدمة جليلة، وعصمت المغاربة والأندلسيين من الفتن الدينيّة والضلالات لأنّ هدفها الأساسي كان تعليم علوم القرآن الكريم والسنة النبويّة على أسس صحيحة، وكانت تضرب للناس المثل الأعلى في التقرب من الله عزّ وجلّ "قلولها لقضى الخوارج والصفريّة والإباضيّة والبرغواطيون على التقاليد السليمة والسنن القويمة ولاسيما في عهد الفاطميين الذين مثلوا بفقهاء مالك شرّ ممثّل، حتى كانوا يفرّون بأنفسهم وبدينهم إلى الرباطات، يتعبّدون ويصونون تراث مالك، حتى إنّّه ليخيّل إلينا أنّ أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنيّة، وهم الذين دكّوا صرح الشيعة في إفريقية والمغرب"³. وكان منهاج التعليم في الرباطات قائم على حفظ القرآن الكريم وتفسيره، والحديث النبوي الشريف، وكتب الفقه وشعر المواعظ وحفظ الأناشيد الدينيّة إلى جانب التدريب على الفنون القتاليّة"⁴. ومن أشهر العلماء الذين تفقّهوا من الرباطات وتحدّثت عنهم كتب الطبقات: أبو الحسن اللواتي، عبد الرحيم بن عبد ربه، أبو محمد بن حكّوم، أبو إسحاق الساحلي وأبو الفضل يوسف بن مسرور الذي ألف كتاب (فضل العلم والعلماء) بالمنستير"⁵. وقبل تأسيس المرابطين لدولتهم بمراكش، قام زعيمهم الأول عبد الله بن ياسين الجزولي ببناء رباط منعزل بالصحراء الإفريقيّة السنغاليّة لتربيّة الطلبة تربيّة دينيّة صحيحة، فالتف حوله ألف رجل، فصار مركزا عسكريا وتعليميا في آن واحد، وسمّى أتباعه بالمرابطين نسبة إلى الرباط. كما أنّ لرباط (نفيس) الذي أنشأه وجاج بن زللو اللمطي دورا هامّا في تاريخ

1. الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربيّة، تونس: 2006، المنظّمة العربيّة للتربيّة والثقافة والعلوم، مجلد 3، ص 535.

2. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 132.

3. نفسه، ص 135.

4. فانتن كوكّة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 66.

5. الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربيّة، ص 533.

دولة المرابطين، ففي هذا الرباط تأدّب عبد الله بن ياسين الجزولي بأدب أهل الرباط، وتلقّى مبادئ الزهد والنقشّ والورع والإخلاص لله والجهاد في سبيل الدين¹. ثم سرعان ما حوّل المرابطون الرباطات إلى زوايا لتكون أماكن للعبادة وتعزز دور الرباطات مرة أخرى في القرن السابع الهجري في المغرب الأقصى في عهد دولة بني مرين كمؤسسات تعليميّة حين ظهر تيار صوفي قوي على يدّ شبان الأرياف المغربيّة.

2 - الزوايا: تعدّ الزوايا هي الأخرى من المؤسسات التعليميّة والدينيّة، وهي كثيرة جدا، وهي إمّا مستقلّة أو ملحقة بمسجد أو ضريح، وهي في الغالب تكون منزلا أو رباطا لرجل دين عالم يتّخذ دارا للعلم ومقصدا للطلاب يلتقي بهم فيه ثم يتحوّل بعد وفاته إلى مزار يقصده مريدوه للمحافظة على مكانته العلميّة. وقد اهتمّ الأمراء والسلّاطين ورجال الدولة الكبار في مختلف العصور بالزوايا وأولوها مكانة مرموقة باعتبارها مركزا علميا ودينيا، والذين كانوا غالبا ما ينخرطون في زاوية معيّنة ويناصرون صاحب الزاوية في طريقته وأفكاره وتوجّهاته.

وكانت أشهر الزوايا الدينيّة الزاوية الإدريسيّة بمدينة فاس التي أسسها إدريس بن عبد الله زعيم الأدارسة في القرن الثاني للتعليم والتثقيف ونشر المذهب الشيعي، والزاوية الجيلانيّة أو القادريّة نسبة إلى عبد القادر الجيلاني والتي انتشرت انتشارا واسعا خصوصا في الهند وإفريقية السوداء خصوصا في السنغال والنيجر، وقد أدّت دورا مهمّا في نشر الإسلام في هذه المناطق وتثقيفها بمختلف العلوم الدينيّة حتى صار لها أتباع في جميع أنحاء العالم .

3 - الكتاتيب: تعتبر الكتاتيب نوعا آخر من المؤسسات التعليميّة الدينيّة في كلّ المغرب والأندلس، وقد أولى لها الأمراء عناية فائقة، واعتبروها المرحلة التعليميّة الأولى للتعليم الأكاديمي للطلاب الصغار، واشتقّ اسمها من التكتيب أو تعليم الكتابة، فهي إذن أوّل مرحلة تعليميّة تقارب مرحلة الابتدائي في عصرنا هذا، ويطلق عليها أيضا اسم المسيد أو المحضرة وتستقبل الطلاب الصغار في مكان خاص في المسجد، أو يبنى لها مبنى خاص مستقلّ. ومنهاج

¹ . حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 136.

التعليم في الكتاتيب يختلف من إقليم إلى آخر، فالمغرب الأوسط يعتمد على تحفيظ الصبغة القرآن الكريم وتجويده، ومبادئ الإسلام وفروض الدين من صلاة وصوم وعبادات، والأحاديث الدينيّة، وبعض عبارات اللغة العربيّة للتخاطب بها، وبعض قواعد النحويّة البسيطة، ومع مرور الزمان أخذت المعارف فيها تتسع فشملت سيرة رسول الله والخلفاء الراشدين ومبادئ الحساب وبعض العمليات الرياضيّة. وقد انتشرت الكتاتيب انتشارا واسعا وسريعا في معظم إقليم المغرب الأوسط لأنّها المرحلة التحضيريّة الأولى للتعليم المتخصص وصارت تعدّ بالعشرات في مدن المغرب الأوسط كقسنطينة وبونة وتيهرت وتلمسان ومدن الميزاب¹. أمّا الكتاتيب في المغرب الأقصى فلا تعنى إلاّ بتحفيظ الصبغة القرآن الكريم ورسم بعض آياته فحسب، ولا يخالطون ذلك بتعليم شيء من حديث أو فقه أو شعر أو حساب، ويختتمه الصبي في سبع سنوات، والنساء هنّ المكلفات بالتعليم في الكتاتيب في المغرب الأقصى إلى سنّ الثالثة عشرة². بخلاف أهل إفريقية أي المغرب الأدنى فإنّهم يخالطون في تعليمهم الناشئة القرآن بالحديث الشريف في الغالب، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. وتنتهي المرحلة الأولى من التعليم في الكتاتيب بختم الصبي القرآن الكريم، ويقام لذلك احتفال كبير، لينتقل بعدها إلى المرحلة الثانيّة من طور التعليم والتي هي حلقات المساجد.

4. - المساجد: تعدّ المساجد من المؤسسات التعليميّة المهمّة في مختلف الحواضر

الإسلاميّة شرقا وغربا، وهي المرحلة الثانيّة في مدن المغرب والأندلس بعد حلقات الكتاتيب، فما إنّ تنتهي الناشئة من حفظ القرآن الكريم وبعض متون الحديث النبوي الشريف وبعض مبادئ العربيّة والعلوم في الكتاتيب تنتقل إلى المرحلة المواليّة وهي دروس المساجد لملاقة العلماء وتلقّي المحاضرات الأكثر عمقا في مختلف العلوم النقليّة والعقليّة. ويتصدّرها علوم تفسير القرآن والحديث النبوي وعلوم العربيّة وفي مقدّمتها "النحو". فكان من أشهر المساجد الجوامع جامع

¹. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 78.

². نفسه، ص 330.

القيروان الذي بناه عقبة، وجامع الزيتونة بالمغرب الأدنى، وجامع القرويين بفاس، والجامع الكبير ببجاية، وجامع قرطبة بالأندلس. وقيل إنّ الجامع الأزهر بالقاهرة كان يضم أعدادا كبيرة من الطلاب المغاربة الذين تخرجوا فيه وتلقوا فيه معظم العلوم، وكان لهذا الجامع مكانة مرموقة في المغرب. وتعزز دور المساجد كمؤسسات تعليمية ومعاهد ثقافية في عصري المرابطين والموحدين لكون الدولتين قد قامتتا على أسس دينية، وهي تجديد الدعوة إلى الإسلام وتطهير الإمارات الضالة من الكفر والردة.

والمنهج التعليمي فيها في كلّ من المغرب والأندلس في عصر المرابطين مصبوغ بصبغة دينية إلى حدّ كبير، وذلك نتيجة تقريب ولّاة الأمر والحكماء الفقهاء وأئمة المذهب المالكي إلى بلاطاتهم، وسيطرة هؤلاء على معظم شؤون الدولة بما فيها قطاع التعليم. فكان المذهب المالكي وكتبه محور الدراسة في مختلف الأطوار مع علوم أخرى، وبالمقابل استبعدوا بإلحاح كتب الفلسفة وعلم الكلام، وقد وصل الأمر بالمرابطين في القرن الخامس إلى إحراق كتاب الإمام الغزالي (إحياء علوم الدين) وتوعدّهم الشديد بسفك الدماء في من يحتفظ به. ففي القرن الخامس كان مناهج التعليم في المساجد يتركز أساسا على المذهب المالكي إلى جانب علوم دينية أخرى من تفسير وحديث وقرآيات، ففي التفسير كان تفسير الطبري المعروف بـ(جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر الطبري تـ310هـ مشهورا بين المغاربة، وفي الحديث (موطأ) الإمام مالك بن أنس تـ179هـ و(صحيح مسلم) للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج تـ261هـ وشرح أبي الفضل عياض اليحصبي تـ544هـ صاحب (الشفاء) و(المدارس في تراجم أصحاب مالك). أمّا في الفقه والأصول فكتب المذهب المالكي وكتب أبي الوليد الباجي تـ474هـ كـ(إحكام الفصول) و(التعديل والتجريح). أمّا في اللغة والنحو فالمعول به على (كتاب سيبويه) تـ185هـ و(الإيضاح) لأبي علي الفارسي تـ377هـ، وفي اللغة فالمعتمد فيها (المخصص) و(المحكم والمحيط الأعظم) لأبي الحسن بن سيده تـ458هـ، وغيرها من المؤلفات اللغوية الكثيرة¹.

¹. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط 1. مصر: 1980، مكتبة الخانجي، ص 501.

ومن كتب النحو التي أكتب عليها المغاربة إلى جانب كتاب سيبويه، كتاب (الجمال) لأبي إسحاق الزجاجي ت339هـ، فله حظوة عند المغاربة تداني كتاب سيبويه عند المشاركة، فتصدى الكثير لشرحه وشرح شواهد. وكانوا يقرأون بعض كتب الشعر والنثر لغرس السليقة العربية في نفوسهم "ومما كان يحفظ في المساجد آنذاك قصائد الحكمة كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وصالح بن عبد القدوس وغيرهم"¹. وفي جامع الزيتونة آنذاك كان منهاج التعليم يعتمد أساسا على العلوم الدينية كالتفسير والحديث والتوثيق والفرائض والعلوم الدينية والأدبية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والنقد الأدبي اعتمادا على (العمدة في صناعة الشعر ونقده) لابن رشيق القيرواني ت463هـ، و(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لأبي الحسن حازم القرطاجني ت684هـ، وفي وقت متأخر أضيف إليها العلوم العقلية كالمنطق². وقد ركّز الأمراء المرابطون اهتمامهم إلى جانب العلوم الدينية على تعليم اللغة العربية وعلومها خصوصا نحوها، وكان الدافع إلى ذلك اللسان البربري ولهجاته المختلفة الطاغية في مختلف الأمصار المغربية، فقد أدركوا أهمية إتقان العربية التي غدت لغة الدولة الرسمية، لذا قدّموا لأنفسهم وللرعية العلوم والمعارف اللغوية على أيدي معلّمين متخصصين. واعتبرت مساجدهم مراكز الإشعاع الفكري والعلمي، ومناهل يروي منها الظمان العلم والمعرفة، و شهدت عاصمتهم السياسية مراكز اهتماما بالغا بإنشاء المساجد والاعتناء بها "فحين شرع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في بناء العاصمة بدأ في بناء مسجدها الكبير الذي أصبح مركزا للدراسة العلمية وسمي بيوسف بن تاشفين، ولما تولى ابنه أمير المسلمين علي اهتمّ بالزيادة فيه فبنا مئذنته، وقد كلفه ذلك سبعين ألف دينار"³. وقد بلغ الأمر من شدة اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء المساجد أن أمر سكان كلّ شارع بمدينة فاس ببناء مسجد حتى لا يتعرّضوا للعقاب، وذلك عام

¹. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 61.

². نفسه، ص 44.

³. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 396.

463هـ¹. واشتهرت مدينة فاس بمسجدها العظيم جامع القرويين الذي أصبح جامعة علمية عظيمة، وبمدينة سبتة بنا يوسف بن تاشفين المسجد الكبير. وأسس ابنه علي الجامعة اليوسفية أو جامع علي بن يوسف بن تاشفين عام 514هـ، والتي كانت في الأصل جامع لتدريس علوم الدين، فأحضر إليها علماء وأدباء ومفكرين أندلسيين للتدريس فيها والاستفادة من علومهم ومعارفهم، ولمجارة الأندلس في تقدّمها الفكري، حتى صارت مركزاً مهماً للدراسات العلمية والأدبية في المغرب². وقد سار علي على خط أبيه من استقدام رجال الفكر والعلم من الأندلس إلى مدن المغرب لتسيير شؤون دولتهم، وذلك حين اطلع أبوه يوسف على الحضارة الفكرية بالأندلس حين استنجدت به الأندلس ضد عدوها ملك قشتالة، فصار المغرب والأندلس في عهدهم إقليماً واحداً يتبادلان المنافع والمزايا، "فالمغرب يبذل حمايته للأندلس ويدافع عنها والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب فرجالها في خدمة الدولة وكتّابها وشعراؤها يزيّنون بلاط مراكش، وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدّم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب، وأصبحت مراكش حاضرة المغرب يؤمّذ وكرسي مملكته، مهوى أفئدة المثقفين ومطمع أنظارهم"³. وبفاس اشتهر جامع القرويين الذي بناه سكان القيروان حين هاجروا إلى فاس، وحين ضاق بالمصلّين التجأ الفقهاء والعلماء إلى أمير المسلمين علي مطالبين بتوسيعته فأمر بالزيادة فيه، وذلك عام 538هـ⁴. وقد حرص أمير المسلمين على تطبيق النظام في هذا الجامع، فأمر القاضي عبد الحق بن معيشة بتتصيب معلّمين علماء في الفقه واللغة والنحو والعلوم المتنوّعة، والإشراف على الطلبة، وإخضاعهم للامتحان من أجل تخريج المتفوّقين منهم ومنحهم

1. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 397.

2. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 31.

3. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 71.

4. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 396.

الإجازة¹. ومن المساجد الكبرى التي كان يقصدها طلاب العلم بفاس مسجد ابن حنين نسبة إلى أحمد بن بكر الكتاني القرطبي المعروف بابن حنين الذي كان يقرئ به، ومسجد الحوراء الذي تصدر للإقراء به أبو بكر محمد بن عبد الله بن مغاور اللخمي الإشبيلي، ومسجد طريانة الذي نزل به المهدي بن تومرت طول إقامته بفاس في السنين الأولى لدعوته، وجامع فاس الذي كان فيه الشيخ أبو مدين يلقي دروسه². إضافة إلى مساجد أخرى عظيمة في كل من بجاية وتلمسان ومكناسة وطنجة وسجلماسة، حفلت بالنشاط العلمي واحتضنت كبار العلماء المدرّسين وعجّت بالطلاب. وقد اتّسعت دائرة العلوم والمعارف في المساجد حتى صار يدرّس فيها العلوم التجريبية في أقسام المستويات العليا، وكانت المساجد لا تسعها، ففكّر المربطون في بناء معاهد دراسية جديدة، فتولدت المدارس لتلقّي العلوم مستقلة عن المساجد وقد كانت من مظاهر التقدّم العلمي آنذاك، "بنّوا المدارس التي كانت تتخذ لإيواء الطلبة وتدريس بعض العلوم التي لا يحتويها المسجد من إجراء التجارب واستعمال الآلات، إذ بدأ في هذا العصر بناء المدارس كمدرسة الصابرين بفاس من بناء يوسف بن تاشفين، والغريب أن يتوافق المغرب والمشرق في وقت إنشاء المدارس لأنّ هذا التاريخ هو الذي أنشأ فيه الوزير نظام الملك مدرسته العلمية ببغداد وهي أول مدرسة في المشرق كذلك"³. أمّا الموحّدون في القرن السادس فقد أسسوا أكبر مملكة شهدها الإسلام، تمتدّ من المحيط الأطلنطي إلى قرب حدود مصر هذا عن طولها، أمّا عرضها فكان في ما بين الصحراء الكبرى وجبال الشارات بالأندلس. وحاولوا الاستيلاء على مصر وأسسوا بها جمعية لهذه الغاية أي نشر دعوتهم الموحديّة، وكانت غايتهم إنشاء خلافة إسلامية عامة تضمّ تحت لوائها العالم الإسلامي بكامل حدوده، وكان أسطولهم أكبر أسطول آنذاك بشهادة طلب صلاح الدين الأيوبي وملك الإسبان له، وكان جيشهم في واقعة العقاب أكبر جيش شهدته المغرب

¹. فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 68.

². نفسه، ص 33.

³. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 75.

الإسلامي¹. وكان يعقوب المنصور يريد أن يجعل من الأندلس دار إسلام، وأكبر شهادة على عظيم اهتمامهم بالإسلام شهادة الرحالة الأندلسي ابن جبير ت614هـ الذي ساح في كثير من ممالك العالم الإسلامي، والذي قال: "وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنّه لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب، لأنّهم على جادة واضحة... كما أنّه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلاّ عند الموحّدين"². وطبعوا دولتهم بطابع ثلاثي هو: العظمة، الدين، التجديد وكان فضلهم على العلوم والعلماء كبيراً، وشجّعوا المعارف حتى في أنفسهم فكان الكثير من خلفائهم فقهاء وعلماء، وازدهرت حركة التعليم في عصرهم أيّما ازدهار حتى أنشأوا مدارس للبحرّية وتخرج الموظّفين الإداريين، وأجبروا الشعب على التعليم بالمجان، ووضع المهدي كتباً في العقيدة باللغتين العربيّة والبربريّة، وأجبر الرعية على حفظها، وفرضت في كلّ مناهج التعليم، وروّجوا للعلوم التي كانت محظورة في عهد المرابطين كالفلسفة وعلم الكلام، وأعادوا الاعتبار لكتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي واستفادوا من توصيات الغزالي التربويّة في سنّ مناهجهم الدراسيّة. ونشروا المذهب الظاهري وضيقوا على المالكيّة خصوصاً عهد يعقوب المنصور، كما نشروا بعض أفكار الأشعريّة في العقائد، كما أنّهم كانوا يبطنون شيئاً من التشيع. وبدأ الأمراء الموحّدون ببناء المساجد مثلما جرت العادة في جميع أرجاء مملكتهم وجلب العلماء للتدريس بها وإعلاء شأنها، وكان من أشهرها جامع الكتبيين الذي بني عام 553هـ، ومسجد ضخم برباط الفتح قال عنه عبد الواحد المراكشي إنّهُ أكبر مسجد بالمغرب. وقد صرفت أموال طائلة للاعتناء بها وجعلها معاهد علم راقية، وإدخال التحسينات عليها... أمّا منهاجهم التعليمي في الكتاتيب لا يختلف عن كتاتيب المرابطين من تحفيظ القرآن الكريم والحديث النبوي وتعليم القراءة والكتابة وقواعد النحو وبعض أشعار العرب ودروس في الحساب بحسب المدن³. أمّا منهاجهم التعليمي في الجوامع كان قائماً على مبدأ مهمّ في العملية

¹. محمد المنوني، حضارة الموحّدين، ط 1. المغرب: 1989، دار توبقال للنشر، ص 12.

². ع / نفسه، ص 13.

³. فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 88.

التعليمية وهو التدرج بالمتعلم من الدرس البسيط إلى المعقد ومن السهل إلى الصعب مع مراعاة مستوياتهم الذهنية وهذا المبدأ من أحدث مبادئ الدراسات البيداغوجية في عصرنا هذا، ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو علي الشلوبين النحوي ت645هـ أنه دخل مراكش فوجد الشيخ الجزولي النحوي يدرس في مسجده علم العربية، فلما قعد إليه فإذا بين يديه حلقة من المبتدئين يقرئهم على قدر أفهامهم، فألقى عليه سؤال فأجابه بجواب متوسط على قدرهم، ثم ارتفعوا، فجاءت حلقة أخرى للنجباء الشادين فكان يلقي حينئذ الأسئلة، ثم يجيبهم بغاية التحقيق والتدقيق¹. ومن أسلوب تعليمهم أن التلاميذ أحرار في إلقاء الأسئلة على الأستاذ ويمنع التبسيط في الأسئلة والاكتفاء بما يقدم، كما أنهم أحرار في اختيار الأستاذ الذي يقرأون عليه، ومن أمثلة ذلك أن طلبه سبته تحولوا عن أستاذهم أبي علي الرندي إلى أبي علي بن عاشر الملقب بقريعات وزعموا أنه أبسط عبارة من الرندي وأسهل إلقاء². وجرت العادة ألا ينتصب للتدريس في جوامعهم الكبار إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين، وكان العلماء يتنازعون في هذه المراتب، وكان الخلفاء الموحدون يبالغون في اختيار العلماء المدرسين بامتحانهم واختبارهم قبل تسليمهم المناصب³. وفرض الخليفة عبد المؤمن بن علي التعليم الإجباري على كافة الرعية رجالا ونساء عبيدا وأحرارا. ويقوم هذا المنهاج على تعليم الضروري من العقائد والعبادات لكل من انضوى تحت راية الموحدين، وتسهيلا لذلك رخص لمن يفهم البربرية دون العربية أن يقرأ عقيدة ابن تومرت البربرية المسمّاة ب(التوحيد)، ومن يفهم العربية أن يقرأ عقيدته المسمّاة ب(المرشدة)، وكان تعلمها لازما وأكد على الجميع وجوب حفظها وتدبرها وملازمة قراءتها، كما أكد على العوام ومن في الديار حفظ أم القرآن وما تيسر من القرآن، وألزم نوابه بتقديم علماء أمناء ليعلموا الناس ذلك، وكتب إلى كل عملاء المملكة الموحدية أن تحتذي

¹. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط 2. الرباط: 1977، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص 25.

². نفسه، ص 27.

³. نفسه، ص 25.

بمراكش في هذا الأسلوب، ويلحق بكتابي المهدي في التعليم الإجمالي مجموع أحاديث الجهاد وكان الخلفاء الموحدون يملونها بأنفسهم ويجيء الناس بالوواح ليكتبوا إملاءها، ومجموع أحاديث الصلاة، وكان يعقوب المنصور يملئها بنفسه على الناس ويأمرهم بحفظها ثم يغدق العطايا والهدايا لمن حفظها واستظهرها. ومن علوم الدراسة في جوامعهم: التفسير والحديث والسيرة والفقه والتصوّف والنحو واللغة والقراءات والأدب والحساب. فمن كتب التفسير والحديث والسيرة: الكتب الخمسة: (صحيح البخاري) ت256هـ، (صحيح مسلم) ت261هـ، (سنن أبي داود) ت275هـ، (سنن الترمذي) ت297هـ، (سنن النسائي) ت303هـ، ومسنند (البزار الكبير) المعروف باسم (البحر الزخار) للحافظ أبي بكر البزار ت292هـ. (موطأ مالك)، و(موطأ ابن تومرت). أعز ما يطلب، أحاديث الجهاد التي أمر يعقوب المنصور بجمعها، (شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبويّة) للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ت454هـ، (السيرة النبويّة) لمحمد بن إسحاق ت151هـ بتهذيب عبد الملك بن هشام ت213هـ. ومن كتب الفقه وأصوله والتصوّف: الأحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة، أحاديث الصلاة التي أمر يعقوب بجمعها، (الأحكام الشرعيّة الصغرى الصحيحة) لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي ت581هـ، (النوادر والزيادات) لابن أبي زيد القيرواني، (الجامع لمسائل المدونة والمختلطة) لأبي بكر محمد بن يونس ت451هـ، (تهذيب مسائل المدونة) لخلف بن أبي القاسم محمد القيرواني البرازعي المتوفي في ق 4 هـ، (رسالة ابن أبي زيد القيرواني) في الفقه، (البرهان في أصول الفقه) لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله إمام الحرمين ت478هـ، (التلخيص مختصر التقريب والإرشاد) له، (المستصفى من علم الأصول) لأبي حامد الغزالي ت505هـ، (الإرشاد) لإمام الحرمين، عقيدة ابن تومرت بالعربيّة (المرشدة)، عقيدته بالبربريّة (التوحيد) (القواعد)، (الإمامة)، (الاثنان) لابن تومرت أيضاً، (العقيدة البرهانية والفصول الإيمانيّة) لأبي عمرو عثمان السلاحي ت594هـ، (شعب الإيمان) لعبد الجليل بن موسى القصري ت608هـ، (إحياء علوم الدين) للغزالي.

وفي النحو واللغة والقراءات والأدب: (كتاب سيبويه)، (الجمال) بشرحه لأبي بكر العبدري، (شرح أبيات الجمل)، (نكت على شرح الأعلام لشواهد كتاب سيبويه)، (الاثنتان) لابن هشام اللخمي السبتي 577هـ، (مقدمة الجزولي) المسمّاة بالقانون.

وفي السير (شرح أبي ذر مصعب الخشني 604هـ على غريب السير لابن إسحاق) و(المذهبة في الحلي والشيآت) وغيرها لابن أصبع الأزدي، (شرح أبي عمرو الغافقي على قصيدة أبي إسحاق علي الفهري الحصري 488هـ في القراءات)، (المنصف في رسم هجاء المصحف)، (رسالة القلم والدينار) لابن ماكولا 475هـ، (مقامات) القاسم بن علي بن محمد الحريري 516هـ، (مقصورة ابن دريد) 321هـ بشرح ابن هشام اللخمي السبتي، (صفوة الأدب ونخبة ديوان كلام العرب) المعروف بالحماسة المغربية لأحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي 609هـ. ومن كتب الحساب: (لب اللباب في مسائل الحساب) لأبي الحسن بن فرحون القيسي و(منظومة ابن الياسمين) في الجبر¹.

وأهم ما يميّز منهاجهم استبعاد كتب فروع المذهب المالكي، وبعض كتب الفلسفة، وقد بلغ الأمر ببيعقوب المنصور أن نفى جماعة من الفلاسفة منهم ابن رشد إلى مدينة قرطبة، كما أدرجوا كتب الغزالي شيخ ابن تومرت خصوصا (إحياء علوم الدين)، وقد تأثروا به في توصياته التربوية ومن أهمّها:

. إدماج الرياضة في مناهج التعليم، "فهذه المسألة أهملت في أوربا في القرون الوسطى وأحيائها الموحّدون تبعوا للغزالي الذي يقول: "ويعود الصبي في بعض النهار على المشي والحركة حتى لا يغلب عليه الكسل... وينبغي أن يؤدّن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإنّ منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم

¹. ينظر: محمد المنوني، حضارة الموحدين.

دائماً يميّز في قلبه ويبطل ذكاهه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً¹. وكان أن أدرجوا في مناهج تعليمهم بعض التدريبات العسكريّة والتمارين في فنون الحرب. . مزج الأدب بالعطاء، يقول الغزالي: "مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرّم عليه ويجازي عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرّة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، فإن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب سرّاً ويعظّم الأمر فيه... ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كلّ حين، فإنّه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه".

. التدرّج في عرض مسائل العلوم، والاقتصار بالمتعلّم على قدر فهمه². وكان من ابتكارات الموحّدين سنّ التعليم الإلجباري الذي لم يفكر فيه حتى بأوروبا إلّا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والتعليم بأكثر من لغة، والتعليم المجاني لكافة فئات المجتمع ذكورا وإناثا، أغنياء وفقراء، أحرار وعبيدا. وقد أولوا أهميّة عظيمة لبناء المساجد وإدخال التحسينات عليها لأداء وظيفتها التعليميّة، فما إن تقلّد عبد المؤمن بن علي الخلافة حتى شرع في بناء جامع كبير بمراكش عام 553هـ سمي بجامع الكتبيين نسبة إلى باعة الكتب بجانب هذا الجامع، وأمر حفيده المنصور الموحّدي عام 591هـ بإدخال التحسينات عليه فبنيت له مئذنة كبيرة، كما شرع ببناء مسجد كبير بالناحية الجديدة التي جعلها امتدادا لعاصمتهم مراكش عام 591هـ. وأصدر الخليفة عبد المؤمن قرارا ببناء المساجد في جميع المملكة الموحديّة، كما بنا ولده يوسف مسجدا ضخما بمدينة رباط الفتح كان أكبرها مسجدا. أمّا عن يعقوب المنصور فقد بنا مساجد في كلّ من المغرب الأدنى والأقصى والأندلس، كالمسجد الأعظم بمدينة سلا كان يضاهي جامع القرويين في الضخامة، وكان من معاهد العلم الكبيرة حتى احتيج إلى بناء مدرسة حوله لكثرة الوافدين عليه . إلى جانب جوامع كبيرة في كلّ إمارات المغرب والأندلس والتي لا تزال تؤدّي وظيفتها التعليميّة منذ أيام الفاتحين العرب كجامع الزيتونة بالقيروان الذي بناه عبيد الله بن الحبحاب عام 114هـ والذي

¹. محمد المنوني، حضارة الموحّدين، ص 32.

². نفسه، ص 32.

صار قبلة طلاب العلم والمعرفة طيلة القرون التي توالى على المغرب، حتى صار مؤسسة للتعليم الرسمي عام 449هـ، ونال مكانة علميّة مميّزة كمعهد علمي في المغرب الأدنى أيام أبي زكريا الأول الحفصي في القرن السابع، والذي جلب إليه كبار الأساتذة كابن عصفور الإشبيلي وحازم القرطاجني، كما أسس فيه مكتبة غنيّة بأصناف الكتب¹. وكذلك جامع القرويين بفاس الذي أسسته السيدة فاطمة أم البنين ابنة المهاجر الثري محمد بن عبد الله الفهري القيرواني عام 245هـ، والذي تحوّل إلى جامعة علميّة خلال القرون المتواليّة، فكان له مكانته العلميّة في عهد المرابطين، وظلّ كذلك منبع العلوم والفنون في عهد الموحّدين وكذلك في عهد المرينيين، والجامع الكبير بتلمسان الذي أسسه موسى بن نصير عام 89هـ، وقيل إنّهُ يضاهي جامع القيروان، وظلّ هذا الجامع يؤدّي عمله التثقيفي كمركز مهمّ من مراكز الثقافة العربيّة الإسلاميّة في المغرب الإسلامي خلال القرون المتواليّة.

وفي أوائل القرن السابع الهجري بدأ صرخ دولة الموحّدين العظيم بالانهيار إثر انهزام جيوشهم بالأندلس ضدّ النصارى الإسبان في موقعة العقاب سنة 609هـ، فانفصل عنها المغرب الأقصى وأسست به الدولة المرينيّة من عام 616هـ. واتّخذت فاس عاصمة لها، وانفصل المغرب الأدنى وأسست به الدولة الحفصيّة مع استيلائها على الجزء الشرقي للمغرب الأوسط (الجزائر) ابتداء من عام 625هـ واتّخذت تونس عاصمة لها، وبالمغرب الأوسط ظهرت دولة بني عبد الواد في أقصى الغرب واتّخذت تلمسان عاصمة لها من عام 633هـ، وبقي جزء صغير من الأندلس لدولة بني الأحمر بغرناطة عام 629هـ². وهذه الدويلات الصغيرة من بني مرين وبني عبد الواد (الزيانيين) وبني وطاس (فرع من بني مرين) يدخلون ضمن من يسمّيهم ابن خلدون بزناطة الطبقة الثانيّة، وهم طبقة مسلمة مستعربة تأثّرت تأثّرًا عميقًا بالغزوة الهلاليّة من حيث سكنى الخيام واتّخاذها الإبل وركوب الخيل، ومتأثّرة حسب ابن خلدون بعرب الجيل الرابع. واضطلعت المساجد

¹. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 44.

². محمد المنوني، ورايات عن حضارة المرينيين، ط 3. الرباط: 2000، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ص

في عهد الحفصيين بالمغرب الأدنى هي الأخرى بمهام تثقيفيّة إذ اعتبرت كمعاهد علم وثقافة مهمّة، وقد فتح السلاطين الحفصيون الأبواب للتعليم في المساجد في وجه عامة الناس، على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم، وشجّعوا التعليم وبالمجان فكانت مجانيّته تستقطب أعدادا كبيرة من الشبان المنحدرين من الأوساط الشعبيّة الريفية الفقيرة. وكانت المرحلة التعليميّة الأولى في العهد الحفصي تبدأ بالكتاتيب، كسابق العهود، يعلّم فيها الصبيان القراءة والكتابة وترتيل السور القرآنيّة وبعضا من سيرة النبي المصطفى، وبعضا من دروس اللغة المبسّطة والحساب، وكانت تبنى لها أبنية خاصة خارج المساجد، وقد أفتى العلماء الحفصيون بمنع تعليم الصبيان الصغار في المساجد بسبب سوء سلوكهم واحتراما لبيوت الله. وكانت طرائق وأساليب التعليم في الكتاتيب في إفريقية الحفصية مستمدّة من كتاب مهمّ في مبادئ التدريس وهو (آداب المعلّمين) لابن سحنون المدوّن في القرن الثالث الهجري، وهو تصنيف يتضمّن مسائل متعلّقة بالتربيّة مثل طريقة معاملة المتعلّمين وأجر المؤدّبين والهدايا المقدّمة إليهم حين يختم الصبي القرآن الكريم، وأيام العطل المخصصة لهم. وكانت تنصّ أيضا على معاقبة الصبي عقابا شديدا بالضرب مثلا إذا ارتكب خطأ كي لا يتكرر ذلك¹. وبعد الكتاب، يتلقّى الطلاب التعليم في المساجد أو الزوايا، وقيل إنّ لا يمكن الحديث عن نظام عام للتعليم وذلك بسبب المراقبة الشديدة التي كان يخضع لها التعليم في المساجد من قبل العلماء المالكيين والحكومة في آن واحد.

والمساجد بالمغرب الأوسط أيضا من معاهد العلم الراقية، كانت تدرّس فيها مختلف العلوم وصارت من معاهد العلم المقصودة من طلاب المعرفة من كلّ مكان، "ومع مرّ الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة في الجامع الأعظم أو الكبير في كل مدينة تدرّس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطبّ والفلسفة، وبذلك كان الجامع الأعظم في كلّ مدينة جزائريّة

¹ - روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15 م، تر: حمادي الساحلي، ط 1. بيروت: 1988، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ص 375 .

يعدّ جامعة كبرى لدراسة العلوم النقلية والعقلية¹. وكتاتيب مدن المغرب الأوسط من أغنى الكتاتيب من حيث المواد التي تدرّس قياسا بالمغرب الأقصى والمغرب الأدنى، إذ يعلّم الصبي مبادئ الحساب وقواعد النحو المبسّطة وعبارات اللغة العربية المتداولة في التخاطب اليومي وفروض الدين والمعاملات وبعضا من الأحاديث النبويّة إلى جانب تحفيظه القرآن الكريم وتجويده على خلاف المغرب الأقصى الذي لا يخالط فيه المعلّمون في تعليمهم الصبيّة القرآن الكريم بشيء.

وحظّ المساجد في العصر المريني في القرن السابع الهجري بالمغرب الأقصى قليلا إذ بنا المرينيون عددا ضئيلا من المساجد طيلة فترة حكمهم لأنّها قد نالت حظا كبيرا قبل أيامهم في عهد المرابطين والموحدين، لذا فقد أضافوا مسجدين فقط إلى المدينة القديمة فاس البالي وهما: مسجد الوراقين، ومسجد أبي الحسن في عدوة القرويين. أمّا في المدينة الجديدة فاس الجديدة فقد بنا الأمير يعقوب المريني الجامع الكبير عام 677هـ على مقربة من القصر الملكي، وقد كان مركزا مهمّا للمجالس العلميّة المرينية، ومسجدا آخر بني في الشارع الرئيسي وهو المعروف بالجامع الأحمر، ومسجدان آخران بنيا في القرن التاسع الهجري في فاس الجديدة وهما: مسجد لالا غريبة ومسجد الزهرة². وكان اهتمام المرينيين بجامع القرويين كبيرا إذ أدخلوا عليه تحسينات عمرانيّة كبيرة كالزخرفة الثمينة، وهذا الجامع مركز لنشر الكثير من العلوم كال تفسير والتجويد والقراءات والرسم والحديث الشريف وعلومه والفقه المالكي بسائر فروع وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوّف، وفي اللسانيات اللّغة والنحو والبيان والعروض والأدب إضافة إلى علوم العدد والفلك والهيئة والطب والمنطق والهندسة³.

1. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 79.

2. روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، تر: نقولا زياد، دط. لبنان: 1967، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، ص 45-55.

3. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 256.

5. المدارس: تعتبر المدارس المرحلة التعليميّة الثالثة في القرنين الخامس والسادس وما بعدهما، ينتقل الطالب من الجامع إليها ليتعمّق في دراسته، ويأخذ العلوم على اختصاصها على كبار العلماء والأئمّة. ولعلّ ما يميّز التعليم في هذه المرحلة ملازمة العلماء من جهة والرحلة من جهة أخرى إلى المشرق أو المدن المغاربيّة والأندلسيّة للاستفاضة في المعرفة والعلوم. وقيل عن المدارس في القرنين الخامس والسادس إنّها تعادل الجامعات في عصرنا هذا، كما أنّ كثيرا من المساجد المغاربيّة قد أدّت دور المدرسة في تلقين العلوم اللغويّة والعلميّة. وما يميّز المدارس عن الكتاتيب والمساجد هو تدريسها للفقّه على خلاف الكتاتيب والمساجد التي كان يغلب على منهاجها تدريس الحديث الشريف وعلومه، وكانت المساجد والمدارس تخضع للمناهج والأنظمة التي يقرّها الحكام على عكس الرباطات والزوايا التي كانت متحررة من قيود المناهج وتدخل الحكام في تسيير شؤونها، كما أنّ المدارس مؤسسات أنشئت لغرض التعليم على عكس الجوامع والزوايا التي كانت تجمع بين التعليم والعبادة.

1. مدارس المرابطين: يعود الفضل في تأسيس المدارس الحكوميّة النظاميّة بالمغرب الإسلامي إلى أمراء الدولة المرابطيّة الذين لهم فضل السبق في ذلك، وكانت المدارس آنذاك من مظاهر التقدّم العلمي، ونشأت الفكرة حين ضاقت المساجد بالطلبة فلم يعد من الممكن للمساجد من أداء الوظيفة الدينيّة من ممارسة الشعائر والوظيفة التعليميّة في آن واحد، ولاستحالة إجراء بعض التجارب في المساجد والتي كانت بعض العلوم تقتضيها كعلم الطبّ والصيدلة والنبات والفلك والكيمياء وما لها من حاجة إلى الآلات، إضافة إلى ظهور بعض العلوم الفلسفيّة التي كانت تستدعي الجدل والمناظرة في تدريسها وهو ممّا يتنافى مع دور المساجد كمحلّ للعبادة، لذا فكّروا في بناء المدارس لنقل الطلبة إلى مرحلة أكثر تخصصا وفكّروا أيضا في بناء أماكن ملحقة بالمدارس لإيواء الطلبة من أصليين وطارئین. فكانت مدرسة الصابرين التي أنشأها يوسف بن تاشفين عام 462هـ بفاس أوّل مدرسة في المغرب الإسلامي، والتي سمّيت في ما بعد (بمدرسة بومدين)، وقد ظلّت هذه المدرسة مركزا مهمّا لتثقيف الطلبة بمختلف العلوم طوال

حكم المرابطين، كما أنشأ ابنه علي بن يوسف الجامعة اليوسفية أو جامع علي بن يوسف بمراكش ليجاري بها مدارس الأندلس في تقدّمها الفكري، فجمع فيها كبار أعلام الدين والفقه واللغة والأدب وغيرها من العلوم ونقل إليها علماء أندلسيين، كما أنه أسهم في توسعة جامع القرويين حين ضاق بالطلاب. والجدير بالذكر أنّ الكثير من المساجد في عهد المرابطين أدّت دور المدرسة كجامع القرويين بفاس، وجامع تلمسان الذي أسسه موسى بن نصير عام 89هـ والذي ظلّ مركزاً مهماً للدراسات المتخصصة طوال القرون المتعاقبة عليه، إلى جانب مدارس مهمّة في عهدهم اشتهرت بتعليم الأجيال كمدارس طنجة وسبتة وتلمسان وبجاية وتيهرت وأغمات وسجلماصة، ومدارس الأندلس كقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها. وكان الحكام المرابطون يشرفون بأنفسهم على أماكن التعليم من مدارس ومساجد، فاستدعوا لذلك علماء ومفكرين من الأندلس لأداء مهمّة التدريس وسهروا على توفير الإمكانيات اللازمة لهم فمن هؤلاء العلماء الذين استدعوا للتدريس: محمد بن أغلب بن موسى المرسّي ت511هـ الذي كان عالماً في العربية، ومنهم محمد بن حكم بن باق السرقسطي ت538هـ الذي كان إماماً في علم اللغة أخذ عنه طلبة العلم الكثير من علوم اللغة¹. ومواد الدراسة في مدارس المرابطين متنوعة بين العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم العقلية، فقد سمح الأمراء المرابطون بتدريس جميع العلوم، مع تحفّظ كبير في تدريس علوم الفلسفة والجدل والكلام، فكانت من المصنّفات اللغوية والنحوية في مدارسهم: كتاب سيبويه وشروحه، وكتاب الجمل للزجاجي، ومن المصنّفات الأدبية أشعار وقصائد الجاهليين والإسلاميين.

2 - **مدارس الموحّدين:** أسهم الموحّدون في القرن السادس إسهاماً واضحاً في إنشاء المدارس الحكومية في مدن كثيرة كسبتة وطنجة وفاس ومراكش وجلب العلماء إليها للتدريس حتى صارت مدارسهم تسابق مدارس قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وازدهرت في مدنها علوم متنوعة حتى قيل عن فاس في عهدهم اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، وكذلك شأن مراكش حتى لقّبت

¹. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 70.

بـ(بغداد المغرب). وارتبط أسماء خلفاء الموحدين ببناء عدّة مدارس لتخريج طلبة العلم كمدارس عبد المؤمن بمراكش وغيرها، ومدارس أخرى أسسها لتخريج أصناف أخرى من الطلبة كالمدرسة العامة لتخريج الموظفين الإداريين بمراكش، ومدرسة تعليم فنّ الملاحة بالرباط. كما اقترن اسم حفيده يعقوب المنصور ببناء عدّة مدارس لا في المغرب فحسب بل حتى في إفريقية والأندلس، وكذلك بنا الخليفة الناصر الموحدي عشرين مدرسة في مختلف المدن¹. واعتبرت المدارس في عهد الموحدين من معاهد العلم الضخمة المقصودة من قبل طلبة العلم من مختلف الأمصار وهي من مظاهر التقدّم العلمي حتى صارت تقليدا متبعا من عامة الشعب الأغنياء كالشيخ أبي الحسن الشاري الغافقي السبتي ت649هـ الذي بنا مدرسة بسبته أرادها أن تكون على نسق المدارس ببلاد المشرق². ويلحق بمدارس الموحدين مؤسسة علمية مهمة تسمّى بـ(بيت الطلبة) كانت معهدا للمناظرة وامتحان الطلبة الوافدين على مراكش، ومن ذلك أنّ ابن عات قد امتحن فيه في كتاب مسلم، وهو صرح علمي ضخّم يذكّرنا ببيت الحكمة الذي كان على عهد المأمون، وعلى رأس طلبته علماء راسخون أمثال المحدث ابن القطان والقاضي ابن المالقي، إذ حرص الخلفاء الموحّدون على توليّة العلماء الراسخين الوظائف فيه، وهو مدرسة لتعليم علوم الحديث، وإن لم يكن هذا البيت مدرسة للحديث كالتّي أنشأها نور الدين محمد زنكي في دمشق، فهو في أقلّ تقدير مجمع علمي تفرّدت به مراكش الموحديّة على سائر عواصم المغرب وإفريقيّة والأندلس³. و يطلق الخلفاء على العلماء الذين تسند إليهم مهام التدريس بـ(الطلبة)، وهما صنفان: طلبة المصامدة (وهم علماؤهم)، وطلبة الحضر (وهم الطارئون). وكانوا يعهدون مدارسهم إلى العلماء لتنظيمها ومن أمثال ذلك أنّ الخليفة عبد المؤمن استدعى ابن رشد الثاني الحفيد ليستعين به على تنظيم مدارس مراكش، وأنّ المنصور الموحدي سلّم مدرسة بناها للإمام أبي العباس

¹. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 20.

². عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 138.

³. نفسه، ص 138.

السبتي¹. وحرصوا على نشر العلم باتّباع سياسة فرض التعليم الإجباري وبالمجان، فكان من مبادئ دولتهم أن يكون كلّ من انضوى تحت رايتهم فردا متعلّما، منفتحاً على الثقافة ومسلماً ملتزماً، فذلّلوا صعوبات كثيرة كانت تعوق الفقراء فأجروا عليهم مرتبات وخصصوا لهم أماكن للمبيت وحسّنوا معاهد العلم وجلبوا مدرّسين علماء من مختلف المدن وفي طليعتها الأندلس منهم: محمد بن عبد العزيز المعافري تـ601هـ محدّثاً وفقهياً تصدر للإقراء بإشبيلية وقرطبة ثم نقله المنصور إلى حاضرتة، وأبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي المالقي، وجلبوا حتى النساء المعلّّات من الأندلس كالأساتذة الأدبية والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية التي استدعاها المنصور لتعليم نساء قصره². وكان الخلفاء الموحدون يشرفون بأنفسهم على أنظمة التعليم ومناهجه، ومن أمثلة ذلك أنّ الخليفة عبد المؤمن سنّ بنفسه منهاج المدرسة العامة لتخريج الموظفين الإداريين. ومدارسهم تدرّس كلّها موطأ المهدي بن تومرت الذي سمّي بأعزّ ما يطلب، وفهم مبادئ ابن تومرت وحفظ مؤلّفاته، إلى جانب علوم أخرى متخصصة، كما أنّ مدارسهم لا تخلو من تدريبات بدنية كالسباحة والركوب على الخيل والرمي بالسهم والقوس... ولم يكتف الخلفاء الموحدون بتشجيع التعليم في الشعب فحسب بل شجّعوا المعارف حتى في أنفسهم، وأسس لذلك عبد المؤمن مدرسة ملكية بالقصر لتعليم أمرائهم، وجلب إليها خيرة العلماء، وامتازت بمبالغتهم في اختيار طلبتها (أساتذتها)، وممن استدعي إليها: أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التدميري تـ555هـ وأبو العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي المتوفي بعد 560هـ استأديهما عبد المؤمن لبنيه، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد اللخمي الإشبيلي المعروف بابن علوش تـ599هـ، وأبو محمد بن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي البُلنسي استأديهما المنصور لبنيه³. وأظهر الخلفاء احتراماً وتقديراً كبيراً للعلماء المدرّسين بمدارسهم ومساجدهم؛ إذ وضعوا قواعد أخلاقية على طلبة العلم وجوب اتّباعها في احترامهم والاقتداء بهم

¹. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 21.

². فانتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 92.

³. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على حضارة الموحدين، ص 24.

وقد تحدث عنها ابن حزم القرطبي في كتابه (الأخلاق والسير)¹. ومن الأسباب لازدهار المعارف بالمغرب عصر الموحدين تدفق المال على القوم تدفقا كبيرا إذ كان الخلفاء يتحرون البيوتات والفقراء ويوزعون عليهم الإعانات والصدقات حتى من غير مناسبة. وجعلوا المرتبات للأطباء والمهندسين والجنود والكتاب والأدباء والشعراء وغيرهم من المثقفين تشجيعا فيهم على البحث العلمي، إضافة إلى انخفاض أسعار المأكّل في مراكش وغيرها من المدن². وكتب الدراسة في مدارسهم متنوّعة بين كتب المشاركة وكتب المغاربة، تنصدها في كلّ المستويات مؤلّفات زعيمهم الروحي ابن تومرت كالموطأ الذي ألفه بحذف الإسناد والفروع من موطأ مالك - وسمّوه بأعزّ ما يطلب - وكانت آراؤه تبطن شيئا من التشيع والأشعرية والظاهرية، وقد ظهرت علنا أيام حفيده يعقوب المنصور حين حمل الناس على المذهب الظاهري وحرّق كتب المذهب المالكي علنا. وأيضا من كتبهم الأحاديث التي جمعوها في الطهارة والصلاة، وكانت كتب التفسير والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب والقراءات والحساب كثيرة ومتنوّعة، إضافة إلى العلوم العقلية التي كانت تدرّس بمدارسهم. وكانوا ينشئون الطلبة الحفاظ على حفظ أكبر عدد من الكتب، وكانت كفاءة طلبتهم في ذلك، كما أنّ الكثير من العلوم والكتب التي كانت محظورة في عهد المرابطين رُوج لها في عصرهم وأدرجت في مناهجهم التعليمية كعلوم الفلسفة والمنطق والكلام وكتب الإمام الغزالي. وكانت من كتب النحو: مقدّمة الجزولي المسمّاة بالقانون، الجمل للزجاجي وشرحه لأبي بكر العبدري، شرح أبيات الجمل، كتاب سيبويه، نكت على شرح الأعلام لشواهد كتاب سيبويه، ألفية ابن مالك، الاثنان لابن هشام اللخمي السبتي، المذهبة في الحلي والشيآت لابن أصبغ الأزدي وغيرها. ولم تكن مناهجهم التعليمية في المدارس على خلاف مناهج الجوامع فقد كانوا يتدرّجون بالطلبة الحفاظ بمدارج التنقيف، فقد راعوا مبدأ السنّ والمستوى، لذا كانت كتبهم من الأسهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المعقّد، وكانت آراء الغزالي التربويّة من مبادئ أنظمتهم خصوصا في إدماج الرياضة البدنية في الأقسام كي لا يغلب على طلبتهم الكسل.

¹. فانتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 99.

². محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على حضارة الموحدين، ص 18.

وفي مبدأ التدرج في إلقاء العلوم والاقتصار على قدر أفهام المتعلمين، فلا يلقي عليهم ما لا يبلغه عقلهم فينفرهم أو يخطبهم. وفي مزج التعليم بالعطاء إذ لابدّ للطالب أن يكافأ كي يثابر. وقد حرصت الأسر المغاربية في عواصم المغرب والأندلس أشدّ الحرص على إرسال أبنائها إلى الكتاتيب والمساجد والمدارس منذ وقت مبكر، وكانت تتشاطر فيما بينها في مستوى ثقافتها، وكان الآباء يحرصون على اصطحاب أبنائهم إلى حلقات العلماء، وملازمة الشيوخ، وبامتحانهم كلّ مرة للتأكد من حفظهم وفهمهم. وكانوا حريصين على تعليم أبنائهم كل فنون المعرفة مثلما أراده الخلفاء الموحدون في رعيّتهم أن يكونوا مواطنين مسلّحين بالعلم والثقافة، كما أنّهم كانوا حريصين على تعليمهم قواعد النحو العربي لأنها الأساس المتين للتمكّن اللغوي فأقبلوا على تعلّم النحو البصري والنحو الكوفي وبعض آراء الأندلسيين. وكان من اهتمام المغاربة والأندلسيين بتعلّم اللغة والنحو أن اجتهدوا في تطوير الدراسات المتعلقة بهما على امتداد قرون طويلة.

3 - مدارس الحفصيين: اكتسبت المدارس الحفصية في المغرب الأدنى في العاصمة تونس وغيرها من المدن كغناة وقسنطينة وطرابلس في القرن السابع الهجري أهمية علمية ومعمارية عظيمة إلى حدّ كبير، وكان أعظمها قد تأسس بعناية السلطان نفسه أو بعض كبار رجال الدولة لذا كان تعيين المدرسين بها يتمّ من قبل السلطة العليا للبلاد بعناية فائقة بعد اختبارهم، وهو أسلوب يشبه طريقة الموحدّين المتشدّدين في اختيار المدرّسين العلماء للتعليم.

وكان فضل الحفصيين في تونس في تأسيس المدارس الحكومية النظامية كبيرا، واشتهروا بإغداق الأموال الطائلة في بنائها وزخرفتها لجلب الأنظار إليها، فبنوا ثمان مدارس حكومية لنشر مذهبهم الموحدّي ولضمان قاعدة إيديولوجية لهم، ولنشر أيضا مبادئ العقيدة الإسلامية وتعليم كافة علوم اللغة العربية والعلوم العقلية لطلبة إفريقية ومختلف الأمصار. فكانت أول مدرسة بنوها هي المدرسة الشماعية التي أمر ببنائها السلطان أبو زكريا يحيى الأول عام 673هـ نسبة إلى سوق الشمع، وكان العلامة عبد الرحمان بن خلدون تـ808هـ من أشهر خريجيها، والمدرسة العصفورية

التي تنسب إلى النحوي ابن عصفور الإشبيلي ت669هـ الذي كان خريجها، والمدرسة التوفيقية التي أمرت ببنائها زوجة السلطان أبي زكريا يحيى الأول أم المستنصر، والمدرسة العنقية التي أسستها الأميرة فاطمة بنت السلطان أبي زكريا عام 734هـ وغيرها. وكانت المدرسة المعرضية التي تأسست حوالي عام 682هـ من أفخم مدارس تونس، كان السلطان أبو زكريا يسعى بثنّي الوسائل لجلب الطلاب والمعلّمين إليها لذلك قيل "إنّه كان يوزّع على جميع الحاضرين قرطاسين بذهب وفضة، وأجرى على المعلّمين رزقا كبيرا قدره عشرة دنانير في الشهر، وكان يحضر مجلس الوعظ يومي الاثنين والجمعة، ويطلق العنبر والعود ما دام المجلس، وقد جعل بين دار سكناه وبين المدرسة طاقة يسمع منها ما يقرأ"¹. وعطل المدارس الحفصية في القرن السابع لا تتجاوز رسمياً أيام الأعياد الدينيّة ويومي الخميس والجمعة وفترة الصيف، لذا فإنّ فترة الدراسة فيها خمس سنوات، وهو أقصر من مدة الدراسة في مدارس المرينيين بالمغرب الأقصى، وهو ما أشاد به ابن خلدون في تفوّق التعليم الحفصي من حيث اختصار سنوات الدراسة، ويتخرّج الطالب من المدرسة برخصة كتابيّة من قبل شيخه تسمح له بتدريس كتاب معيّن أو جميع المواد التي درسها وهي (الإجازة) التي تؤهّله لمراتب العلماء. وقد اعتبر الحفصيون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين إذ كان جدّهم الأوّل أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني ت571هـ من أقدم أصحاب المهدي بن تومرت الحميين، قاد معه حملات عسكرية كبيرة ضد المرابطين، فاحتلت عائلته وأفراد قبيلته مكانة طيبة في نفوس الموحدين في عهد عبد المؤمن الذي سلّم لهم حكم تونس وبجاية وقسنطينة وغيرها من المدن. لذا فقد تعصّب الحفصيون للمذهب الموحي القائل بالاحترام الشديد للوحدة الإلهيّة، والمقاومة المتعصّبة للكفار، والاعتقاد بعصمة الإمام المهدي، ورفض جميع الأعمال المتعلّقة بالفروع في المذاهب الفقهيّة منها مذهب مالك، وهاتان النقطتان يتعارض فيهما المذهب الموحي بالمذهب المالكي. لذا كانت المدارس الحفصية التي شيّدها في العاصمة تونس أبو زكريا يحيى الأوّل مجدد مذهب المهدي في قمة الازدهار العلمي مثلما كانت عليه أيام

¹. روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 377.

الموحدين، ومخصصة في الغالب في تدريس علوم الحديث الشريف المحبب إلى قلوب الخلفاء الموحدين، ومن أجل ذلك فإنه لم يكلف من علماء الحديث للتدريس في جميع مدارس العاصمة تونس إلا عالمين أندلسيين من علماء الحديث مثلما كان يعقوب المنصور لا يعهد تدريس علوم الحديث إلا للأندلسيين وهما: الحافظ بن سيد الناس اليعمري في المدرسة التوفيقية، والمؤرخ أحمد بن محمد القرشي في المدرسة المعرضية، وكلاهما قد درسا بالمشرق وبجاية¹. ولمدرسي مدارس الحفصيين دور فعال في تنشيط الحركة العلمية وازدهار البحث العلمي، وبرز منهم أعلام كبار نهل منهم طلاب المعرفة الكثير من المعارف كالإمام المالكي العالم أبي عبد الله محمد بن عرفة الورغمي ت803هـ الذي كان يتمتع بنفوذ شخصي ثقيل لدى العلماء والسلطين لغزارة علمه، وهو من المدرسين العلماء المشهورين الذي كان يطالب المدرسين والشيوخ بالتجديد في التدريس كالقاء المعلم للأسئلة على الطلاب ثم مناقشتها معهم وعدم الاقتصار على ترديد النتائج السابقة دون تصرف، وكان يرى وجوب تقدم الدراسات إلى الأمام بتعميق النظريات التي يتلقاها الدارس بتسليط الضوء على النقاط الغامضة وإثارة الإشكالات الجديدة من قبل المدرسين². وبرز من المدرسين في تونس عالم فذ من المغرب يدعى عبد العزيز بن موسى العبدوسي ت837هـ، امتاز بطريقة فريدة في التدريس أثارت إعجاب واهتمام الدارسين الذين كانوا يتسارعون لحضور دروسه، فكان حين يشرح مدونة سحنون كان يستشهد كل مرة بآراء المالكيين التابعين لجميع الأقطار عصرا عصرا، وذكر المختصين العلماء في المذهب المالكي كل باسمه، ودروسه علمية رفيعة موجهة إلى الطلاب الكبار المتخصصين. ومن جهة أخرى كان يجلب عامة الناس والطلاب الصغار إلى جامع القصر أو غيره من الأماكن ويلقي عليهم دروسا في متناولهم، فبدأ دروسه ببعض الأدعية المعروفة، ثم يفسر ببساطة آية من الآيات القرآنية ويتخلص بعدها إلى الأحاديث النبوية المتعلقة بها، وقيل إنه بإمكانه الاستشهاد دون انقطاع بعدد كبير من الأحاديث النبوية قد تصل مائتين، ثم جميع الروايات القديمة المتعلقة بتفسير الآية وبتواريخها

¹ . روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 301.

² . نفسه، ج 2، ص 379.

المضبوطة قبل أن يرجع إلى تفسير الآية المعنيّة بالأمر. وكانت معارفه في اللغة والنحو عظيمة، وقيل إنّه أراد يوما أن يستظهرها فجلب كتابا في النحو وسلك مع النحاة نفس الطريقة التي سلكها مع الفقهاء، واستعرض جميع الآراء النحويّة والآراء الفقهيّة عبر العصور، مدرسة مدرسة، نحويا نحويا، وفتيها فتيتها حتى دوّخ الجمهور¹. ومن المدرّسين المشهورين أيضا والذين أسسوا للتعليم صرخا عظيما الشيخ عبد الله الشبيني الذي جعل من بيته مدرسة، فحين يعود من صلاة الصبح في مسجد دار الشيخ ابن أبي زيد، يجد في بيته عددا من طلبته في انتظاره، فيبدأ حصته الأولى بتفسير الآيات القرآنيّة ويتوسّع في الموضوع معتمدا على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الصالحين، ومستشهدا بصحيح مسلم. ثم تبدأ الحصة الثانيّة إلى آذان الظهر للطلبة المبتدئين وتخصص لتلقين بعض المبادئ الفقهيّة، وتتلوها الحصة الثالثة للطلبة الكبار يعلمهم تجويد القرآن إلى آذان المغرب، وإثر صلاة المغرب يتحوّل إلى زاوية من الزوايا للقيام بنفس المهمّة. ويقضي الليل في إعداد الدروس للغد، وتحضير الإجابات عن الأسئلة التي وجّهت إليه من مختلف الحصص². وكانت المواد الأساسيّة في مدارس الحفصيين تتمثل في علوم القرآن الكريم وعلوم الحديث والفقّه والنحو واللغة، ومواد أخرى كالأدب والبلاغة والعلوم النظريّة المتنوّعة. وكتب الدراسة متنوّعة من حيث العصور والمصادر ولم تكن ثابتة إذ كانوا يروّجون للكتب الجديدة التي تحمل النظريات الجديدة كما أمر به الشيخ ابن عرفة الورغمي. فمن كتب الدراسة في التفسير: (الكشاف) للزمخشري، وفي الحديث: (صحيح مسلم) و(صحيح البخاري) وغيرها من الكتب الصحاح، و(الموطأ) لابن مالك، وكان يحظى الموطأ بتقدير بالغ الأهميّة لدى الدارسين وكانوا يدرّسونه من خلال شرحي العالمين الأندلسيين يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ت463هـ وأبي الوليد الباجي ت474هـ، و(سير ابن إسحاق) المتعلّقة بحياة الرسول والغزوات الإسلاميّة الأولى. وكانت من كتب الفقّه (رسالة ابن أبي زيد القيرواني) التي ألّفت على

¹. روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 379-380.

². نفسه، ج 2، ص 380-381.

المذهب المالكي للمبتدئين، وفي مراحل متخصصة يدرس الطالب (التفريع) لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن جلاب ت378هـ و(التلقين) لتلميذه أبي محمد عبد الوهاب بن علي البغدادي ت422هـ و(مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل) لأبي عمرو بن عمر بن الحاجب ت646هـ. وكان الطلبة المتقدمون يدرسون (مدونة سحنون) وكتابي (التهذيب) و(التمهيد) اللذين يشرحان المدونة، و(مختصر العلامة خليل) لخليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري ت776هـ. ومؤلفات الإمام الغزالي (كالإحياء) وكتب المتصوفين المشرقيين. وكانت معرفة النحو مهمة وضرورية فاعتمدوا في ذلك على الأمهات ك(الكتاب) لسيبويه و(الجمال) للزجاجي و(المفصل) للزمخشري وكتب ابن مالك وابن الحاجب. ومن كتب الأدب ديوان الحماسة لأبي تمام ومقامات الحريري، ومن شدة تعلق الحفصيين ببلاغة اللغة العربية فإن أئمة جامع الزيتونة كانوا يشرحون تلك الدواوين في قاعات الجامع. ومن العلوم العقلية علم الحساب وكانت معرفة مبادئه مهمة، وعلم المنطق ومن كتبه (الجمال) للخونجي ت648هـ، وكتب أبي نصر محمد الفارابي ت339هـ وابن سينا ت427هـ، إضافة إلى علم الفلك والتنجيم والعلوم الطبية. أما الفروع الفلسفية الأخرى فلم يروج لها عند الحفصيين لأنها كانت تعتبر مشبوهة في نظر أهل السنة فلم تكن من مواضيع الدراسة على وجه عام¹. وميزة المنهج التعليمي في العهد الحفصي هو إدراجهم للكتب الحديثة كما مر ذكره، وتفضيلها على الكتب القديمة تطلعا إلى الحداثة، ومن أمثلة ذلك أن ابن خلدون ذكر أنه درس في مدارس الحفصيين مؤلفات الكتاب الأندلسيين أبي عمرو الداني وابن شريك المقرئ الإشبيلي و متن الشاطبية للشاطبي، ثم قال إنهم تخلوا عنها كلها واستبدلوها بقصائد أحدث منها عهدا من تأليف الكاتب الأندلسي محمد الخراز. وفي كتب التفسير اعتمدوا على (الكشاف) للزمخشري لكن بشرح الحسن بن محمد الطيبي الذي يعد أحدث تفسير له آنذاك. وفي الفقه فقد كانوا يلقنون مبادئه للمبتدئين على (رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، ثم ينتقلون بهم إلى دراسة كتابي (التفريع) و(التلقين) المشرقيين وكذلك (المختصر) لابن الحاجب، لكنهم في القرن

¹. روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 382-383.

التاسع الهجري استبدلوا بكتاب حديث وهو (المختصر) للمصري سيدي خليل الذي تفوق مع شروحه على كل الكتب المدرسية في الفقه باستثناء (الرسالة). وفي أصول الفقه فقد كانوا يدرّسونه من خلال كتابي (الإرشاد) لإمام الحرمين و(المصطفى) لتلميذه الغزالي، ثم فضلوا عليها بحوث فخر الدين الرازي لأنها أحدث منها عهدا. وفي النحو فقد فضلوا مؤلفات ابن الحاجب وابن مالك المختصرة المؤلفة في القرنين السابع والثامن الهجريين من الكتب النحوية القديمة ك(الكتاب) لسبويه و(الجمال) للزجاجي و(المفصل) للزمخشري¹. وكان أيضا من ميزات المنهج التعليمي الحفصي ميلهم إلى حفظ المختصرات الشعرية والنثرية والمنظومات التعليمية في علوم اللغة المختلفة المقدمة في أسلوب مختصر مبهم وتفضيلها على البحوث والمؤلفات الأكبر قيمة منها، وهي مما يخلّ بالتعليم والتحصيل على حدّ تعبير ابن خلدون.

4 - مدارس الزيانيين: وصفت تلمسان أيام الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري بإحدى

المراكز العلمية في الدولة، لعبت دورا كبيرا في تخريج طلبة العلم من عامة الناس وأبناء الخلفاء الموحدين فكانت مدينة علم وثقافة تُشدّ إليها الرحال، وكان لها مكانة دينية مرموقة عند المتصوفة السنية خصوصا بعد دفن الشيخ العالم أبي مدين شعيب الإشبيلي ت595هـ فيها والذي كان من أهم رجالات المتصوفة، ومن حينها صارت المدينة مزارا للصوفيين وإحدى مراكزهم بالمغرب الإسلامي ولقبوها لذلك ب(تلمسان المحروسة)². وأسس الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان ت681هـ وذلك بعد تفكك الدولة الموحدية، وجعل من تلمسان عاصمة المغرب الأوسط وحكمها لخمسین عاما، وهو من بني عبد الواد، وبني عبد الواد فرع من زناتة طرابلس الطبقة الثانية الذين دفعتهم الغزوة الهلالية للاستقرار بالمغرب الأوسط واختلطوا ببني يفرن ملوك تلمسان من قبلهم ثم صارت السيادة لبني زيان بتأييد من الموحدين. وقد عمرت الدولة الزيانية ثلاثة قرون، وازدهرت تجارتها الخارجية نظرا لموقع تلمسان الاستراتيجي المهم والغني. وقد كان صمود هذه الدولة على البقاء عسيرا لأن

¹. روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 381-382.

². بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، فلسطين: 2002، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية،

الحفصيين بتونس والمرينيين بالمغرب الأقصى من أشدّ الطامعين في إزالتها وضمّها إليهم، كما أنّها لم يكن لها سند شرعي في المغرب الأوسط إذ هم غاصبون للبلاد من ملوك بني يفرن فلم يسلموا من عداة القبائل البربريّة لهم كقبيلة بني راشد ومغراوة وتوجين، وقد حكم يغمراسن المغرب الأوسط سنوات طوال استطاع حمايته من الحفصيين تارة والمرينيين تارة أخرى، وحين انتقلت السلطة إلى ابنه أبي سعيد عثمان بن يغمراسن فإنّ هذا الأخير لم يسلم هو الآخر من أطماع الحفصيين والمرينيين وأطماع العرب الهالبيين المناصرين للمرينيين. كما أنّه دارت حروب طاحنة وطويلة قبل قيام الدولة الزيانيّة بين المرابطين والموحّدين لنيل تلمسان استمر حصار الموحّدين عليها عاما كاملا فقتل الكثير من سكانها جوعا وهدّمت منشآتها الحضاريّة والعمرانيّة، وكان أيضا ملوك بني حماد ببجاية من أشدّ الطامعين فيها، كما أنّ تاريخ تلمسان قبل هذه الأحداث كان حافلا بالحروب والفتن والصراعات بين الأمويين والفاطميين لنيلها. غير أنّ الحياة العلميّة والثقافيّة في تلمسان وباقي مدن الدولة الزيانيّة حافلة بالنشاط الفكري ومزدهرة بالعلوم وتأليف الكتب وكثرة العلماء رغم محنها وكان السلاطين الزيانيون من أشدّ الناس حبا للعلم والعلماء، ومن أشهر حكامها: يغمراسن وابنه عثمان...

والتعليم بالدولة يبدأ بالكتاتيب ثم المساجد الكبرى ثم المدارس، وقد أخذت الدولة الزيانيّة على عاتقها مهمّة بناء المدارس وتعيين المدرسين بها وتحديد الأوقاف لهم وللطلبة ممّا لعب دورا مهما في ازدهار الحركة الثقافيّة بعاصمة دولتهم تلمسان وتخريج طلبة العلم في مختلف العلوم، ومن أمثلة ذلك بناؤهم منازل للمدرّسين قرب المدارس، وكذلك مساكن للطلبة والحرص على توفير السبل المريحة للتعليم. واستقدام السلاطين للعلماء الأكفاء قصد التدريس بمدارسهم أو جوامعهم الكبرى مثلما طلب يغمراسن من العالم أبي إسحاق بن يخلف التنسي ت680هـ القدوم والتدريس بالجامع الأعظم بالمدينة، وكان السلطان يغمراسن يحضر دروسه، وقد رتّب له إقطاعات كبيرة بنواحي تلمسان ورواتب. ومحاولة السلطان أبي حمو موسى الثاني استقدام العلامة عبد الرحمان بن خلدون للتدريس بالدولة أو استلام منصب، لأكثر من مرة، وكان عبد الرحمان يرّد عليه

بلطف، ثمّ أرسل لهم شقيقه أبا زكريا يحيى بن خلدون ت780هـ لخدمتهم، وهو صاحب الكتاب المشهور في تاريخ الدولة الزيانيّة (بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد). وتعيين أبي حمو موسى الثاني العالم أبا عبد الله الشريف الإدريسي بالمدرسة اليعقوبيّة وهو من أعلم أهل عصره. وعنايتهم الفائقة بالمناظرات العلميّة بين العلماء واهتمامهم بأن تجري داخل قصورهم كالسلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو الذي كان مولعا بها، ومشاركتهم علماء تلمسان في المسابقات الثقافيّة التي كانت تجري في المناسبات الدينيّة، ومشاركتهم بالتأليف كالسلطان أبي حمو موسى الثاني الذي ساهم في تأليف الكتب¹. ومن شدّة تقدير السلاطين للعلماء والفقهاء والمدرّسين مشيهم في جنائزهم والأمر بدفنهم في المقابر السلطانيّة، بجوار قبورهم مثلما أوصى يغمراسن بأن يدفن بقرب العالم التنسي، وأن يدفن بجواره غيره من العلماء منهم المحدث والفقهاء أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق ت681هـ الذي دُفن بقرب يغمراسن كما أوصى²، كما أنّهم أطلقوا عليهم عدّة ألقاب جليّة كالشيخ، والعالم، والفقهاء، والبارع، والحافظ والمجتهد، والعارف، والفاضل وغيرها. ومن عوامل ازدهار المعارف بتلمسان علاوة على تشجيع السلاطين لذلك انتقال عدد كبير من العلماء الأندلسيين إليها إثر سقوط مدن الأندلس على يدّ النصارى الإسبان ونقلهم معهم علومهم وآدابهم وفنونهم، وتقلّدوا مناصب عليا في الدولة أطلق عليها (أرباب القلم)، وكان أشهرهم العالم أبا بكر محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي الذي كان كاتباً أيام يغمراسن، ومنهم العلامة لسان الدين بن الخطيب الذي دخلها عام 772هـ ومكث فيها فترة، وحاول استقدام عائلته إليها لكن الظروف السياسيّة حالت دون ذلك³. ولعلماء تلمسان صيت بعيد في العلم والمعرفة الدينيّة، وعُرف عنهم إصدارهم لفتاوي دينيّة في الأمور الشرعيّة وتطبيقها في المغرب الإسلامي كلّه، وكانت ترد إليهم أسئلة فقهيّة من جميع أنحاء المغرب ويتمّ الردّ عليها والإفتاء فيها، وظهر تبعاً لذلك نوع من التأليف أو النوازل أشهرها

¹. بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، ص 226.

². نفسه، ص 227.

³. نفسه، ص 229.

كتاب (المعيار المعرّب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب) لأبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، من فقهاء المالكيّة البارزين تـ914هـ، وكان لهذه المؤلفات أهميّة علميّة عظيمة إذ كانت تدرّس في مختلف الحواضر الإسلاميّة¹. وكانت الإشارة الأولى إلى إنشاء المدارس بتلمسان في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول الذي أنشأ مدرسة لأولاد الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام . أبي زيد وأبي موسى . تكريما لهما وقد عيّنها للتدريس بها وذلك عام 710هـ. وفي أيام السلطان أبي تاشفين عبد الرحمان الأول لم تعد المدرسة القديمة مدرسة أولاد الإمام تسدّ حاجة المدينة لتزايد أعداد الطلبة فأنشأ السلطان المدرسة التاشفينيّة بقرب الجامع الأعظم، وكانت آية في الجمال علما أنّ السلطان أبا تاشفين محبّ للبناء وتزيين المنشآت العمرانيّة، وقد عيّن فيها مدرّسين علماء أمثال العالم أبي موسى المشدالي، وأنشأ السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة اليعقوبيّة عام 765هـ نسبة إلى والده وكانت في غاية الدقّة والتخطيط وعيّن فيها مدرّسين أكفاء أمثال الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني، وبنا بالقرب منها مسجدا عُرف بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي. وأنشأ السلطان أبو العباس أحمد العاقل عام 850هـ المدرسة الجديدة بتلمسان وبنا مدرسة أخرى بزاويته. وأثناء السيطرة المرينيّة على تلمسان أنشأ السلطان المريني أبو الحسن مدرسة قرب ضريح الإمام أبي مدين سُمّيت بمدرسة العباد وذلك عام 747هـ، كما أنّ ابنه السلطان أبا عنان أنشأ عام 754هـ مدرسة عند ضريح الوالي أبي عبد الله الشوزي الإشبيلي الملقّب بالحلوي². وكانت تخصص رواتب شهريّة للمدرّسين والطلبة لإعانتهم على الدرس وتشجيعا للمواصلة في الدراسة، وقد عملت هذه المدارس على تخريج العديد من العلماء الذين لهم فضل كبير على العلوم والمعارف في كل مدن المغرب الإسلامي. ويطلق على التعليم بالمدارس (بالتعليم الحكومي) لأنّ الدولة تفرض سياسة التعليم والمواد المقررة وهدفها منه هو تخريج موظّفين لها، وكانت شديدة الحرص على تعليم العلوم الدينيّة ومبادئ المذهب المالكي للطلبة علاوة على العلوم العقليّة.

¹. بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، ص 237.

². نفسه، ص 240 - 241 - 242.

ومن علوم الدراسة بمدارسهم العلوم النقلية بفرعيها من علوم دينية وشرعية وتشمل: الفقه، الحديث، التفسير، أصول الكلام، أصول الدين، القراءات، الفرائض، التصوف، والفرع الثاني من علوم لسانية واجتماعية وتشمل: الشعر، الأدب، اللغة، البلاغة، النحو، التاريخ، التراجم والجغرافيا. وكتب الدراسة في مدارسهم متنوعة¹، وكانت مؤلفات المذهب المالكي باعتباره المذهب الرسمي للدولة ذات عناية كبيرة من قبل علماء الدولة، ولم تفرض السلطة الحاكمة على المدرسين مقررا دراسيا محددًا بل تركت للعلماء الحرية في اختيار المواد المقررة والكتب المستعملة في التدريس، وكان المدرسون يفضلون في الغالب إدراج كتبهم في الدرس كأبي عبد الله الشريف التلمساني الذي كان يفضل تدريس كتابه في أصول الفقه (مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول)، وشرحه لكتاب (جمل الخونجي)، وأدرج المدرس أبو العباس أحمد بن زاغو 845هـ مؤلفاته في التدريس في علم التفسير وعلم الفرائض بالمدرسة اليعقوبية، ففي علم التفسير استعمل (مقدمته في التفسير)، و(تفسير سورة الفاتحة)، و(التذيل في ختم التفسير). وفي علم القراءات كانت تدرس القصيدة المشهورة بالشاطبية (حز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني)، وفي علم الحديث: (صحيح البخاري) و(صحيح مسلم) و(الموطأ) لابن مالك وكتاب (التقصى) لابن عبد البر، وكتاب (الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض، وكتاب (الأحكام الصغرى) لابن عبد الحق، وفي الفقه كتاب (جامع الأمهات) الفرعي لابن الحاجب وكتاب (المختصر) لخليل بن إسحاق، و(مختصر المدونة) لابن أبي زيد. وفي علوم اللغة كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) و(الألفية) في النحو لابن مالك، وكتاب (الجمل) في النحو للزجاجي، و(الإيضاح) للفارسي، و(مغني اللبيب) لابن هشام الأنصاري، (كتاب النحاة) لابن سينا. وفي علم العقيدة كتاب (العقيدة البرهانية) للسلالجي، وكتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) للغزالي، وفي السيرة (سيرة ابن إسحاق)، وفي التصوف كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي وكتابه (الميزان)، وكتاب (الحكم العطائية) لابن عطاء الله السكندري، و(شرح الحكم العطائية) لابن عباد، وكتاب

¹. عمارة فاطمة الزهراء، المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين 8 و9 هـ، وهران: 2010، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ص90.

(لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن) لابن عطاء الله السكندري، وفي علم الجدل كتاب (المقترح) للبروني. إضافة إلى كتب العلوم العقلية كالمنطق وعلوم العدد والفلك والطب والصيدلة وعلم النبات. ومن العلماء التلمسانيين الذين تصدّوا للتدريس في المدارس والجوامع الكبرى وتخرّج على يدهم العديد من الطلبة الذين صاروا من كبار العلماء وأولئك المجتهدين في مختلف العلوم: أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي ت680هـ، وقد ألّف شرحا كبيرا من عشرة أجزاء لكتاب (التلقين) للقاضي عبد الوهاب وقد انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب كلّها، ترد عليه الأسئلة من تلمسان وبلاد إفريقية كلّها، وانتفع به خلق كبير، وكان من أولياء الله الجامعين بين علمي الباطن والظاهر، وشقيقه أبو الحسن التنسي ت706هـ تولّى التدريس بعد وفاة شقيقه وتتلّمذ على يده العالم أبو عبد الله الأبلّى، وأبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله ت741هـ المعروف مع شقيقه بأولاد الإمام، بنا لهما السلطان أبو حمو موسى الأول مدرسة ومسجدا ومنزليّن عام 710هـ وعيّنهما للتدريس بها تقديرا لعلمهما، ثم رحلا إلى المشرق بعد وفاة السلطان أبي حمو ولقيا عددا من العلماء منهم القزويني وابن تيمية، ثم عادا إلى تلمسان للتدريس وتخرّج عليهما طلبة علماء أمثال الأبلّى والشريف التلمساني والمقري، وألّف أبو زيد مؤلّفات منها شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع، وأبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية القرشي التلمساني ت735هـ الذي درّس الفقه والأدب واللغة وعمل بديوان الإنشاء. وأبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني ت708هـ وقد برز في الأدب والتاريخ وعلم السيمياء. ومحمد بن إبراهيم العبدي التلمساني المشهور بالأبلّى ت756هـ كان يدعى بعالم الدنيا لاشتهاره خصوصا في العلوم العقلية، أخذ عنه الكثير من العلماء أمثال عبد الرحمان بن خلدون وشقيقه يحيى وابن مرزوق الشريف التلمساني¹، والعالم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق ت681هـ محدّث وفقهه ومن

¹ . ابن مريم الشريف الملبتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، د ط. الجزائر: 1908، المطبعة الثعالبية، ص 66 - 67.

العلماء الذين قرّبهم السلطان يغمّراسن إليه وقد أمر السلطان بدفنه قربه بالمقبرة السلطانيّة تكريماً له¹، وهذا ممّا تفردت به تلمسان عن باقي مدن العلم...

5. مدارس المرينيين: أمّا دولة بني مرين التي تأسست على يدّ أبي يحيى بن عبد الحقّ ت658هـ في المغرب الأقصى فإنّها كانت تكنّ العداء للموحّدين، نازلت جيوشهم في كلّ من مدينة سلا ومراكش فقصّت عليهم وبسطت سلطانها على كلّ المغرب الأقصى وحاولت الاستيلاء على مدن المغرب الأوسط كتلمسان ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمديّة وبجاية، وكان ما يميّز مناهج التعليم في دولتهم الجديدة العودة إلى مدارس مذهب مالك وكتابه (الموطأ) و(مدونة سحنون) وكتاب (التهذيب) للبراذعي الصقلي، و(النوادر والزيادات) لابن أبي زيد القيرواني وغيرها من كتب الفقه المالكي ومطولاته التي كان الخلفاء الموحّدون يدّعون الدعاوي لمحوه من كلّ المغرب كالخليفة يعقوب الموحّدي الذي كان يجمع كتب المذهب وشروحه ويحرقها علناً، فعادت مدن المغرب إلى سابق عهدها من اعتناق مذهب الإمام مالك الذي كان مذهب فقهاء منذ حياة مالك في القرن الثاني، وقد رحّب الفقهاء بهذه الدولة الجديدة التي خلّصتهم من إجبار الموحّدين على مدارس المذهب الظاهري، ورفض مذهب مالك، كما أنّهم اعتبروا عقيدة ابن تومرت انشقاقاً عن الجماعة فألغوا من مناهج التعليم مؤلفاته وكلّ ما له صلة بها، فلعب فقهاء المالكيّة دوراً مهماً في تثبيت حكم المرينيين². وقد طمح المرينيون منذ أول عهدهم إلى جعل عاصمتهم فاس الجديدة مركزاً علمياً ثالثاً مثلما كان حال مراكش عصر المرابطين والموحّدين، والقيروان قبل نكبتها فأسسوا عدّة مدارس، وكانت ميزتها بناءها حول الجوامع الكبرى مثلما هي حال مدارس فاس التي بنيت حول جامع القرويين والمدريستين التوأمين حول جامع الأندلس والمدرسة التي بنيت حول الجامع الكبير بفاس الجديدة³. ومدارسهم مساكن أيضاً للطلّاب، وقد وفد إليها شبان الريف المغربي بأعداد هائلة لم يسبق لفاس أن وفد إليها مثل ذلك، ومن هؤلاء ابن آجروم النّحوي المتوفى بفاس، وقد

¹. ينظر: ابن مريم، البستان، ويسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 286 - 287.

³. روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ص 174.

جاء من ريف يبعد ثلاثين كيلومترا جنوب فاس، لأنّ أمراء بني مرين كانوا يزودون الطلبة بالنفقات والثياب طيلة دراستهم تشجيعا للتعليم، وأجروا على المعلمين مرتبات كلّ شهر وقيل عن مدرسة الأندلس التزامها بكسوة الأساتذة والطلبة فوق الإنفاق عليهم. ومن أشهر مدارسهم بفاس مدرسة الحلفاويين (الصفارين) بجوار جامع القرويين، والتي بناها أبو يوسف عام 675هـ، وأنشأ بها خزانة علميّة حوت مخطوطات متنوعة تسلّمها من ملك قشتالة سانسو بعد معاهدة الصلح التي انعقدت عام 684هـ بين الطرفين، ومدرسة المدينة البيضاء بفاس الجديدة والتي بناها أبو سعيد الأول عام 720هـ، وهي على مقربة من الجامع الكبير بفاس الجديدة، ومدرسة الصهريج وهي واقعة غربي جامع الأندلس وسمّيت أيضا بمدرسة الأندلس وقد بناها أبو الحسن المريني عام 720هـ. ومدرسة العطارين على مقربة من جامع القرويين بناها أبو سعيد الأول عام 723هـ، ومدرسة الوادي بمصمودة أسفل جامع الأندلس والتي أسسها أبو الحسن، ومدرسة السبعين وتسمّى أيضا بالمدرسة الصغرى، وهي سكنى لطلبة مدرسة القراءات السبع وبنيت على جوار جامع الأندلس. وبنا أبو يوسف بمكناس مدرسة القاضي التي سمّيت فيما بعد بالمدرسة الفيلايّة شرقي الجامع الأعظم بالمدينة، وفي مراكش بنا مدرسة ابن يوسف، وبنا أبو الحسن مدرسة الجامع الكبير بتازا¹. وما يميّز مناهج التعليم في المدارس المرينيّة بفاس ومراكش ومكناس وسبتة وغيرها من المدن التخلي عن الأفكار الموحديّة التي لها علاقة بالعقيدة أو المذهب، فقُضي على خرافة المهدويّة والعصمة الإماميّة، كما أنّه نُقّحت العقيدة الأشعريّة ممّا كان يشوبها من أفكار مقتبسة من المعتزلة وغلاة الشيعة. واستبدل المذهب الظاهري بالمذهب السنّي المالكي الذي اختاره الفقهاء بمحض إرادتهم. ومعظم موضوعات التدريس دينيّة منها علوم التفسير والحديث والفقّه إضافة إلى العلوم اللغويّة من نحو وبلاغة وعروض، والمنطق ومبادئ علوم العدد والفلك والطب والهندسة. ونشطت دراسة علم التاريخ في عهدهم، وكان عبد الرحمان بن خلدون والوزير لسان الدين بن

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 239 - 244.

الخطيب من أشهر علمائه، أمّا علوم الفلسفة فلم يكن لها مكان مرموق في النشاط الفكري بسبب قيام دولتهم على مبدأ أهل السنّة المالكيين. وكانت كتب الدراسة في مدارس المرينيين متنوّعة غلب عليها الطابع المغربي أي من تأليفهم ومن ذلك:

. في علوم التفسير بمدارس سبّته: (تفسير القرآن الكريم) لابن أبي الربيع الإشبيلي نزيل سبّته ت688هـ، (نظم غريب القرآن) لمالك بن عبد الرحمان بن علي المصمودي السبتي ت699هـ، وبمدارس مراکش: كتاب (تعاليق على كشّاف الزمخشري) لابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي ت721هـ¹. وفي العلوم الملحقّة بالتفسير: 1. علم القراءات فمن كتبه في مدارس سبّته كتاب (الكافي في القراءات السبع) و(مفردات نافع) لمحمد بن شريح الرعيني الأندلسي ت476هـ، ثم (قصيدة الحصري) وكتب أخرى ككتاب (التيسير في القراءات السبع) لأبي عمرو الداني ت444هـ، والقصيدة الشاطبيّة المعروفة باسم (حرز الأمان)، وكتاب (الرجز البارع في قراءة نافع) و(فرائد المعاني في شرح حرز الأمان) لمحمد بن محمد بن داوود الصنهاجي بن آجروم وغيرها. و 2. علم التجويد: كتاب (نظم الفريد في أحكام التجويد) لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الحسني السبتي ت737هـ. و 3. علم الرسم: فمن الكتب المعتمدة: (المقنع) للداني، و(عقليات أتراب القصائد في أسنى المقاصد) لأبي محمد القاسم الشاطبي ت590هـ². وكان الاهتمام بعلم الحديث وبعض علومه كبيراً في العصر المريني الأول، وسبب ذلك استمرارية ملامح من النهضة الحديثيّة الموحديّة وسريانها إلى صدر الدولة المرينيّة إضافة إلى كثرة رحلات المغاربة إلى المشرق ولقائهم أعلام الحديث فضلاً عن الاعتبار الذي تضيفه الدولة على علماء الحديث، ولهذا ازدهرت الدراسات الحديثيّة وتفرّعت إلى أربعة علوم هي: مجموعة الأحاديث النبويّة، كتب في فقه الحديث، علوم الحديث والسيرة النبويّة، وكثرت المؤلّفات والعلماء في هذه العلوم إلى حدّ كبير. فمن كتب مجموعة الأحاديث مؤلّفات الرخالة المحدث ابن رشيد محمد بن عمر بن محمد الفهري السبتي ت721هـ في صحيح البخاري المسمّى (ترجمان التراجم)

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 265.

². نفسه، ص 267 - 270.

و(إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح) و(السّنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن)، ومؤلفات الرحالة المحدث أبي القاسم بن يوسف بن محمد التجيني ت730هـ، إضافة إلى كتب الحديث الصحاح (كصحيح مسلم) و(صحيح البخاري) وغيرها. ومن كتب فقه الحديث (فقه الأحكام): (الموطأ) للإمام مالك رواية يحيى بن يحيى الليثي ت234هـ، و(الأحكام الكبرى والصغرى) لعبد الحق الأزدي، و(عمدة الأحكام) لعبد الغني المقدسي ت600هـ، وقد كثرت شروحات المغاربة على هذه المؤلفات¹. ومن أشهر كتب علوم الحديث: كتاب (علوم الحديث) لأبي عمرو بن الصلاح ت643هـ، ومن كتب السيرة النبوية: (الشامل الترميذي)، و(سيرة محمد بن إسحاق)، و(سيرة ابن فارس)، و(الشفاء) للقاضي عياض. ومن مؤلفات المغاربة فيها: (تكملة الدر المنظم في مولد النبي المعظم) لأمير سبته محمد أبي القاسم العزفي السبتي ت677هـ، ونظم خلاصة هذا الكتاب أبو إسحاق التلمساني ت697هـ نزيل سبته في مائة وخمسة وثمانين بيتاً من البحر البسيط².

- وفي الدراسات الفقهية فقد تجدد الاعتبار للمذهب المالكي ولشيوخه تدريساً وتأليفاً، فتوى وقضاء، فكانت مؤلفات الأصول الفقهية (كالمدونة الكبرى) لسحنون و(تهذيب المدونة) للبراذعي و(الرسالة القيروانية) ومشتقات ذلك مما كان يدرّس، وذلك قبل اعتماد المختصرات. وكان المغاربة المنشغلون بهذا العلم وفروعه أكثرية كبرى³. أمّا علم أصول الفقه الذي يهتمّ بالتعريف بطرائق استخراج الأحكام الفقهية من أدلتها الأربعة: القرآن، السنة، السماع والقياس، فقد تنوّعت المراكز المهمة بهذا العلم بين مراكش وسبته وفاس على هذا الترتيب، ومن أشهر الكتب المدرّس بها: (المستصفى) للإمام الغزالي، و(المختصر) الأصلي لابن الحاجب و(تنقيح الفصول في علم الأصول) لشهاب الدين القرافي أحمد بن باديس الصنهاجي ت684هـ بالقاهرة. وشرحت هذه

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 286.

². نفسه، ص 290 - 291.

³. نفسه، ص 293.

المؤلفات على يد عدد كبير من المؤلفين المغاربة¹. وفي الدراسات الكلامية فقد أقرّ المغاربة بالمذهب الأشعري في العقائد الإيمانية بعد تهذيبه من الإضافات الموحديّة للمهدي بن تومرت الذي أضاف إليها أفكارا مقتبسة من المعتزلة والفرق الشيعية كالإمامة والعصمة، وقد اعتبر العلماء المرينيون هذه الأفكار انحراف فناهضوها بشدة. فكان في مقدّمة المؤلفات الكلامية كتاب (الإرشاد) لإمام الحرمين، وهذا الكتاب في صفوف الأقسام العليا، أمّا في باقي الأقسام كتب (العقيدة السلاجية) وهي مختصرة من كتاب (الإرشاد) ثم عقيدة الرسالة القيروانية². أمّا الدراسات النحوية فقد ازدهرت كثيرا في العصر المريني، وكانت المراكز الأساسية لهذا النشاط موزعة بين سبتة وفاس ومراكش وتازا ومكناس، وقد تميّزت سبتة وفاس ومراكش بالتفقه العميق في كتاب سيبويه على غيره من مؤلفات النحو، وكان الفاسيون يفتخرون به قائلين:

بسيبويه نسبنا كل فائدة في صنعة النحو لا الكراس والجمل³.

وهم يقصدون بالكراسة المقدّمة الجزولية للجزولي، وبالجمل للزجاجي.

وقد تصدرّ لتدريس كتاب سيبويه في المدارس مجموعة من الأعلام اللامعين تدريسا وتأليفا، وكانت مؤلفاتهم من الكتب المدرّس بها منهم: محمد بن علي بن يحي المراكشي قاضي مراكش ت682هـ، ثم خلفه تلميذه إبراهيم بن عبد السلام الصنهاجي المراكشي ت716هـ المعروف بأبي إسحاق العطار، وأخذ عنه ابن البناء المراكشي جميع كتاب سيبويه والمقدّمة الجزولية وهو مؤلف كتاب (المشكاة والنبراس في شرح كتاب الكراس)، وابن الربيع الإشبيلي الذي نزل سبتة، وهو من الأئمة المقرئين لكتاب سيبويه والعارفين بغوامضه في الإقليم المغربي، وله اهتمام بكتابي (الجمل) و(الإيضاح)، وشرح المؤلفات الثلاثة في أكثر من شرح، فمن شروحاته للكتاب: (موطنة الفصيح)، ومن شروحاته للجمل: (البسيط) في عدة مجلّدات، ومن شروحاته على الإيضاح: كتاب (الكافي في الإفصاح عن مسائل كتاب الإيضاح)، و(الملخص في ضبط

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 305.

². نفسه، ص 310.

³. نفسه، ص 313.

قوانين العربيّة)، و(القوانين النحويّة). وخلف ابن أبي الربيع تلميذه شيخ النّحاة والقراء بسبّته أبو إسحاق الإشبيلي إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي ت716هـ، ومن مؤلّفاته: (شرح الجمل) للزجاجي، ومنهم أيضا محمد بن محمد بن داود الصنهاجي بن آجروم كان أستاذا لكتاب سيبويه بفاس، وكان أعرف أهل زمانه بالنّحو وهو صاحب (المقدّمة الآجروميّة في مبادئ علم العربيّة)، كانت أساسا للدراسات النحويّة في زمن وضعها حتى عهد قريب من عصرنا وانتشرت دراستها من المحيط الأطلسي إلى نهر الفرات، ومنهم أيضا محمد بن علي بن هاني اللّخمي السبتي، وهو من تلاميذ أبي إسحاق الإشبيلي الغافقي، ومن مؤلّفاته: (شرح تسهيل الفوائد) لابن مالك. وكانت مؤلّفات ابن مالك كالتسهيل والألفيّة من محفوظات المستوى المتوسط بمدارس سبّته وكذلك المختصرات (كالمقدّمة الجزوليّة)، و(القوانين النحويّة) و(المقدّمة الآجروميّة)¹. وما يميّز تدريس النّحو بمدارس مدينة سبّته الاعتماد على الطريقة الأندلسيّة في تعليم العربيّة إذ وفد إليها أكثر علماء الأندلس بعد سقوط إشبيلية، فكان أمراء سبّته العزفيون أبناء الأمير الكبير أبي القاسم العزفي أغنياء محبين للعلوم والعلماء فأغدقوا على العلماء الأندلسيين وغيرهم العطايا والصلوات. وتميّزت منهجيتهم في مجالس التدريس بالالتفات إلى شواهد العرب والعناية بالتفقه في كثير من تراكيبها، على خلاف باقي الجهات المغربيّة التي لم تأخذ بهذه الطريقة إذ كانت تتفقه في القوانين النحويّة مجرّدة في الغالب عن الاهتمام بالتراكيب العربيّة².

. أمّا الدراسات اللغويّة فقد نالت حظا وافرا خصوصا في مدينة سبّته لكثرة العلماء الأندلسيين فيها فكانت من المؤلّفات الدراسيّة بها (إصلاح المنطق) لابن السكيت، و(الكامل في الأدب) للمبرّد و(الفصيح) لثعلب، و(الصّاح) للجوهري. وكان مالك بن المرحل من أشهر المؤلّفين اللغويين نظّم (غريب القرآن الكريم) لابن عزيز السجستاني، ونظّم (مختصر إصلاح المنطق) لابن العربي ورجز كتاب (الفصيح) لثعلب في منظومة سمّاها (بالموطأة) وغيرها. ورتّب ابن هاني السبتي كتاب (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان) لابن هشام اللّخمي السبتي في كتابه (إنشاد الضوال

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 312-317.

². نفسه، ص 313.

وإرشاد السؤال)¹. ومن القضايا اللغوية التي أثّرت في هذا العصر مسألة المفاضلة بين الترتيبين المشرقي والمغربي للألفبائية العربية، وقد أثارها في هذا العصر المؤرخ محمد بن عبد الملك المراكشي ت702هـ في مدخل (الذيل والتكملة) والذي انتصر للطريقة المشرقية في ترتيبه لموضوعات كتابه، وقال عن الترتيب المشرقي إنه أصح اعتباراً، غير أنّ الكثير من معاصريه ومن بعده لم يأخذوا باختياره بل فضّلوا الترتيب المغربي منهم: مالك بن المرحل في قصيدته المطوّلة (الوسيلة الكبرى)، وابن هانئ السبتي في (إنشاد الضوال)، وابن فرج السبتي في (القطع الخمسة)، وابن الدهان في ترتيب ديوان ابن سهل، ولسان الدين الخطيب في ديوانه (الصيب والجهم) ومالك غرناطة يوسف الثالث في ديوانه، ومن المتأخّرين الماغوسي في ترتيب ديوان المتنبي، وابن القاضي في (درة الحجال) و(جذوة الاقتباس) وغيرها إلى عصرنا هذا². وعُرفت مدينة سبتة بأنّها دعّت للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ثم عُمم الاحتفال في باقي المدن المغاربية في عصر بني مرين، فعرف المغرب المريني ميلاد أدب المولديات، وعرف أيضاً ولأوّل مرة أدب الرّوّد في تدوين الرحلات، وازدهر فيه أدب النكبات ويقصد به الدعوة إلى إنقاذ الأندلس، وأشعار نبويات وحجازيات وزهديات، إضافة إلى الاتجاهات التقليدية للأدب العربي كالمدح والثناء والفخر... وازدهرت العلوم الرياضية ازدهاراً عظيماً في هذا العصر وتفرّعت العلوم العددية إلى فروع كالحساب والجبر والمقابلة وحساب الفرائض وحساب المعاملات والأرتماطيقية، وكثرت المؤلّفات المستخدمة في تدريسها... واشتهر المغاربة بصناعة الأجهزة الفلكية وكذلك التأليف في علم الفلك وغيرها من العلوم. ومما يميّز مناهج التعليم في الدولة المرينية استخدام المؤلّفات المختصرة في التدريس خصوصاً مختصر ابن الحاجب (أصول الفقه)، وكان لهذا المختصر أنصار كثيرون حتى صار له شبه مدرسة بفاس، ومن شدّة إعجاب المغاربة بهذا النوع من التأليف فقد دعوا إلى تعميم استعمال المختصرات في التدريس في كافة العلوم، وكثر التأليف في هذا النوع. غير أنّ المختصرات كثيرة الغموض في تعابيرها لما تستدعيه من إيجاز

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 318.

². نفسه، ص 319.

للعبرة، لأنها ذات منهاج خاص في تأليفها وتدريسها، تضرب تعبيراتها الرقم القياسي في الإيجاز إلى حد الغموض أحيانا، وهذا يفضي بالدارس إلى أن يتورط في حلّ ألغازها والاشتغال بالمناقشات اللفظية قبل الوصول إلى الموضوع المطروح¹. وهو ما تناوله ابن خلدون في المقدمة في فصل (أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم)، وقال إنّ هذا النوع من التأليف أدى بالمغاربة إلى ضعف في التدرب على المحاور والمناقشة والمناظرة عند التدريس لاشتغالهم بالألغاز في حلّ التراكيب بدل المباشرة في تناول الموضوع بالشرح. كما عارضها مجموعة كبيرة من المغاربة معارضة شديدة منهم الفقيه القباب أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان الجذامي الفاسي ت778هـ وأبو إسحاق الشاطبي، حتى وصل موقفهم هذا إلى مغاربة المشرق فتصدوا لها منهم عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان السجلماسي الملقّب بابن الحفيد ت789هـ² وانتقدت أيضا في العصر المريني قضية أخرى وهي كثرة التأليف في مختلف العلوم وبنیان المدارس الفاخرة، وكان صاحب هذه الفكرة محمد بن إبراهيم العبدري التلمساني نزيل فاس ودفينها الملقّب بالأبلى ت756هـ وتلميذه المقري محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني قاضي الجماعة بفاس³، فمّا أفسد التعليم والعلم برأيه هو كثرة التواليف وأذهبها بنيان المدارس، وعلل العبدري رأيه في استتساخ المؤلفين للكتب باختصارها أو نظمها وبيعها بأثمان زهيدة، وبتكليف الدولة أموالا باهضة في بناء المدارس وهو ما ذهب إليه ابن خلدون في المقدمة من أنّ (كثرة التأليف في العلوم عائقة على التحصيل). وكان أيضا من ميزات العصر المريني بالمغرب الأقصى في القرنين السابع والثامن توطيد المرينيين للعلاقات مع البلاد المشرقية خصوصا مصر ومكة، وكثرت السفارات منها وإليها وغيرها من المدن المشرقية، وكانت محمّلة بالغانم والهدايا الثمينة والعطايا. وأدت مثل هذه السفارات إلى المدن المشرقية إلى ارتفاع نسبة رحلات العلماء المغاربة إلى المراكز الثقافية بالشرق، ووفود أعداد هائلة من العلماء المشاركة إلى المغرب أثناءها. واستخدام الشعر بكثرة في

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 246.

². نفسه، ص 383 - 384.

³. نفسه، ص 380.

التأليف العلمي وتجلّى ذلك في نظم الكثير من المؤلفات البارزة. ومغربة الجهاز الإداري والتعليمي، وظهر ذلك في ظهور أعلام مغاربيّة بارزة تصدّت للتعليم وتسيير البلاد، ولم يعد يُستدعى العلماء من الأندلس. ظهور تيار سنّي صوفي قويّ الركائز، لم يسبق مثله في المغرب الأقصى، وأدّى هذا التيار إلى عودة الرباطات العلميّة بكثرة كمؤسسات تعليميّة دينيّة كرباط أبي محمد صالح بآسفي، ورباط أبي زكريا الحاجي بسلا، ورباط أبي زيد الهزميري بأغمات¹. اعتماد العقيدة الأشعرية بعد تنقيحها من أفكار الشيعة والمعتزلة التي أتى بها المهدي بن تومرت والمذهب المالكي محلّ المذهب الظاهري.

6 - عوامل ازدهار العلوم بالمغرب الإسلامي:

1 - الرحلات العلميّة: تعدّ الرحلة العلميّة إلى المشرق فناً من فنون الأدب العربي ولبنة من لبنات فنّ الجغرافية لما فيها من وصف للمدن والمنشآت العمرانيّة ووصف لسكانها وعاداتهم، وقد تخصص المغاربة والأندلسيون في الرحلة إلى المشرق، وتأسّلت فيهم حتى صارت فناً قائماً بذاته، ومرجعاً أساسياً للمشاركة من خلال ما تحتويه مؤلفاتهم على تسجيل حيّ للمجتمع الإسلامي في مكة والمدينة والمدن العلميّة كالكوكة والبصرة وبغداد ومصر وغيرها. وكان الدافع الأساسي للرحالة المغاربة والأندلسيين للرحلة إلى المشرق حجّ بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة، ثم طلب العلم والتزوّد بالثقافة الدينيّة والعلميّة من المراكز العلميّة كبغداد ومصر والشام والكوكة والبصرة، والسعي لملاقاة علمائها والاستفادة منهم. وكان المغاربة يتشاطرون في مستوى ثقافتهم الدينيّة والعلميّة ويتفاخرون بها لذا كانوا يتجشمون عناء السفر ومشقّته من أجل طلب العلم وحصول الملكة منذ وقت مبكّر من حياتهم، فيقضون سنوات في طلب العلم ثم يعودون إلى أوطانهم ويجلسون للتدريس والإقراء والفتوى أو تولي القضاء والكتابة لدى أمرائهم. وقد كان المهدي بن تومرت زعيم الموحّدين ممّن سافر للحجّ وطلب العلم وهو في السادسة عشرة من عمره قضى خمسة عشر عاماً ينتقل من مدينة إلى أخرى ينهل من علمائها، وقيل إنّ لقي أبا حامد

¹ . محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 261.

الغزالي فتدرد إلى حلقاته، وحين عاد من رحلته إلى بلاد المغرب دخل في مناقشات ومناظرات مع علماء فاس ومراكش، وكانت له الغلبة عليهم، لما يتمتع به من ثقافة واسعة وإتقان لعلم الكلام والجدل، ولم يكن من هؤلاء العلماء عالم استطاع مجاراته إلا مالك بن وهيب الفاسي الأندلسي¹. وقد استحدث المغاربة والأندلسيون فناً في الرحلة إلى الحجاز يطلق عليه (الرحلة العلميّة) وهي معتمدة على البرامج أو الفهارس العلميّة، ومعنى البرنامج: كتاب يجمع فيه الرحالة أسماء شيوخه وأسانيده من مروياته وقراءته على أسيّاخه والمصنّفات التي درسها، ويرادفه المعجم أو الثبوت أو المشيخة²، وكان هذا المعجم يقابله مصطلح (الفهرسة) في المغرب و(البرنامج) في الأندلس، وهو من الناحية المنهجية: سجّل يضمّ قوائم بأسماء العلماء البارزين الذين تخصصوا في مختلف العلوم مثل علم القراءات وعلم الحديث والفقه واللغة العربيّة والتاريخ والشعر والأدب. من أشهر الرحالة العلميين المغاربة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي ت721هـ بفاس، وتعدّ فهرسته المسماة بـ (ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكّة وطيبة) في ستة مجلدات من أوسع البرامج أو الفهارس العلميّة لما توفّرت عليه من تراجم وافية وأسانيد مضبوطة وأسماء ومؤلفات وكتب، إلى جانب تقديمه لمعلومات قيّمة عن الطابع الحضاري الذي كانت عليه الديار المصريّة في أواخر القرن السابع الهجري³. وقد أثنى عليه كلّ من ترجم له بعلم غزير وخلق عظيم وقد تركت فيه رحلته العلميّة أثراً واضحاً في شخصيته العلميّة إذ جعلته عارفاً بعلم القراءات والعربيّة وعلم البيان والآداب والعروض والقوافي، ومشاركاً في غير ذلك من العلوم والفنون، وكان له عناية بعلم الحديث وضبط أسانيده ورجاله ومعرفة انقطاعه واتّصاله، كما كان أصيل النظر ذاكرة للتفسير حافظاً للأخبار والتواريخ وأديباً وخطيباً وبليغاً، ويحفظ الشعر، وبرنامجه العلمي يشهد على ذلك، وقد نال برنامجه حظوة

1. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 245.

2. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربيّة والأندلسيّة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8 الهجريين، د.ط. الرياض: 1996، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، ص 72.

3. ينظر: ابن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكّة وطيبة، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، د.ط. تونس: 1982، الدار التونسيّة للنشر.

حسنة لدى المغاربة فكثرت نسخه بين عامة الناس وكثرت الاختصارات عليه. وحين رجع من المشرق حلّ بمدينة سبتة، ثم كتب إليه رفيق رحلته الوزير أبو عبد الله بن حكيم للإقامة بغرناطة، فولّي منصبا مهمّا في الدولة، وكان يلقي دروسه، وبعد مقتل الوزير أبي عبد الله عزم الرحيل لكن سلطان غرناطة ترجّاه بالبقاء، لكنّه فضّل اللحاق بمراكش، و"ما لبث أن أصبح فيها محطّ الأنظار، وقدم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق، وكان شغله الشاغل بها العلم والتدريس والتحقيق إلى أن استدعاه سلطان فاس فانتقل إليها وأصبح من خواص السلطان وجلسائه، أثيرا لديه لعظيم مكانته العلميّة إلى أن توفي"¹. و لرحلته أثر كبير في إنتاجه العلمي فقد خلف مؤلّفات كثيرة مهمّة في علوم الحديث والأدب والعربيّة منها (ملء العيبة)، وقيل إنّّه لم يسبق لأحد من الرّحالة تأليف رحلة علميّة في كبر حجمها لما تحتويه من غرائب وفرائد، وتراجم واسعة لشيوخه في المدن التي درس فيها، ومن مؤلّفاته: (مقدّمة المعرفة في علو المسافة والصفة)، (الصراط السوي في اتّصال سماع جامع الترمذي)، (إفادة النصيح في مشهور رواة الصحيح وجزء في مسألة العنينة)، (المحاكمة بين الإمامين). ومن مؤلّفاته في علم النّحو: (تلخيص كتاب القوانين في النّحو)، (تقييد على كتاب سيبويه). ومن مؤلّفاته البلاغيّة: (حكم الاستعارة)، (الإضاءات والإنارات في البديع المسماة بإيراد المرتع لرائد القوافي) لشيخه أبي الحسن حازم². إلى جانب إمداد الباحثين بمعلومات هامة عن تاريخ الحجاز وأحواله السياسيّة والإداريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ومعلومات عن الحركات التعليميّة من مدارس وعلوم وكتب وعلماء إلى جانب ملاحظات جغرافيّة وعمرانيّة مهمّة عن المدن التي مرّ بها. وعن فضل مؤلّفات الرحالة المغاربة والأندلسيين عند المشاركة "فإنّ تاريخ الحجاز خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري إلى الثامن الهجري مبعر بين طيات المصادر التاريخيّة، كما أنّ ما كتب عنه لا يوضّح ما وقع فيه من أحداث ولا يتناول إلّا الجانب السياسي في أغلب الأحيان، وأنّ خير من تتبّع تاريخه من معظم جوانبه بصدق وعفويّة هم الرحالة المغاربة والأندلسيون في رحلاتهم التي تعدّ

¹ - عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص 113.

² - نفسه، ص 114.

مصدرا أساسيا من مصادر تاريخ الحجاز"¹. وكان طلاب العلم من المغرب والأندلس يرتحلون أيضا بين المدن المغاربية والأندلسية المعروفة بالعلم، فلا يكاد الطالب ينتهي من تلقّي العلم في بلده حتى يشدّ الرحال إلى المدن الأخرى العلمية المجاورة رغبة في اتّساع علومه ومعارفه وزيادة ثقافته، ولا تشتهر مدينة بعلمها إلّا إذا كان علماؤها ممّن رحلوا إلى المشرق وتزوّدوا بالعلوم المشرقية. وقد اشتهرت مدن أندلسية بريادتها في فرع معيّن من فروع العلم كإشبيلية التي اشتهرت بعلوم العربية لاسيما النحو، فكانت مقصدا لطلاب العلم من كلّ المغرب، وتلمسان التي اشتهرت بعلوم الحديث، وفاس وسبتة وغيرها... وقد تركت الرحلات العلمية من المغرب إلى المشرق أو الرحلات الداخلية داخل مدن المغرب والأندلس أثرا طيبا في ازدهار الحياة الفكرية في مختلف العلوم، وكثرة العلماء والمؤلفات، وأهمّ ميزة للرحلات اطلاع المغاربة والأندلسيين على العلوم في المشرق فجلبوا كتب المشاركة في مختلف العلوم إلى المغرب والأندلس فأكبّ عليها طلاب العلم وتزوّدوا بها فأنّج المغرب والأندلس بفضلها علماء كبار.

2 - المجالس العلمية:

. **مجالس الخلفاء:** كانت قصور الأمراء بالمغرب الأقصى وغيرها من المدن تعجّ بالعلماء، وكانت حافلة بالمذاكرات والمناظرات في العلوم المتنوعة، وقد لعب إقليم الأندلس الذي كان تابعا للدولتين المرابطية والموحدية دورا كبيرا في تزويد السلطة العليا بالبلاد بطوائف كبيرة من العلماء في مختلف العلوم، إلى جانب علماء مغاربة لا يقلّون شأنًا عنهم أثروا الحياة الفكرية والعلمية بالبلاد في مختلف العلوم. ويحضر مجالس الخلفاء علماء وأدباء وأطباء وفلاسفة أندلسيون ومغاربة، ولم تكن تختص بعلم معيّن، بل كانت تتناول كلّ العلوم، وكان لكلّ علم مجلس، فهناك مجلس للمذاكرة في الأدب، ومجلس للمذاكرة في العربية، ومجلس للفقه ومجلس للطبّ، وهلمّ جرا. وتفتتح المجالس بإلقاء الخليفة لمسألة من مسائل العلم ليبدأ العلماء بمناقشتها وتقديم معارفهم فيها، ولهذه المجالس آداب متنوعة في طريقة الكلام والإلقاء، والتزام الجدّ

¹ . عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص 504.

وحتى في الجلوس، فعند الموحدين كان يجلس إلى جانب الخليفة خطيبه فقاضي الجماعة بمراكش
فرئيس الأطباء فأكبر علماء المدينة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم¹. وفي عهد
المنصور الموحدي حلت نكبة بالفيلسوف محمد بن أحمد بن رشد الثاني (الحفيد) ت595هـ وجماعة
من الفلاسفة منهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الهري المشهور بالأصولي ت614هـ انتهت بنفيهم
على حال سيئة إلى إيسانة على مقربة من قرطبة، لأنهم لم يلتزموا بالآداب في مجلس الخليفة
المنصور. وكان المنصور الموحدي من أكثر الخلفاء حباً للمجالس العلمية وللعلماء، وكان عالم
تلمسان محمد بن أحمد بن محمد اللخمي ت614هـ الذي استدعاه إلى حضرته أكبرهم منزلة لديه
وعند أبنائه من بعده، وقد تنقّف المنصور من المجالس التي يعقدها في قصره بثقافة واسعة فقد
مكّنته من أن يكون عالماً بفنون الحديث والفقه واللغة ومشاركاً في الكثير من العلوم، وقد بلغ فيها
درجة كبيرة حتى إنّ الفقهاء يرجعون إليه في الفتاوي والاسترشاد برأيه، وله فتاوي مجموعة حسبما
أدّى إليه اجتهاده². وممّا كان يستمتع به الأمراء والخلفاء في قصورهم من مجالس العلماء
"المناظرات العلمية" بين العلماء، ولقي هذا النوع من المجالس تشجيعاً كبيراً من الحكام لما لها من
جوّ المنافسة والحماسة وإيراد الحجج حتى انتشرت انتشاراً واسعاً في مدن المغرب والأندلس. وكان
أمير المسلمين تاشفين بن علي محباً لها، وقد خصص يوم الجمعة من كلّ أسبوع للمناظرات³.
واستقدم هذا النوع من المجالس في عصر الموحدين الكثير من العلماء الوافدين على مدن المغرب
للمناظرة منهم: أبو الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الإشبيلي الذي ناظره أبو البقاء حيان بن عبد الله
الأوسي البُلنسي في مراكش حول كتاب سيبويه، وأبو بكر محمد بن طاهر الليثي الإشبيلي الذي
ناظره أبو القاسم عبد الرحيم بن الملجوم الفاسي في فاس في ثلث كتاب سيبويه. واشتهرت من
المناظرات العلمية لهذا العصر في علم النحو تلك التي جمعت بين أبي زيد السهيلي

1. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص 30.

2. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 398-399.

3. فائق كوكبة، التصنيف اللغوي والأدبي، ص 59.

ت581هـ وأبي الحسن بن خروف ت609هـ في مسائل النحو، أعجب بها العلماء وتداولوا مناقشتها وكذلك طلبة العلم وصاروا يحتجون بالحجج النحوية لكل طرف.

. **مجالس الأمراء:** كان أمراء المدن المغاربية والأندلسية التابعة للسلطة المركزية بمراكش كفاس وتلمسان وبجاية وغيرها حريصين أيضا على عقد المجالس للمناظرات والمناقشات العلمية لما لها من إثراء للأجواء العلمية وتنشيطها كمجلس صاحب سبته الأمير أبي يحيى بن أبي زكريا الذي جمع في مجلسه بين أبي الوليد الشقندي الأندلسي ت629هـ وأبي يحيى بن المعلم الطنجي المغربي في مناظرة ثرية حول المفاضلة بين الأندلس والمغرب، وكان أن طلب الأمير صاحب سبته أن تخلد المناظرة بكتابتها، فكتب كل منهما رسالته في فضل مدينته وعلمائها. ومجلس حواء بنت تاشفين للأدب . وكان تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين لأمه . الذي كان يحضره الشعراء والأدباء وكانت حواء تحاضرهم بنفسها فيه¹. ومجلس الأمير إدريس بن يعقوب المنصور الموحي الذي ولي على مالقة، فقد حرص على عقد مجالس علمية فور وصوله إلى مالقة، واستدعى لها كبار العلماء ونبهاء طلابها للمناظرات والمناقشات العلمية حتى نالت استحسان الحاضرين.

3. - خزائن الكتب: من أمثلة خزائن الكتب القديمة خزانة الإسكندرية بمصر والتي اعتبرت أروع خزانة في العالم القديم، أسسها البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد وتم تزويدها بكتب كثيرة من مكتبة أرسطو، وحظيت بشهرة كبيرة لعدة قرون². وأول خزانة كتب بالمعنى الصحيح للكلمة في الإسلام خزانة الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية ت85هـ، والذي ترجم بنفسه العديد من الكتب اليونانية في علم الكيمياء إلى اللغة العربية، كما أنها ضمت مؤلفات في شتى فنون المعرفة، ثم تليها في الضخامة والأهمية خزانة الخليفة العباسي المأمون في بغداد المسماة ببيت الحكمة، فكانتا من أعظم خزائن المسلمين³. أمّا في المغرب الإسلامي فإن

¹ . حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 418.

² . أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، تر: مصطفى طوي، ط 1. مراكش: 2003، المطبعة والوراقة الوطنية، ص 24.

³ . نفسه، ص 27.

الفترة التي سبقت القرن الخامس الهجري لم تشهد إنشاء خزائن كتب بالمعنى الدقيق لانشغال ولاة الأمر بشؤون الدين والسياسة، لكن هذا لم ينف وجودها إذ وجدت خزائن ضخمة مليئة بالكتب كخزانة بني رستم بتيهت المعروفة (بالخزانة المعصومة)، والخزانة الخاصة التي كانت بحوزة الخليفة يحي الرابع بفاس أحد خلفاء الدولة الإدريسيّة، وخزائن مدينة سبتة التي كان عددها اثنين وستين خزنة ترجع إلى الأغنياء والأعيان والعلماء كخزانة العالم عبد الرحمان بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز ت413هـ، التي كانت مفتوحة للطلبة والعلماء، وكانت خزنة كبيرة تضم مؤلفات الفقه المالكي ومخطوطات أخرى كثيرة في مختلف العلوم، وكان ابن العجوز يقيم في مدينة سبتة حلقات دراسيّة تتقّف منها طلبة كثيرون وتخرّج عليه علماء كبار أمثال القاسم بن المأمون ومحمد بن عبد الرحمان بن سليمان وغيرهم¹. وكان لسقوط بغداد تحت أقدام التتار وإتلافهم للكتب الثمينة التي تحمل الثقافة العربيّة الإسلاميّة لقرون طويلة في نهر الدجلة أثر كبير في البحث عن الكتب المتبقية واستنساخها بأيّ ثمن في مصر، فقد تبارى ولاة الأمر من أمراء وخلفاء وكتّاب ومتقّفين في الحصول عليها بأيّة طريقة وثن ووضعتها في خزائن ملكيّة أو خاصة أو عامة تلحق بالقصور والمدارس والمساجد والزوايا، وأمام هذا الأمر فإنّ خلفاء وأمراء المغرب الإسلامي عبر العصور لم يبخلوا ثمنًا في شراء واقتناء نسخة من كتاب والتباهي بها في خزائنهم، وكان للكتاب في عهدهم قدسيّة وإجلال، وعُرف عنهم جمعهم للمخطوطات النادرة والنفيسة والضائعة وتفانيهم في خدمتها، كما أنّهم لم يبخلوا في إلحاق خزائن كتب ضخمة بالمدارس والمساجد والزوايا للمساعدة في الدرس وتيسير التعليم في كلّ من فاس ومراكش وطنجة وتونس وتلمسان وبجاية وتيهت وإشبيلية وغرناطة وبلنسية وغيرها من المدن الثقافيّة وكذلك المدن الصغيرة. وخزائن الكتب ثلاثة أصناف هي: الملكيّة والخاصة والعامة.

1. **الخزانة الملكيّة:** هي خزنة شخصيّة أسسها خليفة أو ملك، وهي تختلف عن الخزائن الخاصة بغنى مجموعاتها والمتكوّنة أساسا من الكتب النادرة والفريدة والنفيسة. وقبل عهد المرابطين

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 32 - 36 - 37.

لم تذكر المصادر خزانة ملكية مهمة سوى خزانة الخليفة الإدريسي يحيى الرابع. وكان يوسف بن تاشفين قد أسس خزانة كتب ملكية ضخمة جلب إليها ما كان بخزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمان الداخل وملوك الطوائف. وحين استولى ابنه على العرش واصل درب أبيه في تجميعه للعلماء وتزويد تلك الخزانة بروائع المخطوطات من جميع أقاليم الأندلس التي بقي الكثير منها محفوظا إلى اليوم، وكان هدفه هو تأسيس مكتبة عديمة النظير من حيث المخطوطات الثمينة، وكان في هذه الخزانة مخطوطات في كل العلوم النقلية والعقلية المتداولة في عصرهم ما عدا مؤلفات العلوم الفلسفية التي كانت محظورة في الدولة المرابطية، وكانت هذه الخزانة مفتوحة أمام العلماء والمتقنين وأعيان الدولة. وفي دولة الموحدين اكتست الخزانة الملكية ثراء وشهرة أكثر من سابقتها، فقد كان الخلفاء الموحدون علماء شغوفين بالعلوم فكانوا يدفعون أموالا طائلة مقابل الحصول على المخطوطات النادرة والثرينة، وبلغت الخزانة الملكية أوج ازدهارها أيام يوسف بن عبد المؤمن الذي أمر بملئها بفروع العلوم الفلسفية التي كانت محظورة قبل ذلك فجمعت بأمره كتب في العلوم الفلسفية في حجم مكتبة الحكم الثاني بقرطبة في القرن الرابع الهجري، وكان عدد المؤلفات العلمية وحدها فيها اثني عشر ألف كتاب، ومن الكتب المهمة الموجودة فيها (نظم الدر) للحسن الرهوني وهي قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في ستة آلاف وخمسمائة بيت¹. وحظيت الخزانة الملكية في القرن السابع الهجري بنفس الرعاية والاهتمام فقد كان السلطان المريني أبو عنان رجلا متفانيا في خدمة الأدب وجمع الكتب وتزويدها بأعظم المؤلفات، وكان له مكتبتان أكبرها كانت بالقصر الملكي بفاس، والأخرى مكتبته الخاصة المتنقلة التي كان يحملها معه في رحلاته ويصحبها معه في أسفاره وكان لا ينفصل عنها أبدا وكانت عدة هذه الخزانة المتنقلة ثمانين مؤلفا، ومن كتبه التي كان يحملها معه تأليف القاضي أبي بكر بن العربي ت543هـ في تفسير القرآن الكريم المسمى ب(أنوار الفجر)، وكان هذا المؤلف

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 53.

الضخم في ثمانين ألف ورقة قضى فيه ابن العربي عشرين عاما في تأليفه¹. ويقوم على رأس خزانة الكتب عالم متبحّر ينظّم الكتب ويصنّف المعارف يسمّى (بصاحب المصاحف)، وهو إمّا فقيه أو قاض أو عالم موسوعي أو رحالة محدّث يرشد السائل إلى ما يحتاج، فكان صاحب المصاحف في الخزانة الملكيّة المرابطيّة فقيها ملكيّا، وكان هذا الذي اختاره عبد المؤمن للخزانة الملكيّة الموحدية هو الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر السرقسطي ت569هـ وهو قاض مشهور في الدولة وقد مارس مهنة الوراقة من قبل، وكذلك العالم والمحدّث أبو الحسن علي بن القطان ت628هـ² وكذلك كان للخزائن الخاصّة والعامة أصحاب مصاحف يقومون عليها.

2 . الخزائن الخاصّة: هي خزانة خاصّة بعالم أو أحد الأعيان، وقد كثر هذا النوع من الخزانات بالمغرب لأنّه كان لكلّ عالم وكاتب خزانة خاصّة به، وكانت من أشهر خزانات المغاربة خزانة العالم عبد الرحمان بن الملجوم ت605هـ التي جمع فيها كتبه وكتب أبيه عيسى الذي كان هاويا للدواوين الشعريّة، وشيخه محمد الخزرجي الجياني، وخزانة قاضي مراكش ابن الصقر الذي كان صاحب مصاحف الخزانة الملكيّة الموحدية، والتي كانت خزائنه الخاصّة أضخم خزانة في العاصمة الموحدية. وخزانة الطبيب عبد الله بن علي بن غلندو ت581هـ الذي كان شاعرا أديبا وطبيبيا وقد جمع فيها مؤلّفات الطبّ والعلوم والأدب، وخزانة محمد بن أحمد القيسي بمراكش، والخزانة الكرسيفيّة بسوس للشيخ أبي يحيى بكر بن النعمان ت685هـ الذي كان يجلب الكتب من الأندلس³... ومن الخزانات الخاصّة المشهورة في العصر المريني خزانة العالم عبد المهيمن الحضرمي والتي كانت أغنى الخزانات الخاصّة تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف

¹ . أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 88.

² . نفسه، ص 56.

³ . نفسه، ص 61 - 62.

مجلد وكانت رائعة البناء¹. وهذه الخزائن مفتوحة أمام جمهور العلماء وأصدقاء أصحاب الخزائن الراغبين في العلم والبحث، وقد أسهمت بشكل واضح في ازدهار الحياة العلميّة بالبلاد.

3. **الخزانة العامّة:** كانت مهمّة هذا النوع من الخزائن تثقيف طلبة العلم وكافة فئات المجتمع بمطالعتها أو استعارتها وكانت كثيرة وملحقة بكلّ المساجد والمدارس والزوايا في كلّ المدن. ومن أعظم الخزائن العامّة خزانة أبي الحسن الشاري السبتي الغافقي التي كانت بالمدرسة التي أسسها وكان يفد إليها طلاب العلم من كلّ جهة. وفي العصر المريني ألحق السلطان أبو عنان جامع القرويين بفاس بخزانة كتب ضخمة عام 750هـ لم يحظ جامع القرويين بمثلها قبل هذا التاريخ وزوّدها بكتب العلوم في مختلف الفروع كعلوم الدين واللغة والفكر والطب وغيرها، وكانت شهرتها في شهرة جامع القرويين وأعلن أنّها مؤسسة خيريّة لفائدة الطلبة وسمّاها من خلال النقش المصنوع على بابها بـ(الخزانة السعيدة)، وأسس خزانة أخرى بالجامع سمّاها بـ(خزانة المصاحف) زوّدها بالمصاحف الحسنة الخطوط والبهية تسهيلا على الناس تلاوة القرآن الكريم². وأراد بهما مجارة دول المشرق وأوربا في تطورها العلمي من تأسيس عدّة خزائن بالجوامع ومن أمثلة ذلك أنّ مسجد مروة بفارس كان في القرن السابع الهجري موقفا بخزانتين إحداها تسمّى بـ(العزيزة) وهي ضخمة، والأخرى (الكماليّة)، وكانت خزانة جامعة الصوريون في القرن السابع الهجري في أوّل عهدها أيضا مكوّنة من خزانتين. وقد زوّد السلطان أبو عنان الخزانة الكبيرة بجامع القرويين الحديثة البناء بكتب من خزانته الملكيّة بالقصر، وظلّت هذه الخزانة لسنوات تزوّد بكتب مهمّة من مختلف البلدان أهمّها تلك الحملة التي بعثت من إسبانيا عام 1285هـ وكانت تحمل ثلاثة عشر حملا من الكتب المهمة³. وبالعكس كلّ السلاطين الذين توالوا على عرش المغرب الأقصى في خدمة هذه الخزانة العظيمة بجامع القرويين ورعايتها، فما من ملك أو سلطان إلّا وسجّل اسمه على مصحف أو مخطوط بها، وفي القرن العاشر الهجري وسّع مؤسس الدولة السعديّة المنصور الذهبي

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 109.

². نفسه، ص 120.

³. نفسه، ص 121.

هذه الخزانة ببناء خزانة أخرى مواجهة لها وزودها بمجموعات كبيرة من روائع المؤلفات والتي لا تزال محفوظة إلى اليوم، وزودها ملك الدولة العلوية مولاي سليمان بمكتبة شيخه ابن عبد السلام الفاسي تـ1214هـ، وظلت هذه الخزانة أقدم مكتبة في المغرب وأشهرها حتى اعتبرها المغاربة أول خزانة كتب في العالم، وكانت في بداية القرن العاشر الهجري تضم اثنين وثلاثين ألف مخطوط¹. وتضاهي خزانة جامع ابن يوسف بمراكش الذي أسسه علي بن يوسف بن تاشفين خزانة جامع القرويين بفاس من حيث الضخامة والأهمية، فقد أشارت فهرسة وضعت لها في نهاية القرن الحادي عشر الهجري أنها كانت غنية جدا وكانت تضم مخطوطات في مختلف العلوم وهذه العلوم هي: المصاحف وعلوم القرآن والأحاديث النبوية وأصول الدين والتصوف والقانون والقضاء وفقه اللغة والنحو والبلاغة والتاريخ والترجمة والفلسفة والمنطق والعلوم الرياضية والطب والأدب ومؤلفات تركية، وتحتفظ إلى اليوم بألف مخطوط². وقد أرفقت كل المساجد والجامع في المغرب الإسلامي بخزانات كتب تضم مصنفات مفيدة في العلوم المدرسية وحتى غير المدرسة بها ليطالعها الطالب ويقضي بها غرضه من العلم والمعرفة، ولقد لعبت هذه الخزائن دورا كبيرا في تثقيف الناس وتعليمهم وتخرج منها علماء كثيرون، وكذلك ألحقت كل المدارس بخزائن كتب مهمة كي يكتمل بها التدريس. فقد ألحق السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق مدرسة الصغارين بخزانة كتب عظيمة أوقف عليها مجموعات كبيرة من الكتب تسلمها من ملك قسطلونة الملك شانجة، لأنه قد نصّ بند من بنود معاهدة السلم التي عقدت بين الطرفين أن يتنازل الملك شانجة الإسباني عن كل كتب المسلمين ومصاحفهم التي كانت بحوزة اليهود والنصارى لدولتهم، فبعث الملك شانجة إليه بثلاثة عشر حملا من الكتب منها كتاب الله العزيز وتفسيره كتفسيري أبي محمد عبد الحق بن عطية تـ541هـ وعبد الرحمان بن محمد أبي زيد الثعالبي تـ875هـ، ومنها كتب الحديث وشروحها ك(التهذيب) و(الاستذكار) وكتب الأصول والفروع واللغة والآداب وغيرها...³ وكان ابن خلدون أول

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 122 - 151.

². نفسه، ص 123.

³. نفسه، ص 131.

من ابتكر الشرط التذكاري حين وقّف على خزانة القرويين كتابه (العبر) حين فرغ منه مقابل شرط تذكاري. وكان المغاربة يعتمدون في الكتابة على خط جديد يسمّى بالخط المغربي وهو منحدر من الخط الأندلسي، وكلاهما منحدران من الخط الكوفي. وتمّ استعمال الورق مادة للكتابة في مدن المغرب ابتداء من القرن الخامس الهجري في دولة المرابطين حين اطلع أمراء المرابطين على الحضارة الأندلسيّة فنقلوا عنهم هذه الصناعة، لكن رغم تطوّر هذه الصناعة بالمغرب إلّا أنّ النساخين لم يتوقفوا من استعمال رقّ الماعز والغزلان مادة للكتابة نسخا وتجليدا. وقد صارت مهنة صناعة الورق من مظاهر التطوّر العلمي والرخاء وازدهرت هذه الصناعة ونتج عنها نسخ الكتب بشكل سريع ممّا أدّى إلى وفرتها وتزايد مراكز بيع المخطوطات خصوصا بشوارع الجوامع الكبرى، ففي فاس مثلا كان بها زقاق على مقربة جامع القرويين يسمّى (زقاق القرويين) لم يكن به إلّا تجار المخطوطات. أمّا جامع الكتبيين بمراكش الذي أسسه الموحدون إنّما سمّي بالكتبيين لكثرة محلات بيع الكتب، وأكّد المؤرخون المغاربة أنّ عددها كان يفوق المئات، وأكّد المستشرق ركار بارتكازه على نتائج الحفريات الأثريّة التي قام بها في هذا الجامع أنّه سمّي كذلك لأنّه يوجد أسفله مائتان متجر لتجار المخطوطات¹. وكان فنّ التفسير أو التجليد في المغرب في غاية الإتقان والأهميّة والمغاربة أكثر تقدّما وإتقانا فيه من المشاركة، وقد قامت هذه الصناعة بدور كبير في حفظ عدد كبير من المؤلّفات من التمزّق وعوامل الدهر. واحتلت مؤلّفات الفقه المالكي وفروعه مكانا كبيرا في خزائن دولة المرابطين من ملكيّة وخاصّة وعامّة، إذ كان الأمراء المرابطون يغالون في هذا المذهب الذي كان مبدأ دولتهم فكانوا يحثّون الفقهاء على التّأليف فيه فكان هؤلاء يستجيبون لهم فيكثر من المؤلّفات والشروحات وظهرت حركة تأليف كبيرة أتاح لها خزائن خاصّة بهم، في حين كانت مؤلّفات الفلسفة وأصول الدين والتصوّف محظورة في جميع خزائن الدولة المرابطيّة خوفا من تسلل الأفكار المضلّة إلى العقول. أمّا في دولة الموحدين فقد انفتح العلماء على تلك العلوم المحظورة في الدولة السابقة، وامتألت خزائنهم بمؤلّفات الفلسفة وأصول

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 234 - 236.

الدين والتصوّف ودعا الخلفاء إلى ترجمة الآثار الفلسفيّة اليونانيّة وشرحها مثلما أمر الخليفة المنصور الموحي ابن رشد بترجمة مؤلّفات أرسطو إلى العربيّة، إلى جانب مصنّفات قيّمة في شتى أصناف العلوم والمعارف. وفي عصر بني مرين في القرن السابع فإنّ الدولة شهدت ثراء معرفيّا لم يسبق له مثيل أثرى الخزائن بأصناف متنوعة من المؤلّفات في مختلف العلوم النقليّة والعقليّة. وطالما اعتبرت خزائن الكتب بمدن المغرب الإسلامي منجما ثريا للاكتشافات إذ تزرخ بالمخطوطات الفريدة والنادرة والنفيضة التي طالما اعتبرت لمدة طويلة ضائعة من طرف علماء المشرق والمغرب، ومن أمثلة ذلك اكتشاف بزواية تمكروت بالمغرب الأقصى أقدم مخطوط عربي في العالم وهو كتاب في علم أنساب قريش يسمّى (حذف من نسب قريش) لمؤرّج بن عمرو السدوسي ت195هـ، واكتشاف بخزانة مسجد بوسط المغرب الأقصى مؤلّف الجاحظ (البرصان والعميان والحوالان والعرجان) الذي اعتبر ضائعا لمدة طويلة وهو محفوظ اليوم في خزانة القرويين بفاس، وفي هذه الخزانة اكتشفت أربعة مجلدات عن سيرة ابن إسحاق ت151هـ وذلك عام 1934م وقبل هذا التاريخ لم يكن يعتمد فيه إلّا المختصر الذي قدّمه له ابن هشام ت213هـ، وكان الباحث المصري المعاصر الأستاذ أحمد زكي الذي كتب عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قد عبّر عن أمله في أن يجد يوما النسخة الأولى من سيرة ابن إسحاق، والتي وجدت بعدها في خزانة القرويين¹. ومن المخطوطات النادرة التي وجدت بخزائن كتب المغرب كتاب الجاحظ المسمّى (كتاب التاج وأخلاق الملوك) وقد حقق هذا المؤلّف الأستاذ أحمد زكي، واعتمد في تحقيقه على ثلاث نسخ لم تكن تحمل أدلّة كافية لانتساب هذا الكتاب إلى الجاحظ، وقد خصص الأستاذ أحمد زكي جزءا كبيرا من المقدّمة لمعالجة هذه القضية وتوصّل في الأخير إلى أنّ المؤلّف للجاحظ، وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق شارل بلا إلى الفرنسيّة ولم يكن مقتنعا من نسبة أحمد زكي هذا المؤلّف إلى الجاحظ، إلّا أنّه في عام 1934م تمّ اكتشاف بخزانة القرويين نسخة من هذا الكتاب في عدّة أجزاء كتبت بخط أندلسي على الرقّ تحمل الصفحة الأولى من كلّ جزء عنوان الكتاب

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 272 - 273 - 274.

واسم الجاحظ عليها. وهناك مؤلفات أخرى نادرة محفوظة بخزانة القرويين ككتاب (الصاهل والشاحج) لأبي العلاء المعري، وكتاب (الزهد) لأبي داود السجستاني و(الجامع الكبير) في ستة مجلدات للسيوطي¹. وكانت المخطوطات اليونانية واللاتينية التي اعتبرت ضائعة كثيرة في خزائن المغرب وهي محلّ اهتمام الكثير من المستشرقين منها المؤلف الكبير (عشریات تیت لیف) عن التاريخ الروماني القديم قبل الميلاد وهذا المؤلف الذي طالما بحث عنه المستشرقون في خزائن كتب أوربا لكن دون جدوى، لكن المستشرق ليفي بروفنسال كان يظنّ صحيح الظنّ أنّ هذا المخطوط الضائع موجود في المغرب في خزائنه الكثيرة وأنّه ترجم إلى العربية وسيعثر عليه يوما في المغرب ودليله في ذلك أنّ عبد الرحمان بن خلدون كتب في مؤلفه (العبر) عن معركة كان cannes حكاية صحيحة من حيث الأحداث والتواريخ وهي معركة شهيرة بين الرومانيين والقرطاجيين، وتساءل هذا المستشرق عن كيفية حصول ابن خلدون على تلك المعلومات لو لم تكن النسخة موجودة في المغرب². وكان الغالب في خزائن الكتب في المغرب الإسلامي عموما مؤلفات الفقه والنحو على غيرها من العلوم نظرا لطبيعة المعارف التي كانت تدرّس في مختلف المعاهد الدراسية عبر العصور التي توالى على المغرب، فالفقه كان أساس التدريس والتكوين لكلّ طالب، فكلّ شاعر أو أديب أو عالم لابدّ أن يكون ملماً بالفقه أولاً، وبعده علم النحو ليفهم به دقائقه، فكانت الثقافة المغاربية القديمة شبه مقتصرة على الفقه والنحو حتى إنّ هناك مثلاً قديماً يتداوله طلاب الجامعات يقول "سيدي خليل والألفيّة" فسيدي خليل إشارة إلى المختصر في الفقه المالكي المشهور بين المغاربة للمصري سيدي خليل الذي لخص مدرسة مالك في شكلها النهائي، والألفيّة إشارة إلى ألفيّة ابن مالك التي لخصت كلّ النحو العربي في ألف بيت³. وقد لعبت هذه الخزائن المتنوعة المفتوحة أمام طلاب العلم دوراً كبيراً في

¹. أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 276 - 277.

². نفسه، ص 279.

³. نفسه، ص 281 - 282.

ازدهار الحركة العلميّة ببلاد المغرب بتخريجها لعلماء متضامّين في مختلف العلوم، وشهدت أيضا على أهميّة الحضارة الإسلاميّة ببلاد المغرب الإسلامي.

. خلاصة الفصل: إنّ المؤسسات التعليميّة التي مرّ ذكرها كان التعليم فيها إجباريا ويمرّ بمراحل من الكتاتيب إلى المساجد إلى المدارس، وهو تعليم أكاديمي يشبه التعليم في عصرنا هذا من الابتدائي إلى المتوسط والثانوي، وتلقّى المغاربة العلوم المتنوّعة على أنبه الأساتذة المتخصصين الذين استدعوا خصيصا للتدريس بامتحانهم قبل تسليمهم الوظائف، وكتب الدراسة ومناهجهم التعليميّة في الفترة التي تحدّثت عنها كانت ثريّة بأحسن الكتب المؤلّفة في موضوعها وأحدثها، وكانت النتيجة أن تخرّج فيها أنبه النّحاة واللغويين والعلماء الذين تباهى بهم المغرب الإسلامي، رفعوا من قدره في الوقت الذي بدأت فيه الجيوش الصليبيّة زحفها نحو المشرق لطمس حضارته والنيل من الثقافة العربيّة الإسلاميّة.

الفصل الثالث:

الاتجاهات النحويّة بالمغرب

الإسلامي.

الفصل الثالث: الاتجاهات النحويّة بالمغرب الإسلامي.

- 1 - النّحو البصري في المغرب.
- 2 - النّحو الكوفي فيه.
- 3 - النّحو البغدادي فيه.
- 4 - النّحو المصري فيه.
- 5 - النّحو الأندلسي فيه.
- 6 - ظهور النّحو المغاربي.
- 7 - أشهر نحاة المدرسة المغاربيّة.
- خلاصة الفصل.

تمهيد: لم تكن حواضر المغرب الإسلامي بمنأى عن التطوّر العلمي الذي عرفته مدن المشرق منذ القرون الأولى للهجرة في علوم اللغة وعلوم الدين والعلوم العقلية، إذ تجسّم أفرادها عناء السفر إلى مراكز العلم فيها كالבصرة والكوفة وبغداد ومصر والشام منذ وقت مبكر لمجالسة علمائها والأخذ عنهم، والتطلّع إلى مجاراتهم في طلب العلم وحصول الملكة واقتناء نسخ من كتبهم ثم العودة إلى المغرب للتعريف بها تدريسا وتأليفا. فظهرت أعلام مغربية بارزة في علم النحو تصدّت لشرح أشهر الكتب المشرقية أو تلخيصها أو النظر في مسائلها وشواهدا لتذليل صعوباتها أمام الدارسين لها، وظهرت كتب نحوية كثيرة مغربية وأندلسية عملت جنبا إلى جنب مع هؤلاء الأساتذة على نموّ الحركة النحوية بالمغرب واستمرارها على ركائز قوية، فكانت أشهر الكتب النحوية التي ساعدت على إيجاد الحركة النحوية بالمغرب من القرن الخامس إلى الثامن الهجري: في القرنين الخامس والسادس بالمغرب الموحد: كتاب سيبويه . الجمل للزجاجي . الإيضاح للفارسي . ألفية ابن مالك . مقدّمة الجزولي . شروحات الجمل وشروحات الإيضاح وشروحات كتاب سيبويه. وفي القرن السابع بالمغرب الأدنى: كتاب سيبويه . الجمل للزجاجي . المفصل للزمخشري . وكتب ابن مالك وما شابهها من المختصرات. وفي المغرب الأوسط في القرن السابع: كتاب سيبويه . الجمل للزجاجي . الإيضاح للفارسي . مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري . وكتاب النحاة لابن سينا. وفي المغرب الأقصى: كتاب سيبويه . الجمل والإيضاح . التسهيل لابن مالك . والمختصرات النحوية التي كانت رائدة آنذاك والتي كانت من مؤلفات العصر: المقدّمة الآجرومية لابن آجروم . المقدّمة الجزولية الجزولي . والقوانين النحوية لابن أبي الربيع الإشبيلي السبتي.

1 - النحو البصري في المغرب: أمثّل للنحو البصري ببلاد المغرب ب(كتاب

سيبويه) لأنّه الكتاب الذي أكبّ عليه المغاربة منذ أن دخل بلادهم في القرون الأولى للهجرة، كما أنّه احتلّ صدارة المؤلفات النحوية التي تخرّج عليها النحاة المغاربة وقد تخصص في دراسته وتدريسه عدد كبير منهم في مختلف مدن المغرب في مختلف العصور .

...كتاب سيبويه: هو من تأليف أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه ت180هـ ومعروف عن الكتاب أنّه سجّل لآراء وأقوال من تقدّمه من العلماء البصريين الأوائل المستقرّين لكلام العرب، فقد قيل عن الخليل إنّّه قد أمّده بألف ورقة من علمه، وأمّده أيضا يونس بن حبيب بعلمه وكذلك عيسى بن عمر وغيرهم، مع ما استتبطه بنفسه من استنتاجات وابتداع لقواعد وفيه نحو 900 رأي لعلماء نحويين سابقين، ونحو 400 آية قرآنيّة أحسن اختيارها للتدليل على قواعد النّحو أو على طرائق التعبير، والأساليب اللغويّة المتّبعة، وأكثر من 1050 بيتا من الشعر العربي للاستشهاد بها على وجهة نظر لغويّة أو نحويّة أو صرفيّة، صنّفت في فصول وأبواب بتخطيط واضح، ومناقشتها استنادا إلى أقوال العرب الخالص المتّصلة بها بمعارضتها حيناً والموافقة حيناً آخر وإبداء الرأي طورا والاهتداء إلى الاستنتاج المنطقي طورا آخر¹. ولهذا الكتاب مكانة مرموقة بين كتب النّحو واللغة قديما وحديثا، كما حظي بأقوال ماثورة كثيرة تعظيما وتقديرا لمكانته العلميّة كقرآن النّحو والبحر في غزارة مادته وصعوبة التغلّب عليها، وبلغ الأمر بأبي عثمان المازني ت249هـ أن قال: "من أراد أن يضع كتابا في النّحو بعده فليستح" لأنّه يقدّم بنظرهم حشدا هائلا من المعارف العربيّة التي يصعب الحصول عليها في غيره، يقول الأستاذ حسن عون عن مكانته العلميّة بين الكتب: "أيّ كتاب غير كتاب سيبويه يمكنه أن يقدّم لنا أبحاثا في الأصوات وفي طبيعتها، وفي صلتها باللغة كوسيلة للتفاهم من ناحية وكأداة للإفصاح والبيان من ناحية أخرى، وأبحاثا في الصرف ومجالاته المختلفة، وأبحاثا في المعاني والبيان والبدیع، وأبحاثا في الأدب والنقد الأدبي، وأبحاثا في الرواية والسند المتصلين بمتن اللغة، وأبحاثا في التجويد والقراءات القرآنيّة، وأبحاثا في فقه اللغة وما يندرج تحته من مسائل وقضايا، وأبحاثا في موسيقى اللغة والعروض، وأبحاثا في لهجات العرب ودرجاتها من القوّة وما يترتّب على ذلك من مذاهب وآراء، نقول: أيّ كتاب غير كتاب سيبويه يمكنه أن يقدّم لنا كل ذلك؟"²

¹. حسن عون، تطوّر الدرس النّحوي، ص 48.

². نفسه، ص 53.

وقد انكب عليه العلماء في جميع الأمصار العربيّة، على دراسته وتحصيله والحصول على نسخ منه، وكانت مدارسته على أحد العلماء المتخصصين شهادة بالمقدرة في اللغة والنحو تمنح صاحبها الحقّ الأدبي في تدريس النحو وإقرائه والتأليف حوله، لذا كان طلابه ينتقلون من مصر إلى آخر سعيًا لمدارسته وفهمه. وذاع اسمه في جميع الأمصار التي لها صلة بالحضارة العربيّة شرقًا وغربًا، "وصار في المغرب والأندلس كتابهم المقدّس في العربيّة، وإليه تؤوّل فضيلة النهضة الأندلسيّة المغربيّة، فقد شغف به الأندلسيون والمغاربة، وتنافسوا في إظهاره إذ كان حفظه عندهم شارة النبوغ في العربيّة"¹، وكثر بالمغرب والأندلس العلماء الذين تخصصوا فيه، وعدد هؤلاء العلماء الذين اتّخذوه دستورًا في النحو بالدراسة المستفيضة والفهم العميق لمسائله ثم التأليف فيه وعنه بالشرح لنصوصه أو التعليق عليها، بالاستنباط لقواعده تارة أو تلخيصها تارة أخرى في سائر الأقطار يقرب من مائة عالم، وأنّ أهمّ قطر في ارتفاع عدد هؤلاء العلماء هي بيئة الأندلس والمغرب؛ إذ وجد فيها ما يزيد على الأربعين عالمًا²، على أن يكون العالم المتخصص في الكتاب قد قرأه على علماء، وأن يكون قد ألّف كتابًا حوله أو مجموعة من الكتب في توضيح لما غمض أو شرح لما تعسّر فهمه أو حصر للأحكام النحويّة أو الصرفيّة، ومن هؤلاء العلماء في المشرق المبرّد الذي عدّ من علماء سيبويه لأنّه ألّف في كتابه أكثر من كتاب، فبعد أن قرأ كتاب سيبويه قراءة علميّة واعيّة على الجرمي، وأتمّ هذه القراءة على المازني وبعد أن حلل أحكامه وألّم بمسائله وأحاط بما فيه اتّخذ موضوعًا لأبحاثه وتأليفاته، حيث ألّف خمسة كتب مختلفة هي: كتاب المدخل إلى سيبويه، كتاب الردّ على سيبويه، كتاب الزيادة المنتزعة من سيبويه، كتاب شرح شواهد كتاب سيبويه، كتاب معنى كتاب سيبويه³، وغيره من العلماء.

¹. محمد طنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص 221.

². حسن عون، تطوّر الدرس النحوي، ص 53.

³. نفسه، ص 54.

ولم يعرف على وجه التعيين أول من أدخل كتاب سيبويه بلاد المغرب، إلا أنه عُلم بوجوده فيه منذ القرون الأولى للهجرة لأنه عُرف عن حمدون النحوي محمد بن إسماعيل المعروف بالنعجة المتوفي بعد المائتين وهو من نحوي الطبقة الثالثة بالمغرب في ترتيب طبقات الزبيدي أنه أول من حفظ كتاب سيبويه بالمغرب وقد أُلّف في النحو كتبا. وممن حفظ كل كتاب سيبويه إبراهيم بن عثمان القيرواني المعروف بابن الوزان ت346هـ، ذكره الزبيدي في الطبقة الرابعة من نحوي المغرب كان أعلم الناس بحدود النحو بالمغرب، وانتهت إليه علوم العربيّة منذ حداثة سنّه، وقد حفظ أيضا كتاب العين للخليل وكتاب المصنّف لابن عبيد وإصلاح المنطق لابن السكيت، وله ميل إلى نحو البصريين خصوصا المازني مع علمه بقول الكوفيين وله أوضاع في اللغة والنحو. وكان محمد بن عبد المنعم الصنهاجي أبو عبد الله السبتي ت750هـ أيضا ممن حفظ كل الكتاب حتى إنّه كان يسرده بلفظه، وكان يعرب كلامه أبدا حتى صار آية تتلى ومثالا يضرب في علم النحو¹.

وتصدّى لتدريسه في مختلف مدن المغرب الثلاثة علماء كبار أمثال: قاضي الجماعة بمراكش محمد بن علي بن يحيى أبو عبد الله المراكشي ت682هـ المعروف بالشريف كان يدرّسه بمراكش، وقرأ عليه جماعة من النّحاة أمثال أبي عبد الله السبتي المذكور، وإبراهيم بن عبد السلام الصنهاجي المراكشي ت716هـ المعروف بأبي إسحاق العطار شارح الجزوليّة والذي خلفه في إقراء الكتاب بمراكش²، وكان عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم السبتي الحضرمي ت750هـ بمسائل الكتاب عارفا ولم يكن له بالمعرفة به قرين وتصدّر لإقراءه وهو ابن عشرين³، وممن درّسه بسبّة تلاميذ علي بن محمد أبي الحسن بن خروف الأندلسي ت609هـ حين نزل بالمغرب الأقصى، حملوا عنه الكتاب بشرحه له كابن رحمون عبد الرحمان بن محمد المصمودي

¹. السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 1. د ب: 1964، مطبعة عيسى

البابي الحلبي وشركاه، ج 1، ص 164.

². نفسه، ج 1، ص 194.

³. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 317.

ت648هـ ومحمد بن يحيى العبدري الفاسي ت651هـ¹. ومن كبار نحاة المغرب الأوسط الذين تصدّوا لتدريسه: محمد بن الحسن بن ميمون القلعي ت673هـ الذي كان يدرّسه ببجاية إلى جانب كتب نحويّة أخرى، وعبد الله بن محمد الأغماتي المتوفي في القرن السابع الهجري تصدّر لتدريسه هو كذلك ببجاية، وكان يفقهه فقها حسنا إذ كان من أعلم الناس به، وكان يقرن مسائله بعضا إلى بعض ويدرك مقاصده إدراكًا دقيقًا.

ومن العلماء المغاربة الذين ألفوا في كتاب سيبويه: محمد بن الحسن الفهري المعروف بابن المحلي ت661هـ، وهو من تلامذة ابن خروف بالمغرب الأقصى له كتاب (تقييدات على كتاب سيبويه)²، ومنهم ابن رشيد الفهري السبتي الرحالة المحدث المولود في سبتة عام 658هـ والمتوفي بفاس سنة 721هـ له مؤلّفات كثيرة منها: (تقييد على كتاب سيبويه) وكتاب (تلخيص كتاب القوانين في النّحو)³، ويحيى بن معط الزواوي المغربي ت628هـ صاحب المؤلّفات النّحويّة البارزة، له كتاب (شرح أبيات سيبويه) نظما.

ولا ينكر فضل النّحويين الأندلسيين الوافدين على حواضر المغرب المختلفة في كلّ المغرب الثلاثة في هذا المجال، إذ تصدّوا لتدريس الكتاب في مختلف المراكز الثقافيّة فيها حتى صار الكتاب الأول في النّحو واللغة، وعرف المغاربة النّحو من خلاله، أمثال أبي بكر بن طاهر الخدب ت580هـ الذي درّسه بفاس وبجاية وتونس، وعبد الرحيم بن عيسى بن الملجوم ت604هـ الذي أكّب على تدريسه بجامع القرويين لمدة طويلة، وابن خروف الإشبيلي ت609هـ الذي درّسه بفاس ومراكش، وإبراهيم بن عيسى أبي إسحاق القرطبي المعروف بابن المناصف ت627هـ درّسه بمدن تونس وكان وحيد زمانه بذلك القطر⁴، وأحمد بن محمد بن أحمد الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الحاج ت647هـ الذي درّسه بفاس وسبتة وسلا. وكان الكتاب أساس كلّ الدراسات النّحويّة بحواضر

¹. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 347.

². نفسه، ص 347.

³. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص 114.

⁴. السيوطي، البغية، ج 1، ص 421.

المغرب، على رأس كلّ الكتب النحوية وكتابهم الأول في كلّ علوم اللغة، بالجوامع والمدارس، في دولة المرابطين والموحدين والحفصيين والزيايين والمرينيين وغيرها، ويضاهيه في الأهمية والشهرة بالمغرب كتابان مهمّان في الدراسات النحوية وهما: كتاب الجمل للزجاجي وألفية ابن مالك، انكب عليهما العلماء المغاربة في مختلف العصور على شرحهما أو تلخيصهما، وتصور كتب التراجم والطبقات أعدادا هائلة للمتخصصين المغاربة فيهما، إلى جانب زمرة أخرى من الكتب المهمة.

2 - النحو الكوفي في المغرب: لم يحظ النحو الكوفي بكبير اهتمام من النحاة المغاربة

ولم تحظ كتبهم بالدراسة والنظر فيها بقدر اهتمامهم بكتاب سيبويه، رغم أنّهم عرفوا هذا النحو منذ وقت مبكر، فالمصادر تشير إلى أنّ جودي بن عثمان ت198هـ قد ورد العراق وأخذ النحو عن علي بن حمزة الكسائي ت189هـ ويحي بن زياد الفراء ت207هـ والعباس بن فرج الرياشي ت257هـ، وكان أول من أدخل كتاب الكسائي المغرب ثم رحل به واستقرّ بقرطبة بالأندلس، كما تشير المصادر إلى أنّ كتاب سيبويه كان متداولاً بين المغاربة في نفس الفترة التي كان فيها كتاب الكسائي رغم أنّه لم يعرف على وجه التخصيص أول من أدخله البلاد المغاربية، لكن سرعان ما تلقّف المغاربة كتاب سيبويه وفضّلوه على كتاب الكسائي حتى صار عمدة الدراسات النحوية في كلّ العصور وأساس مناهجهم التعليمية. وتجدر الإشارة إلى أنّ النحو الكوفي كان مبسوط العرض في مناهجهم التعليمية ومن أمثلة ذلك أنّ تفسير أبي جعفر الطبري ت310هـ المعروف بـ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) المشهور بين المغاربة في علوم التفسير في مختلف المؤسسات التعليمية وفي كلّ المراكز الثقافية كان على المذهب الكوفي، وكثيراً ما كان الطبري يبيّن بين طياته آراء الكوفيين في مسائل النحو ومصطلحاتهم وأصولهم، وكثيراً ما كان يطنب فيها القول بين شرحه للآيات، فكان للمغاربة أن اختاروا بين الآراء الكوفية ما وافق تفكيرهم، وعُرف عن محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المشهور بابن أجروم ت723هـ أنّه أكثر النحاة المغاربة تأثراً بالنحو الكوفي من خلال اختياراته لبعض آرائهم. أمّا كتاب (معاني القرآن) ليحي بن زياد الفراء ت207هـ فقد حظي بقدر لا بأس به من الاهتمام والدراسة واعتمد في التدريس في المغرب والأندلس فكان

أبو بكر الخدب الأندلسي يقول: "إنّ الكتب التي ينبغي الاعتماد عليها في الصناعة النحوية هي كتاب سيبويه وأصول ابن السراج وإيضاح الفارسي ومعاني الفراء، وأنّ ما عداها في الصناعة مطرَحٌ"، وقد تصدرّ الخدب لتدريس النحو في الكثير من المدن المغاربية والأندلسية.

3 - النحو البغدادي في المغرب: أشهر الكتب التي تمثل نحو البغداديين بالمغرب

كتاب (الجمال) للزجاجي و(الإيضاح العضدي) لأبي علي الفارسي و(المفصل) للزمخشري.

. كتاب الجمال للزجاجي: من تأليف أبي القاسم عبد الرحمان بن إسحاق المعروف بالزجاجي

ت339هـ وقيل و40، من المدرسة النحوية البغدادية، تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن السري الملقب بالزجاج ت316هـ الذي كان يخرط الزّجاج ببغداد، أخذ عنه ولازمه مدة فنُسب إليه. والزجاج من أصحاب أبي العباس المبرّد، أخذ عنه وأخذ أيضا عن أبي العباس ثعلب، ذكره الزبيدي في الطبقة التاسعة من نحويي البصرة، أمّا الزجاجي فمن الطبقة العاشرة. والزجاج بصري النزعة شديد التعصّب للبصريين والدفاع عنهم، روي عنه أنّه دخل يوما دار ثعلب فوجد عنده أبا موسى الحامض ت305هـ استطرد ثعلب والحامض الحديث إلى ذمّهما المبرّد ثم سيبويه ويونس، فاجتأط الزجاج لذلك فردّ عليهما أن خطأ ثعلبا في نصف كتابه (الفصيح) واعترضه في عشر مسائل في حين أنّ كتاب (الفصيح) كلّه عشرون ورقة ! حتى قيل عن ثعلب أنّه كان ينكر نسبة كتاب (الفصيح) إليه¹. وحملت النزعة العصبية للمذهب الكوفي أن خطأ الزجاج في اعتراضاته على ثعلب نحوي بغدادي آخر وهو أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بابن خالويه ت370هـ. ألف الزجاجي كتابه (الجمال في النّحو) على المذهب البصري مستتيرا بأستاذه الزجاج الذي فقّهه في أكثر مسائل النّحو، وهو كتاب للناشئة ميسر الأسلوب ومختصر المسائل مع الاستطراد في الأمثلة، يقول عنه صاحب الإنباه "إنّه كتاب مبارك ما اشتغل به أحد إلّا انتفع"²، وسبب اشتهاره بالمغرب والأندلس أنّه كتاب لخصّ مذهب البصريين في النّحو بأسلوب ميسر مع طوله بالأمثلة

¹. محمد طنطاوي، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، ص 172-173.

². القفطي، إنباه الرواة، ج 2، ص 160.

على طريقة سيبويه، "وهو أوّل مؤلّف مدرسي في متناول المتعلّمين، فالكتب التي سبقته كانت مجملّة موضوعة لذوي الاختصاص لا تكتمل الاستفادة منها دون الاستعانة بشيخ ممتدرس، وقد رأينا صعوبة كتاب سيبويه حملت المبرّد إلى تقريب معانيه في المقتضب وابن السراج إلى تنظيم مواضيعه، أمّا الزجاجي في كتابه الجمل فقد اعتمد التقريب والتنظيم والاختصار والوضوح، وهذه الميزات جعلته يحتل الصدارة طيلة قرون، ويلقى رواجاً كبيراً عند المغاربة بصفة خاصة"¹. واشتهر أيضاً في معظم الأمصار العربيّة يقول عنه القفطي: "إنّه كتاب المصريين وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام إلى أن اشتغل الناس باللمع لابن جني والإيضاح لأبي علي الفارسي"²، وقد صنّفه بمكة المكرّمة، وكان كلّما يفرغ من باب من أبوابه يطوف به أسبوعاً ويدعو الله أن يغفر له وأن ينتفع به قارئه فلماذا انتفع به الطلبة. وله كتب نحويّة أخرى هي: الإيضاح في علل الذّحو، الكافي، شرح كتاب الألف واللام للمازني، شرح خطبة أدب الكاتب، اللامات، الأمالي، المخترع في القوافي³، وطريقته في كلّ مصنفاته النحويّة متوسطة يقصد بها الإفادة. واشتهر بالمغرب كتاب آخر في المنطق يسمّى (الجمل) للخونجي تـ648هـ، له تداول كبير بين المغاربة كثرت شروحاته وشروح شروحاته عندهم.

وجمل الزجاجي من الكتب النحويّة الميسّرة الرائدة في المغرب والأندلس، تصدّى لتدريسها بمختلف المؤسسات التعليميّة وشرحها أو تلخيصها الكثير من العلماء المغاربة والأندلسيين، فبسطت البساط للمذهب البصري في تكوين الفكر النحوي عند الناشئة، مثلاً فعله كتاب سيبويه، يقول الأستاذ محمد المنوني: "إنّه من محفوظات الناشئة في العصر المريني الأول، وفي المتوسط: الإيضاح للفارسي والتسهيل لابن مالك والمقدّمة الجزوليّة والقوانين النحويّة لابن أبي الربيع الإشبيلي والمقدّمة الآجروميّة، أمّا كتاب سيبويه فيتفقّه فيه طلبة المستويات

¹. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص 165.

². القفطي، إنباه الرواة، ج 2، ص 161.

³. السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 77.

العاليّة¹. وممّن تصدّى لتدريس الجمل بالمغرب الأوسط في القرن السابع يوسف بن يخلف الجزائري، كان يشرحه لطلابه إلى جانب مجموعة أخرى من الكتب التعليميّة منها: الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب المفصل لمحمود بن عمر الزمخشري تـ 538هـ ومقدّمة ابن بابشاذ المصري تـ 469هـ وقانون أبي موسى الجزولي تـ 605هـ². وممّن شرحه وألف فيه في المغرب الأوسط: علي بن عبد الله بن ناشر بن المبارك الوهراني تـ 615هـ له كتاب (شرح شواهد الجمل للزجاجي)، وله تصانيف أخرى منها (تفسير القرآن الكريم) و(شرح المعلّقات السبع وإعرابها)³. وشرحه يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي تـ 628هـ صاحب الألفيّة وسمّاه (شرح كتاب الجمل للزجاجي)⁴، وممّن شرحه من الأندلسيين ابن أبي الربيع الإشبيلي تـ 688هـ نزيل سبتة، له على كتاب الجمل عدّة شروحات أعظمها: كتاب (البسيط) في عدّة مجلّدات، وممّن شرح (البسيط) من المغاربة: علي بن محمد بن علي التازي أبو الحسن بن بري المغربي تـ 731هـ⁵، وغيره ممّن عني به.

- الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي: من تأليف الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبي علي الفارسي تـ 377هـ ويعرف بالفسوي نسبة إلى فسا المدينة التي وُلد بها بأرض فارس، نحوي من المدرسة البغدادية، كان ينتخب من المدرستين ما غلب عليه صحّة ظنّه وإن غلب عليه النزوع إلى المذهب البصري ما جعل الزيدي يسلكه في الطبقة العاشرة من نحوي البصرة، وهو من أصحاب محمد بن السري أبي بكر بن السراج تـ 316هـ، وابن السراج من أصحاب أبي العباس المبرّد. أخذ النّحو عن علماء النّحو البارزين حتى علت منزلته في النّحو واشتهر ذكره في الآفاق، و"شأنه في العلم شأن يونس الضبي من قبله، إمام في اللغة والنّحو

¹. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 313.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 91.

³. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 2. بيروت: 1980، مؤسسة نويهض الثقافية، ص 349.

⁴. نفسه، ص 176.

⁵. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 315 - 316.

والقراءات أخذ عن شيخ القراء أبي بكر بن مجاهد ت324هـ ودرس على الزجاج وسمع من ابن السراج كتاب الأصول وشرح جملة، واتصل بأبي بكر بن دريد ت321هـ وكتب عنه مصنفه في الاشتقاق، كما كان على صلة علميّة وثيقة بعلماء عصره أمثال: أبي سعيد السيرافي ت368هـ ومحمد بن أحمد بن الخياط ت320هـ وأبي عبد الله بن خالويه ت370هـ وعلي بن عيسى الرمانى ت384هـ وغيرهم¹. خدم الملوك وعاش في كنفهم أقام عند سيف الدولة بحلب مدة استقدمه عضد الدولة ملك دولة بني بويه حين كان بشيراز فتوجّه إليه حتى قال فيه "أنا غلام أبي علي النحوي الفسوي في النحوي"².

صنّف أبو علي كتباً نحويّة كثيرة عجيبة لم يسبق إلى مثلها أحد كما يقول صاحب الإنباه، وبرع له غلمان حدّاق أمثال أبي الفتح عثمان بن جني ت392هـ وعلي بن عيسى الشيرازي وغيرهما.

من مؤلّفاته: كتاب التذكرة الكبير، المقصور والممدود، الحجّة في القراءات السبع، العوامل المائة، تعليقات على كتاب سيبويه، واتّبعت عادة وهي أن ينسب إملاءاته إلى المدن التي سئل فيها فمن ذلك: (المسائل العسكرية) نسبة إلى عسكر مكرم، و(المسائل القيصرية) نسبة إلى قيصر بن هبيرة بالكوفة، و(المسائل الحلبيات) و(المسائل البصريّة) و(المسائل البغداديات) و(المسائل الشيرازيّة) وغيرها³. وكتاب (الإيضاح في النحوي) ألفه لعضد الدولة البويهى، لهذا يعرف بالإيضاح العضدي ويمثّل كتاب (التكملة) الجزء الثاني لكتاب الإيضاح وهو مشتمل على موضوعات علم الصرف.

و(الإيضاح) كتاب تعليمي مشتمل على موضوعات علم النحوي بأسلوب سهل وميسّر، نال شهرة واسعة واعتمده الكثير من الأساتذة والدارسين في المشرق والمغرب وأشادوا به نظماً ونثراً وكثرت الشروحات عليه، ويعتبر ثاني كتاب مدرسي بعد جمل الزجاجي بالمغرب. وهو من أهمّ

¹. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحوي في المشرق والمغرب، ص 185.

². القفطي، إنباه الرواة، ج 1، ص 308.

³. نفسه، ج 1، ص 309.

الكتب التعليميّة في حواضر المغرب الإسلامي لما فيه من بساطة العبارة، ولأثّه على المذهب البصري الذي حرر أقيسة النّحو وشرح علّه، وهو مؤلّف أدرج في المستوى المتوسط بحواضر المغرب كان يُدرس بالجوامع من قبل أساتذة علماء مغاربة وأندلسيين. وممّن ألف فيه: محمد بن إبراهيم بن محمد السبتي المالكي ت695هـ قرأ النّحو على ابن أبي الربيع الإشبيلي بسبته، واختصر له الشرح الموسّع على مصنّف الإيضاح الذي سمّاه ابن أبي الربيع (الكتاب الكافي في الإيضاح عن مسائل كتاب الإيضاح)¹، ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي ت673هـ الذي تصدّى لتدريسه والتأليف فيه، و"كان لغويا ونحويا كبيرا مثل يحيى بن عبد المعطي بالمغرب الأوسط، قويا في علم التصريف ومحبا للتعليل، جاريا على سنن أبي الفتح بن جني، تقرأ عليه جميع الكتب النحويّة واللغويّة والأدبيّة ويقوم على جميعها أحسن قيام، ومن كتب النّحو التي كان يدرّسها لطلابه: كتاب الإيضاح للفارسي وكتاب سيبويه والمفصل للزمخشري والجزوليّة لأبي موسى الجزولي، وله مؤلّفات نحويّة مهمّة منها: (نشر الخفي في مشكلات كتاب الإيضاح) لأبي علي الفارسي، وكتاب (الموضّح في النّحو)²، وغيره ممّن عني به بباقي المدن.

..المفصل في علم العربيّة للزمخشري: من تأليف جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت538هـ، من النّحويين البغداديين المتأخّرين "وإذا أخذنا نتعقب آراءه وجدناه يمثل الطراز البغدادي الذي رأيناه عند أبي علي الفارسي وابن جني، فهو في جمهور آرائه يتفق ونحاة البصرة، ومن حين إلى حين يأخذ بآراء الكوفيين وبآراء أبي علي وابن جني، وقد ينفرد بآراء خاصة به لم يسبقه أحد من النّحاة إليها"³. له مصنّفات عديدة في اللغة والأدب والعروض والعلوم الدينيّة، من مصنّفات النّحويّة: المفصل، الأنموذج، مقدّمة الأدب، المفرد والمؤلّف. وللمفصل اهتمام خاص لدى العلماء والدارسين فقد تصدّى لشرحه أكثر من ثلاثين عالما منهم تلميذه أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش ت643هـ، ويعدّ شرحه أفضل شرح وكذلك

¹. السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 14.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 91.

³. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 284.

اختصره ونظّمه عدد آخر من العلماء¹. وأهمّ ما يميّز هذا المصنّف أنّه حصر فيه مادة النّحو في أربعة أقسام رئيسيّة هي: الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف ثم المشترك بينهما، وعالج كل قسم منها على حدة مع ذكر الأحكام الإعرابيّة والأحكام الصرفيّة المتصلة بكل قسم، ولم يكن فيها متأثراً لا بنظرية العامل ولا بنظرية المعمول ولا الفصل بين قضايا النّحو وقضايا الصرف، هذه النظريات التي أريكت النّحاة قبله وسببت لهم الكثير من الخلط والاضطراب². وبذلك صنّف أبواب الكلام وفق منهج جديد لم يسبق إليه أحد، وهذا المنهج الجديد المتحرر من قيود النظريات السابقة والمصنّف للمادة النّحويّة على نسق جديد يخالف ما صنعه سيبويه وغيره ظلّ يراود فكر النّحويين من قبله وبغيرهم في تصنيف المادة النّحويّة على نسق جديد لكن دون جدوى لأنّه حين يراد له التنفيذ يفشل صاحبه بتناسيه أثناء سير التصنيف. وقد استطاع هذا المصنّف الجديد من أن يشتهر وأن يفرض نفسه على البيئات العلميّة بعد وفاة الزمخشري بزمان قليل، لأنّ الدارسين للنّحو كانوا في حالة ملل من هذا الدرس الذي كان يمزج بين النّحو والفلسفة والمنطق والتّجديرات العمليّة والتجريدات والأمثلة غير العمليّة والاضطراب في تصنيف مادته فجاء هذا المصنّف الجديد الذي خلّص الدارسين من كلّ ذلك يحمل نقلة جديدة وفكرة ميسّرة بالنسبة للدراسات اللغويّة خاليّة من الشوائب والاضطراب وذكر الخلافات والتعليقات المنطقيّة، لذا أقبل عليه الطلاب إقبالا لا يعادله تقريبا إلاّ الإقبال على كتاب سيبويه، لأنّهم وجدوا فيه ضالتهم في الحصول على مادة نحويّة خاليّة من الشوائب وسهلة التناول وفي عبارة موجزة. وقد أقبل عليه حتى أولي الأمر آنذاك فهذا الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ت624هـ يرصد لكل من يحفظ المفصل مكافأة من المال تقدّر بمائة دينار يضاف إليها خلعة تشجيعا فيهم، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت مع خلعة، فيمكننا تصوّر مدى إقبال الدارسين عليه³. ولم يكن اهتمام العلماء به أقلّ شأنًا من الطلاب والدارسين له، إذ كان إقبالهم عليه كبيرا يقرأونه

¹. حسن عون، تطوّر الدرس النّحوي، ص 100.

². نفسه، ص 84.

³. نفسه، ص 90.

ويشرحونه ويعلّقون عليه، وهو من أهمّ الكتب التعليميّة شرقا وغربا. فلم يكن كتاب المفصل نكرة في مدن المغرب والأندلس إذ أدرك العلماء المغاربة والأندلسيون فضله في الدراسات النحويّة فأقبلوا عليه شرحا وتعليقا وتدريسا، فهو من أهمّ الكتب القيّمة المعتمدة لتخريج أهل الفضل والعلم في العلوم اللغويّة ببلاد المغرب.

4 - النحو المصري في المغرب: أمثّل للنحو المصري في بلاد المغرب بكتب ابن مالك

الأندلسي لأنّها الأكثر شهرة في كلّ المراكز الثقافيّة بمصر.

. كتابا الألفيّة والتسهيل لابن مالك: هما من تأليف جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك

الطائي الجباني الأندلسي ت672هـ، نزيل دمشق، هاجر إلى المشرق حين اضطرت الأوضاع السياسيّة بالأندلس بسبب أطماع القشتاليين النصارى في استعادتها وطرده المسلمين منها. أخذ العربيّة والنحو عن كبار العلماء بجيآن أمثال أبي علي الشلوبين ت645هـ وثابت بن خيار الكلاعي ت628هـ وغيرهما. ثم رحل إلى المشرق في سنّ مبكرة وسمع من كبار الشيوخ "واستوعب أمهات كتب النحو القديمة ككتاب سيبويه وشروحه، ومسائل الأخفش ومؤلفات المبرد وأصول ابن السراج وجمل الزجاجي ونتائج الفكر للتسهيل ومقدّمة الجزولي التي شرحها وألفيّة ابن معطي وغيرها"¹ إلى أن صار بحرا في فنّي النحو والتصريف مع اطلاعه الواسع على أشعار العرب والحديث الشريف والقرآن الكريم، وكان استشهاده بها أمرا عجيبا جعل الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره² ومثلا يضرب في دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب مع الحفظ والذكاء والورع والتحريّ لما ينقله والتدقيق فيه، وكان حريصا على العلم حتى إنّه حفظ يوم موته ثمانيّة شواهد³. ومصنّفاته كثيرة حوت نوادر وعجائب كما يقول المقرئ التلمساني صاحب النفح، سار بها الركبان

¹. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 313.

². أحمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: 1968، دار

صادر، ج 2، ص 223.

³. نفسه، ج 2، ص 228.

في جميع الأوطان واعترف بحسنها الحاضر والبادي والداني والقاصي والصادق والعدو. ومن أكثرها شهرة وأوسعها انتشارا ثلاثة:

. **الكافية الشافية:** وهو موسوعة نحويّة شاملة للمعلومات التي جمعها من دراسته الواسعة، وقد نظّمها بحلب، وهي ألفان وسبعمئة وخمسون بيتا، ويقول المقري هي ثلاثة آلاف بيت.

. **الألفية:** وتسمّى أيضا بالخلاصة انتقاها من شرحه للكافية الشافية، وكثير من أبياتها بلفظها من الكافية، وهي ألف بيت، نظّمها بحماة، وهي تهذيب للكافية الشافية، وعمل تربوي يُقدّم للطلاب دون أن يُثقل عليهم بتشعب الآراء وفروع الاختلاف، ومن مزاياها أنّها ترشد الطالب إلى طرائق استعمال اللغة استعمالا صحيحا وإلى التبصر بإعرابها المندرج تحت المعاني¹، وانتشرت هذه الخلاصة في جميع الأصقاع وصمدت على مرّ العصور واستبدلها الناس بكتب النحو القديمة.

. **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد:** ألفه بدمشق للعلماء المتخصصين في علم النحو، وهو يمثل الآراء النهائية والأخيرة له، فتح بها آفاقا واسعة للنحويين من بعده ليراجعوا النظر في تثبيت القواعد النحويّة وليعيدوا صلاتها مع مقتضيات الاستعمال اللغوي².

وكان أثير الدين أبو حيان الأندلسي ت745هـ صاحب (البحر المحيط) يعتبر كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) مثل (كتاب سيبويه) من حيث جمعه للأحكام، واعتنى به في أكثر من مصنف وهي: التذييل والتكميل في شرح التسهيل، التخييل الملخص من شرح التسهيل، ارتشاف الضرب من كلام العرب، ومنهج السالك إلى ألفيّة ابن مالك ولم يكمله، كما اعتنى به الكثير من العلماء من خلال شروحات كثيرة. ولابن مالك مؤلفات نحويّة وغير نحويّة كثيرة تشهد على علوّ قدرته، وروى عنه كثيرون منهم ولده بدر الدين محمد ت686هـ، كان إماما في النحو والمنطق وعلم المعاني والفقه، تصدر بعد والده للتدريس ومن أجل تصانيفه شرحه على ألفيّة والده، وهو كتاب في غاية الإغلاق ويقال إنّ نظير الرضي الاسترأبادي

¹. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 314 - 315.

². نفسه، ص 314 - 315.

في شرح الكافية¹. ووضع الناس على مصنفات ابن مالك وولده شروحات كثيرة واختصارات وحواشي تبين على علوّ قدرها ومن المحدثين من جعل فكر ابن مالك النحوي مدرسة نحويّة بحدّ ذاتها امتدّت فروعها إلى الشام ومصر والمغرب والأندلس أمثال حسن عون في (تطورّ الدرس النحوي) ومحمد المختار ولد أباه في (تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب) والذي شرح سرّ نجاح النموذج النحوي الذي اختاره ابن مالك في توسيعه لدائرة السماع باعتماده على لغة الحديث الشريف والروايات الشعرية الكثيرة، وتحرره من القيود المذهبية مع تّوخي الوضوح والضبط في الأحكام فقدّم مادة سهلة التناول تجنّب فيها غموض أبنية سيبويه وافتراضات المبرد وتفريعات أبي علي الفارسي وفلسفة الرمانى وتطبيقات ابن جني وتحاليل السهيلي وتقنين أبي موسى الجزولي². والألفية من المختصرات النحويّة، والمختصرات كانت آنذاك من فنون العصر وإبداعاته لذا لقيت رواجاً واهتماماً من قبل الدارسين والمدرّسين بحواضر المغرب مثلما لقيه مختصر ابن الحاجب في الفقه. وهذان المؤلفان الألفيّة والتسهيل من محفوظات المستوى المتوسط بمدن المغرب والأندلس تدرّس في الغالب في الجوامع، وقد تخصص فيهما علماء مغاربة وأندلسيون كبار تصدّوا لها شرحاً وتدرّساً منهم: محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله المقرئ ت759هـ من أكابر علماء تلمسان بالمغرب الأوسط شيخ لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمان بن خلدون، له مؤلّفات كثيرة منها: شرح التسهيل³. ومحمد بن أحمد بن محمد الشريف أبو عبد الله الخشني ت760هـ من علماء سبتة بالمغرب الأقصى له تصانيف بارعة منها تقييد جليل على التسهيل⁴. وأحمد بن حسن بن علي أبو العباس الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ ت809هـ عالم من علماء المغرب الأوسط، ألف في فنون شتى لم يسبق إليها وعكف حياته على نشر العلم بالتدريس والتأليف من مؤلفاته: هويّة السالك

¹. المقرئ، نفح الطيب، ج 2، ص 234.

². محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 316.

³. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، ط 2. لبنان: 1980، مؤسسة نويهض

الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ص 313.

⁴. السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 39.

في بيان ألفية ابن مالك¹. ومحمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني أبو عبد الله المعروف بابن مرزوق الحفيد ت842هـ، عالم جليل من علماء المغرب الأوسط، له مؤلفات نحوية وغير نحوية عظيمة منها: أرجوزة اختصر بها ألفية ابن مالك، إيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك، شرح على التسهيل². وعبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي ت807هـ الفاسي، له مؤلفات نحوية جلية منها: شرح على الألفية، البسط والتعريف في التصريف، نظم المغرب والألفاظ وغيرها، ويقال عن المكودي إنه مجدد مدرسة ابن مالك في المغرب في القرن الثامن الهجري.

5. النحو الأندلسي في المغرب: تجسد النحو الأندلسي بالمغرب بتصدر الكثير من

النحاة الأندلسيين المشهورين لتدريس نحوهم في مختلف معاهد العلم بمدن المغرب ونشر كتبهم وآرائهم بين طلبة العلم، فالمغرب والأندلس صارا بأمر المرابطين وحدة سياسية وإقليمية واحدة وذلك حين ضم يوسف بن تاشفين الأندلس إلى الوحدة المغاربية وذلك بدعوة من ملوكها، فكان الإقليمان يتبادلان المنافع فهجر الكثير من الأندلسيين إلى مدن المغرب واستقرّوا بها، ولقبوا بطلبة الحضر وتقلّدوا مناصب عليا في البلاد بما في ذلك سلك التعليم، وتزايد تدفقهم إلى مدن المغرب بعد سقوط الكثير من المدن الأندلسية تحت حكم القشتاليين النصارى وتهديدهم للمسلمين والحضارة العربية، فكان ممّن تصدر لتدريس النحو في مدن المغرب:

. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي المولود والمتوفي بسبّنة سنة 570هـ له مؤلفات نحوية كثيرة.

. أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر المشهور بالخدب ت580هـ ولد بإشبيلية ورحل إلى مراكش، تصدر لتدريس النحو وكتاب سيبويه، ذاع صيته فأقبل الناس عليه من كلّ المدن.

¹ . عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 269.

² . نفسه، ص 291.

. أبو القاسم عبد الرحمان السهيلي ت583هـ بمراكش وقد ناظر ابن خروف في مسائل النّحو.
. أحمد بن عبد الرحمان اللّخمي القرطبي بن مضاء ت592هـ، تصدّر لقضاء بجاية في دولة يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين ولتدريس النّحو، وقد ناقضه ابن خروف بكتاب (تنزيه أئمة النّحو عمّا نسب إليهم من الخطأ والسهو) ...

ومن هذا العرض نستخلص أنّ الحركة النّحويّة بمدن المغرب كانت تدور حول هذه الكتب المشرقيّة، وهي من أهمّ ما ألّف بالشرق وهي كلّها على المذهب البصري فإنّ نحو البصرة هو النّحو السائد لعلماء المغرب والأندلس وهذا منذ الرحلات الأولى القديمة التي قام بها علماء العدوتين، فما من نحوي مغربي أو أندلسي إلّا وقد أحاط بكتاب سيبيويه إحاطة كاملة شاملة، وما كتاب الجمل والإيضاح والألفيّة والمفصل إلّا منابع من كتاب سيبيويه ركّزت الدعائم لظهور الحركة النّحويّة بالمغرب على أسس متينة. أمّا كتب الكوفيين فلم تشتهر كثيرا بمدن المغرب رغم أنّها عرفت نحوهم منذ وقت مبكر جدا، كما لم تشتهر بمدن المغرب كتب البغداديين التي هي على المذهب الكوفي وإنّما رُوّج فقط للكتب البغدادية التي هي على المذهب البصري، كما رُوّج لكتب الأندلسيين التي هي على المذهب البصري مثل (المقرب) لابن عصفور الإشبيلي ومؤلفات ابن أبي الربيع الإشبيلي ك(القوانين النّحويّة) و(الكافي في الإفصاح عن مسائل كتاب الإيضاح) و(كتاب البسيط) وهو شرح لجمل الزجاجي، وغيرها كثير.

6 - ظهور النّحو المغربي: ظهر الكثير من النّحاة المغاربة المشهورين في الفترة الممتدة

من القرن الخامس إلى الثامن الهجري ممّن لهم قدم راسخة في علم النّحو ألفوا كتب نحويّة كبيرة تنبأ عن علوّ قدرهم في هذا العلم متشبعين من مختلف الاتجاهات النّحويّة التي كانت سائدة في المغرب الإسلامي، فقد استطاعوا من نسج درس نحوي جديد ميسر ومتين اللفظ، حصل له من الشهرة ما لم يحصل للكثير من الكتب المشرقيّة والأندلسيّة، وقد أسهمت مؤلفات المغاربة النّحويّة في إيجاد حركة نحويّة بالمغرب متينة ومؤسسة على أسس قويّة، أذكر منها أشهرها، وأعرّف بأشهر النّحاة المغاربة.

1. المقدمة الجزوليّة: وهي المسمّاة أيضا بالاعتماد ثم القانون والكراسة، من تأليف عيسى بن عبد العزيز بن يَلْبُخت، العلامة أبي موسى الجزولي المراكشي، وجزولة بطن من بطون البربر البرانس المتوفي سنة 607هـ بمراكش، الإمام المقدم في علم العربيّة عاش عصر الموحدين وهو عصر كما مرّ ذكره شديد الحماس للعروبة والإسلام والعلم، خططت الدولة الموحديّة لإنجاح سياساتها خططا قيّمة بما في ذلك سياسة التعليم، فقد حرص الخلفاء على مراقبة مناهج التعليم حرصا شديدا، وفرضه على كافة فئات المجتمع وبالمجان، مع ما كان يلاقيه العلماء والمدرّسون من احترام وتقدير من الطلبة ورصد للصلوات والمناصب والرواتب لهم من قبل الخلفاء، كما أنّ معظم المدارس والجوامع في عهدهم قد عُهدت إلى كبار العلماء الأندلسيين لتسييرها أو التدريس بها. درس الجزولي إذن بمعاهد الموحدين علوم الأوائل من قراءات وحديث وفقه وأصوله ولغة ونحو، كما أخذ عن كثيرين بالمغرب وبالمشرق، فحين رحل من المغرب إلى المشرق للحجّ عاد إلى مصر وقرأ مذهب مالك والأصول على الفقيه أبي منصور ظافر المالكي الأصولي تـ597هـ، وقرأ على الشيخ أبي محمد عبد الله بن بري النحوي المصري تـ582هـ¹. وحين رجع إلى بلاد المغرب أقام مدّة بمدينة بجاية يشتغل بتدريس النّحو وانتفع به خلق كثير، ثم أقام بالمرية يدرّس، ثم تولّى الخطابة بجامع مراكش وتصدّر للإقراء به²، وذاعت شهرته بجميع مدن المغرب حتى وصلت الخليفة المنصور الموحدي (يعقوب المنصور) الذي حمّله على الالتحاق ببلاطه فانخرط أبو موسى في سلك النظام الرسمي³. وقد أخذ عنه جماعة أمثال: شيخه ابن بري، يحي بن عبد المعطي، أبي علي الشلوبين، وأحمد بن محمد بن بشار السبتي تـ650هـ وآخر من روى عنه بالإجازة أبو عمر بن حوط الله⁴. من مؤلفاته: المقدّمة المشهورة المسمّاة بالجزوليّة نسبة

¹. الفقطي، إنباه الرواة، ج 2، ص 378.

². ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: د ت، دار صادر، ج 3، ص 490.

³. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب، ص 266.

⁴. السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 236.

إليه، يقول عنها وعن صاحبها أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان ت 681هـ: "كان إماما في علم النحو كثير الاطلاع على دقائقه، وغريبه وشاذه وصنّف فيه المقدّمة التي سمّاها القانون، ولقد أتى فيها بالعجائب، وهي في غاية الإيجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو، ولم يسبق إلى مثلها، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ومنهم من وضع لها أمثلة، ومع هذا كلّها فلا تفهم حقيقتها، وأكثر النّحاة ممّن لم يكونوا قد أخذوها عن مؤقّف يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنّها كلّها رموز وإشارات"¹. وله أيضا أمالي في النحو، مختصر الفسر لابن جني في شرح ديوان المتنبي، شرح أصول ابن السراج، شرح متن الإيضاح للفارسي، وشرح آخر لشواهد، تعليقات على كتاب سيبويه، تنبيهات على مفصل الزمخشري وغيرها. وله مقدّمة أخرى في النحو غير المقدّمة المذكورة، وضعها حين قرأ كتاب الجمل على شيخه بالديار المصريّة ابن بري، وهي في مسائل سأله بعض الطلبة على أبواب الكتاب فأجابهم ابن بري وجرى فيها بحث بين الطلبة حصلت منها فوائد، فعلقها الجزولي مفردة فجاءت كالمقدّمة الأولى، فيها كلام غامض فأخذها عنه الناس واستفادوها منه. وكان إذا سئل عنها: هل هي من تصنيفك؟ قال: لا، تورّعا، لأنّها كانت من نتائج خواطر الجماعة أثناء البحث، ومن كلام شيخه ابن بري². وهذه المقدّمة الثّانية التي كتبها حين قرأ الجمل على الإمام ابن بري يخلط الكثير من الباحثين بينها وبين مقدّمته الأولى المسمّاة بالقانون، فيقولون عن تلك المقدّمة المسمّاة بالقانون إنّها ليست من تصنيفه إنّما من تصنيف ابن بري، فنص ابن خلكان واضح من أنّهما اثنتان وإن أخذ من ابن بري شيئا في القانون كما يقول ابن خلكان.

وقد دافع عن الجزولي الكثير من الباحثين وبيّنوا صحة نسبة الجزوليّة إليه، وأنّها ليست حواشي على جمل الزجاجي ولا إملاءات لابن بري، يتقدّمهم محققها الأستاذ شعبان عبد الوهاب محمد إذ ردّ على أبي علي الشلوبين وعلى السيوطي وغيرهما، وأورد قول ابن عبد الملك المراكشي

¹. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص 448-489.

². نفسه، ج 3، ص 489. وعبد العال سالم مكرم، المدرسة النحوية، ص 138.

صاحب (الذيل والتكملة) في أنّ كل ما قيل فيها إنّما من تقولات الحسدة النافسين على أبي موسى. فالشلوبين حدث وأن تناظر مع أبي موسى الجزولي وانهزم الشلوبين وحدث أن غادر مراكش يائسا من أن يسود فيها بعلمه وأن يكسب الشهرة ما دام أمثال أبي موسى موجودين بمراكش¹. كما أنّ الأستاذ أحمد الزواوي أورد نصوصا كثيرة من جمل الزجاجي ومقدمة الجزولي وقارنهما مقارنة دقيقة وقال في الأخير إنّ القارئ لهذه النصوص لا يكاد يعثر على صلة قريبة أو بعيدة من أي نوع تجمعهما ولو في باب من الأبواب، ثم توصل بعد دراسة الشروحات الموضوعة على الجزوليّة أنّ القائلين الوحيدين بأنّها شرح أو حواش على الجمل هم الأندلسيون وعلى رأسهم الشلوبين، ثم نقل عنهم المتأخرون هذا القول، كما أورد حجبا تنفي صحة أن تكون الجزوليّة شرحا أو حواشي على الجمل²، وهو الأمر الواضح لقارئها.

وقد ذاع صيت المقدمة الجزوليّة واهتمّ بها العلماء والدارسون وشغلّتهم بالدراسة والشرح والتدريس، لأنّها تمثل روح العصر المائل إلى اختصار العلوم في وريقات، فهي من بديع المختصرات التي نشأت في هذا العصر وعرفت تطورا كبيرا فيما بعد، وإبداع الجزولي واضح في نظمه وشدة اختصاره وفي أسلوبه المشرب بالصيغ المنطقيّة الدقيقة، فجاءت وكأنّها مذكرة الحافظ تسعف دارسها باستظهار القواعد الأساسيّة في كلمات معدودات³. وعمد إلى شرحها الكثير من العلماء في مدن المغرب والأندلس والمشرق، ولكي أبين علو مكانتها أذكر أهمّ شراحها، فمن المشرق شرحها:

. أحمد بن محمد أبو العباس البكري، من بكر بن وائل، المتوفي بأعمال الفيوم سنة 640هـ، صنّف مصنّفات مفيدة في علوم الدين وعلوم اللغة منها: شرح الجزوليّة⁴.

ومن الأندلسيين المقيمين بالمشرق ممّن ذكرهم المقري في نفح الطيب:

¹. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 266.

². ينظر: أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرض لحياته العلميّة ومنهجه في البحث وتأثيره في حقل النّحو ثم نقد لمنهجه، د.ط. المحمدية: 1984، مطبعة ماناستير.

³. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب، ص 266 - 267.

⁴. السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 360.

. علم الدين أبو محمد المرسى اللورقي ت661هـ بإقليم الشام، لقي أبا موسى بالمغرب فسأله عن مسألة مشكلة في مقدّمته فأجابه فشرحها باسم (المباحث الكمالية على المقدّمة الجزولية) وقيل عن هذا الشرح إنّه أحسن شرح أقيم على الجزولية¹.

. محمد بن عبد الرحمان بن يعقوب الخزرجي الأنصاري الشاطبي ت691هـ، كان قد ولي قضاء بجاية قبل رحيله، له علم بالعربية وأصول الفقه ومشاركة في أصول الدين، وله شرح على الجزولية².

. الإمام ابن مالك الأندلسي صاحب الألفية، نزيل دمشق ت672هـ، سمى شرحه (المنهاج الجلي في شرح القانون الجزولي).

وممن شرحها ممن أقام بمدن المغرب والأندلس:

. عمر بن محمد أبو علي الإشبيلي الأزدي المعروف بالشلوبين ت645هـ، شرح الجزولية شرحين: كبيرا وصغيرا³.

. علي بن مؤمن أبو الحسن بن عصفور الإشبيلي ت669هـ صاحب (الممتع في التصريف)، له شرح الجزولية⁴.

. محمد بن علي أبو عبد الله المعروف بالشلوبين الصغير ت في حدود 660هـ، درس على ابن عصفور وكمل شرح ابن عصفور على الجزولية وقد انتفع به طائفة⁵.

. أحمد بن عبد النور أبو جعفر المالقي ت702هـ، صنّف: شرح الجزولية وشرح مقرب ابن هشام الفهري⁶.

¹ . المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 50.

² . نفسه، ج 2، ص 616.

³ . السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 224.

⁴ . نفسه، ج 2، ص 210.

⁵ . نفسه، ج 1، ص 187.

⁶ . نفسه، ج 1، ص 331.

- محمد بن علي بن الفخار الجذامي ت723هـ بمالقة، له تصانيف منها: شرح قوانين الجزوليّة¹.
كما ذكر السيوطي حين ترجم لمحمد بن علي بن يحيى أبي عبد الله المعروف بالشريف ت682هـ
قاضي الجماعة بمراكش، أنّه أخذ النّحو عن يحيى بن راجل وقال عنه له شرح على الجزوليّة، ثم
قرأ على الشريف جماعة منهم: أبو عبد الله الصنهاجي، وأبو إسحاق العطار شارح الجزوليّة (وهو
إبراهيم بن عبد السلام الصنهاجي المراكشي ت716هـ) باسم (المشكاة والنبراس في شرح الكراس)².

كما نظم الجزوليّة كثيرون منهم مجد الدين بن الظهير الإربلي وقال في مقدّمة النظم:

مقدّمة في النّحو ذات نتيجة تتاهت فأغنت عن مقدّمة أخرى

حبانا بها بحر من العلم زاخر ولا عجب للبحر أن يقذف الدّرا³

كما اهتمّ بها الكثير من النّحويين ممّن لم يشرحها، وأوردوا آراء الجزولي واعتمدوها في
كتبهم منهم: عبد الله بن هشام الأنصاري المصري ت761هـ في (مغني اللبيب عن كتب
الأعاريب)، وجمال الدين بن الحاجب ت646هـ في (الكافيّة)، وإبراهيم بن أحمد بن عيسى
الغافقي مستوطن سبتة ت716هـ في (شرح الجمل للزجاجي).

ومن شروح الجزوليّة كلّها لم يصلنا اليوم سوى أربعة وهي: (الشرح الصغير) للشلوبين
بتحقيق أحد الباحثين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، و(شرحه الكبير) بتحقيق
الأستاذ تركي العتيبي حيث بسط فيه للآراء والمسائل مع إيراد الأمثلة والشواهد لها، وشرحه
الثالث المسمّى بـ(التوطئة) حيث جاء بمثابة تسهيل وتقريب لأساليب أبي موسى، وأمّا الشرح
الرابع فهو شرح اللورقي المسمّى بـ(المباحث الكمالية) وهو من أكمل ما وضع على المقدّمة⁴.
وهناك قضية لا بدّ من الإشارة إليها بإيجاز وهي أنّ الشلوبين في شروحه الثلاثة على الجزوليّة قد
أنكر نسبة الجزوليّة إلى الجزولي، وقال إنّما نسبت إليه، وقد انتقد أسلوبه المنطقي، وأنكر له

¹. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص 187.

². نفسه، ج 1، ص 193 - 194.

³. نفسه، ج 2، ص 237.

⁴. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب، ص 267.

الكثير من الأقوال وخطأه فيها، فيما خالف الجزولي سيبويه، الذي تعصّب له الشلوبين وهو في كلّ ذلك متحامل عليه حين لم يستطع مماثلته بمراكش. أمّا علم الدين اللورقي صاحب (المباحث الكمالية) فقد وقف وقفة إجلال للجزولي، ولم يقل عن الجزولية إنّها حواش أو شرح للجمل، بل رأى أنّها نتاج المدرسة العقلية في النحو التي بلغت ذروتها بالمشرق في القرن الرابع على يدّ ابن السراج والسيرافي والرماني والفارسي وابن جني، والتي أحكمت قواعد النحو على مبادئ المنطق والقوانين العقلية، كما أكّد الكثير من الباحثين هذه المقولة أي على العلاقة الوطيدة التي تربطها بأصول ابن السراج في أسلوبها وقوانينها المنطقية، فتأثّر الجزولي بابن السراج تلميذ أبي نصر الفارابي الفيلسوف واضح في فلسفة قوانينها حين شرح أصوله، فمن أمثلة ارتضاء الجزولي لعبارات المنطق والأقيسة العقلية قوله عن الكلام: "هو اللفظ المركّب المفيد بالوضع، كلّ جنس قُسم إلى أنواعه أو إلى أشخاص أنواعه أو نوع قُسم إلى أشخاصه، فاسم المقسوم يصدق على الأنواع وعلى أشخاص الأنواع وإلاّ فليست الأنواع أنواعا له، ولا الأشخاص أشخاصا لتلك الأنواع".

وقد تأثّر تلميذه ابن معط بأسلوبه المنطقي فصاغ الكثير من تعبيراته على منواله. ولا ينكر فضل الجزولية في تنشيط الحركة العلمية بمدن المغرب والأندلس وحتى المشرق إذ تصدّى لها كبار العلماء كما اشتهر الكثير من النحويين بفضلها، كما نافست أشهر الكتب المشرقية في صفوف المدارس والجوامع أو ربّما فاقتها، يقول الأستاذ أحمد الزواوي: "وظلّ هذا الكتاب متداولاً جنبا إلى جنب مع المصادر الأصول كإيضاح الفارسي وكتاب سيبويه ومفصلّ الزمخشري وجمل الزجاجة وغيرها، وربّما فاق بعضها من حيث الأهمية إذ إنّ الدراسات التي وُضعت عليها كثيرة وأنّ تلك الدراسات وضعها كبار النحاة في القرن السابع: فابن مالك وأبو علي الشلوبين وابن عصفور وابن معط وعلم الدين اللورقي وابن الخبّاز والأبدي وابن أم قاسم من أنبه النحاة بعد عصر أبي موسى. ونرى أنّ المقارنة بين القانون وبين مؤلّفات الأندلسيين ليست

بمقبولة، لأن مؤلفا واحدا لم يقارب مكانته ما عدا ألفيّة ابن مالك¹، وهذا ليس ضربا من المجاز أو المغالاة لأنّها كانت من أشهر ما ألف بالمغرب.

2 - المقدمة الآجروميّة: وتسمّى أيضا بالمقدّمة الجروميّة ومتن الآجروميّة من

تأليف محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي أبي عبد الله النحوي المشهور بابن آجروم من أهل فاس، من قبيلة صنهاجة إحدى بطون البربر البرانس، المولود عام 672هـ. وهي سنة وفاة ابن مالك. المتوفي سنة 723هـ بفاس ببلاد المغرب الأقصى.

ولد وعاش إذن في ظلّ العصر المريني الأول الذي اتخذ من فاس عاصمة الدولة، وهو عصر بلغت فيه العلوم والفنون أوجها، وبلغت فيه حركة التأليف في شتى العلوم مبلغا عظيما، لم يسبق لعصر من العصور ذلك حتى كاد الأمر أن يجني على التعليم والتحصيل على حدّ تعبير ابن خلدون من كثرة المختصرات والشروحات والمدارس. وابن آجروم نحوي مقرئ مشهور، تصدر لإقراء كتاب سيبويه وتوضيح غوامضه بفاس منذ نعومة أظفاره، وله مصنّفات وأراجيز في القراءات وغيرها ومعلومات في الفرائض والحساب والأدب يفيد أهل فاس بها، والغالب عليه معرفة النحو والقراءات². لم تذكر كتب التراجم شيوخه بفاس إلاّ أبا حيان الأندلسي صاحب (البحر المحيط) حين نزل ابن آجروم مصر، لكنّ المؤكّد أنّه درس على كبار أهل عصره، فهو من العصر المريني، فمما لا شكّ فيه أنّه تلقّى العلوم على أصولها على يدّ كبار علماء عصره.

أمّا عن تلاميذه فمنهم: ولده أبو محمد عبد الله بن محمد، محمد بن علي بن عمر الغساني النحوي، القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي³.

غلب عليه النحو والقراءات كما قال السيوطي في البغيّة، لكن رغم تصدّره لتدريس كتاب سيبويه وشرحه لطلابه بفاس إلاّ أنّه فيما يبدو أميل إلى مذهب الكوفيين، يقول السيوطي: "استفدنا من مقدّمته أنّه كان على مذهب الكوفيين في النحو لأنّه عبّر بالخفض، وهو عبارتهم، وقال: الأمر

¹. أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، ص 245.

². السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 239.

³. نفسه، ج 1، ص 238.

مجزوم وهو ظاهر أنّه معرب وهو رأيهم، وذكر في الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم وأنكره البصريون فتفتن¹. وردّ الأستاذ شوقي ضيف على السيوطي بقوله: "وأولى من رأي السيوطي أن يقال إنّه بغدادى مثل الزجاجي وأبي علي الفارسي، يختار من آراء المدرستين البصريّة والكوفيّة ما يراه الأدقّ والأوفق، لأنّه قال مع البصريين: إنّ المنصوب بعد كان خبر وليس حالا كما يقول الكوفيون، وقال في التوابع: البذل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون، وقال المنادى في مثل: "يا زيد" مبني على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون"².

من مؤلفاته: البارع في قراءة نافع نظاما، فرائد المعاني في شرح حرز الأمانى وهو شرح على اللامية الشاطبية وفيه تناول قضايا صرفيّة ونحويّة مهمّة، الاستدراك على هداية المرتاب وهو نظم، ومؤلفات أخرى منها ما يزال مخطوطا³.

وأشهرها (متن الآجرومية) أو (المقدّمة الآجرومية) وقد حصل لهذه المقدّمة البسيطة في عشرين صفحة ونيف في مبادئ علم النّحو من القبول والشيوع ما لم يحصل لكتاب نحوي آخر، حتى لا تكاد مكتبة خاصة أو عامة للمطبوعات أو المخطوطات تخلو من نسخة منها، وقيل عنها إنّ صاحبها قد ألفها بمكّة المكرّمة تجاه الكعبة الشريفة، ودعا الله أن ينتفع بها قارئها، فحصل لها ذلك.

ولهذه المقدّمة مكانة علميّة كبيرة بين العلماء والدارسين فهي تعتبر من فنّ المختصرات؛ هذا الفنّ الجديد في التصنيف الذي ظهر في العصر المريني في القرن السابع الهجري، ولقي رواجاً كبيراً بين الدارسين لأنّه يختصر المادة العلميّة ويقدمها في أسلوب موجز، "وظلّت طويلاً الجوامع الكبرى والمدارس تفتتح تعليم النّحو بهذا المختصر الذي يجمع المعالم الأساسيّة للنّحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكفّ، وكان الأزهري إلى

¹. السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 238.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 347.

³. محمد المنوني، ورقات حن حضارة المرينيين، ص 268.

عهد قريب يجعله أول ما يدرّس لطلابه في علم النّحو لإمامه بقواعد النّحو في ترتيب بديع¹، ولم يجاريها أيّ مؤلف آخر.

وقد أكثر العلماء من الثناء على هذه المقدّمة قديما وحديثا ووصفها بما يناسبها، منهم عبد الرحمان بن صالح المكودي ت807هـ الذي شرحها وقال عنها إنّها من أجلّ ما وضع في علم العربيّة من المقدّمات المختصرة واللمع المتخيّرة، ثم قال وهي مفتاح علم اللسان ومصباح غيب البيان. وقد اهتمّ بها العلماء اهتماما كبيرا، وتوزّعت عنايتهم بها بين شرح ونظم وتحقيق وترجمة وقد طُبعت طبعات كثيرة جدا وترجمت إلى لغات عديدة ولكي أبين أهميتها أذكر منها:

. طبعة روما عام 1593م وهي أولى طبعاتها.

. طبعت بتحقيق المستشرق الإيطالي أوبيشيني، مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينيّة في مطبعة مدتيشي عام 1631م.

. طبعة بولاق عام 1823م.

. طبعت بتحقيق المستشرق براون، مع ترجمتها إلى اللغة الإنجليزيّة في مطبعة كامبردج عام 1832م.

. طبعت بتحقيق المستشرق الفرنسي برينيه، مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسيّة، طبعة الجزائر عام 1846م.

. طبعت في بودابست بالمجر بتحقيق المستشرق المجري بيترهاتالا عام 1877م.

. طبعت في النمسا بتحقيق المستشرق المجري كانيورسكي مع شرح باللغة المجرية عام 1882م.

. طبعت ضمن مجموع مهمات المتون في المطبعة الخيريّة عام 1310هـ.

. طبعت بعناية علي علاء الدين الألوسي بالمطبعة العليا السلطانيّة بإستانبول عام 1897م.

. طبعت بتصحيح العلامة أحمد الأمين الشنقيطي بمطبعة السعادة عام 1324هـ.

. طبعت بعناية ديف دفرسام فريس في سنغافورا عام 1938م.

¹. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 347.

. طبعت بتحقيق الأستاذ العلامة محمد محي الدين عبد الحميد بمكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة عام 1950م¹.

وهناك أيضا طبعات قديمة، فقد طبعت في مكّة المكرمة والقدس وبيروت وكسروان ودمشق والنجف وفاس وهولندا وألمانيا وفرنسا ومالطة والهند، وطبعات أخرى في مدن أخرى لا حصر لها...

وشروحها قديما كثيرة جدا جاوزت المائة بكثير، ومما ذكر المحقق من الشروح التي اعتمدها لتحقيق المتن:

. الدرّة النحويّة في شرح الجروميّة لمحمد بن أحمد بن يعلى الحسني، وقد تلقّى المقدّمة من ابن صاحب الجروميّة، ولعله أوّل شرح لها.

. شرح الآجروميّة لأبي زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي ت807هـ .

. شرح شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي البجائي ت837هـ.

. شرح أبي الحسن علي بن عبد الله بن علي السنهاوري الأزهري ت889هـ.

. شرح الشيخ زين الدين خالد بن عبد الله الجرجاوي الأزهري ويعرف أيضا بالوقاد ت905هـ وهو أشهر شروحها. وغيرها كثير جدا لا يسعني المقام لذكرها كلّها.

كما ألّفت كتب أخرى كثيرة لا حصر لها في إعراب الآجروميّة إعرابا كاملا بعد الانتهاء من شرح مسائل الأبواب، أذكر منها:

. إعراب الآجروميّة للشيخ خالد الأزهري ت905هـ.

. إعراب الآجروميّة لنجم الدين محمد بن أحمد الغيطي ت984هـ.

. الفوائد السنيّة في إعراب أمثلة الآجروميّة لنجم الدين محمد بن يحيى الحلبي الفرضي ت1090هـ.

. الأنوار المضيئة في إعراب ألفاظ الآجروميّة للكفيري الدمشقي ت1130هـ.

¹. ابن أجروم، الآجروميّة، تح: حايّف النبهان، ط 2. الكويت: 2011، دار الظاهريّة للنشر والتوزيع، ص 17.

. التحفة البهية في إعراب الآجرومية لمحمد بن عمر بن قاسم المعروف بالبكري ت1111هـ، وغيرها كثير لا يحصى...

وعن منظوماتها فهي أيضا كثيرة جدا أذكر منها:

. اللعة المضية نظم المقدمة الآجرومية لبرهان الدين إبراهيم بن إسماعيل المقدسي النابلسي ت803هـ.

. العلوية في نظم الآجرومية لنور الدين السنهاوري ت899هـ.

. الدرة البرهانية في نظم الآجرومية لبرهان الدين إبراهيم الكردي المقدسي ت960هـ.

. الدرة البهية في نظم الآجرومية لشرف الدين يحيى بن موسى بن رمضان العمطيري ت بعد 988هـ، وهي أشهر منظوماتها.

وبغیرها كثير، وقد شرحت أيضا شروحات كثيرة في العصر الحاضر، وقد اعتبرت من أكثر الكتب شهرة وحصل لها من الذیوع والانتشار والقبول ما لم يحصل لكتاب على الإطلاق، كما استطاعت من أن تتعدى حدود الوطن العربي إلى دول أوربا منذ وقت مبكر ليهتم بها المستشرقون أيما اهتمام.

3 - الدرة الألفية في علم العربية، والفصول الخمسون: هما من تأليف يحيى بن

عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي، المالكي بالمغرب والشافعي بدمشق، ويلقب بزين الدين ويعرف "بابن معط" وتكتب أيضا ابن معطي بإثبات الياء. والزواوي نسبة إلى قبيلة زواوة بمدينة بجاية حيث ولد عام 564هـ. عاش شطرا من حياته في المغرب حيث تلقى تعليمه الأول، وقد أظّل عصر الموحدين وهو العصر الذهبي للوحدة المغربية الأندلسية والازدهار العظيم للعلوم والمعارف "ففي هذا العصر ازدهرت علوم العربية من نحو ولغة وعروض وبيان وتاريخ وسيّر، وفي الدراسات النحوية شهد المغرب في هذا العصر

علماء أفذاذا خطوا به خطوات واسعة نحو الكمال نذكر منهم الجزولي والسهيلي والشلوبين وابن معط هذا وابن خروف وابن عصفور وابن مضاء وابن مالك وغيرهم¹.

عاش إذن شطرا من حياته بالمغرب، وفيه تزوّد بالعلم والمعرفة، ثم رحل في سنّ مبكرة إلى المشرق كعادة العلماء للحجّ وطلب العلم، فنزل دمشق حيث درّس وصنّف ونظّم. نظّم ألفيته المشهورة بـ (الدرة) بدمشق وقد أقام بها زمنا طويلا، نبغ نجمه وطارت شهرته، وكان سلطان الشام آنذاك الملك المعظم عيسى بن محمد الأيوبي محبا للعلم ومكرما للعلماء، وكان يخصص مبالغ مالية لهم، خصوصا من يحفظ مفصل الزمخشري، فأحسن هذا الملك إلى ابن معط وأكرمه. وحين توفي هذا الملك سنة 624هـ أمره الملك الكامل سلطان الدولة الأيوبيّة أن يسافر معه إلى مصر فسافر، ولم تطل إقامته بمصر حتى وفته المنية سنة 628هـ. على أنّ ابن معط عاش في المغرب والمشرق أزهى عصورهما: عصر الموحدين بالمغرب الغنيّ بروح الجدّ والتجديد، والعصر الأيوبي بإقليم مصر والشام الذي غير وجهة الحياة في العالم الإسلامي بسحق جيوش صلاح الدين الأيوبي الصليبيين الغزاة والدولة الفاطمية الشيعية، فانعكس ذلك إيجابا على الحياة الفكرية للإقليم لأنّ سلاطين بني أيوب يستدعون العلماء إلى الإقليم ويغدقون عليهم العطايا والصلات لإحياء التراث العربي الإسلامي. وكان أبو موسى الجزولي صاحب (الجزولية) من أبرز أساتذته ببجاية، وقد أخذ عنه ابن معط النحو، وتأثّر به واضح في مصنّفاته، ومن أمثلة ذلك قول ابن معط عن الكلام: "هو اللفظ المركّب المفيد بالوضع" وهو لفظ الجزولي بحذافره، وفي قوله عن الحرف: "إنّه كلمة لا تدلّ على معنى إلّا في غيرها" وهو قول الجزولي، وقسم ظرف المكان إلى مبهم ومعدود ومختص، وهو كذلك قول الجزولي.

ومن أبرز أساتذته بالشام: التاج الكندي أبو اليمان زيد بن الحسن تـ613هـ بدمشق، والقاسم بن علي بن الحسن بن عساكر تـ600هـ، كما عاصر بإقليم مصر والشام أعلام النحو كالإمام ابن

¹. ابن معط، مقدّمة الفصول الخمسين، ص 16.

بري تـ582هـ والبليطي تـ599هـ وابن يعيش تـ643هـ وابن الحاجب تـ646هـ وعلم الدين السخاوي تـ643هـ وغيرهم... وتتلّمذ عليه خلق كبير وانتفع به الناس حين تصدّر لإقراء النّحو بدمشق والجامع العتيق بمصر أمثال: رضي الدين القسطنطيني تـ795هـ بالقاهرة وأبي إسحاق الأنصاري الإسكندري الكاتب المعروف بابن العطار تـ649هـ وغيرهم...¹ وقد أثنى العلماء على ابن معط ثناء حسنا وأجمعوا على إمامته في العربيّة والأدب، يقول السيوطي: "كان إماما مبرزاً في العربيّة، شاعرا محسناً قرأ على الجزولي، وسمع من ابن عساكر وأقرأ النّحو بدمشق مدّة ثم بمصر، وتصدّر بالجامع العتيق وحمل الناس عنه، وصنّف كتباً كثيرة، وكان يحفظ شيئاً كثيراً فمن جملة محفوظاته كتاب صحاح الجوهري"². ويقول الأستاذ محمود محمد الطناحي محقق كتابه (الفصول الخمسين) عن فضل مؤلفاته في الدراسات النحويّة: "قد اختلفت مصنّفات النّحويين قبل ابن معط شرعة ومنهاجا فجاء إمامها (الكتاب) على أبواب وعالج بعضها مسائل بعينها، يدعو إلى الاستطراد ويحكمها التداعي، وخلص بعضها الآخر للعلل والأصول، ثم شغل الناس من قبل ومن بعد بالخلاف بين البصريين والكوفيين، وظلّت مسائل النّحو مبعثرة بعيدة الجنى عسيرة المتناول. وحين أظّل القرن السادس الذي عاش فيه ابن معط، كانت مسائل النّحو قد أشبعت درسا وتمثّلاً وتعليلاً، ولم يبق إلّا المصنّف البارع الذي يجيد صياغة هذا الموروث الضخم ليفيد منه المبتدئ والمنتهي على السواء. وقد شهدت نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع ظهور ثلاثة من الرجال حملوا هذه الأمانة وقاموا بهذا الواجب حيث بسّطوا قواعد النّحو وبوّبوا مسائله وفصلوا فروعه: ابن معط وابن الحاجب وابن مالك، وعلى شروح هؤلاء استوى النّحو العربي على سوقه، وقد كان لصاحبنا ابن معط فضل الريادة في هذا اللون الميسر المنظم من التأليف حين صنع كتابيه الألفيّة والفصول، وعلى وقع خطواته سار ابن الحاجب وابن مالك"³.

¹. ابن معط، مقدّمة الفصول الخمسين، ص 20.

². السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 344.

³. ابن معط، مقدّمة الفصول الخمسين، ص 6.

صنّف ابن معط تصانيف لغويّة وأدبيّة كثيرة كان أكثرها نظما حتى عدّ إمام النظم في عصره وهي:

. الألفيّة وتسمّى أيضا الدرّة الألفيّة في علم العربيّة.

. الفصول الخمسون في النّحو.

. العقود والقوانين في النّحو.

. شرح الجمل للزجاجي في النّحو.

. شرح المقدّمة الجزوليّة لشيخه الجزولي.

. شرح أبيات سيبويه، وهو نظم.

. حواش على أصول ابن السراج.

. ديوان شعر.

. ديوان خطب.

. البديع في صناعة الشعر.

. قصيدة في العروض.

. قصيدة في القراءات السبع.

. المثلث في اللّغة.

. نظم كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد.

. نظم كتاب الصحاح للجوهري، ولم يكمله.

ولم يصلنا من هذه المصنّفات الكثيرة سوى ثلاثة: الألفيّة، الفصول الخمسون، والبديع في صناعة الشعر.

الدرّة الألفيّة: كان ابن معط بلا منازع إمام النظم العلمي في عصره، فقد استطاع بحسّه

اللغوي الرفيع واشتغاله بالأدب من أن ينظّم معظم مؤلفاته اللغويّة والأدبيّة في قوالب شعريّة بعبارة

سهلة، وفتح الباب على مصرعيه لعلماء عصره ومن بعده على نظم العلوم كابن مالك والسيوطي

وغيرهما... وترجع بدايات النّظم النّحوي إلى القرن الرابع الهجري، فكان أشهر نظم قبله هي منظومة الحريري ت516هـ صاحب (المقامات) المسماة بـ(ملحمة الإعراب)، ثم شاعت تسمية الألفية بعد ابن معط في النحو وغيره على أنّ ابن معط صاحب أول ألفية في النحو. وقد أثنى العلماء على ألفيته ثناء حسنا يقول عنها أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الألبيري الأندلسي ت779هـ أحد شارحيها:

يا طالب النّحو ذا اجتهد تسمو في الورى وتحيا
إن شئت نيل المراد فاقصد أرجوزة للإمام يحي¹.

والدرّة الألفيّة من 1021 بيتا نظمها بدمشق وانتهى منها عام 595هـ كما صرّح في خاتمتها وهو في الواحد والثلاثين من عمره، يقول:

نظّمها يحي بن معط المغربي تذكرة وجيزة للمُعرب
وفق مراد المنتهى والنشأة في الخمس والتسعين والخمس المائة.

اختار لها شكلا جديدا لم يسبق إليه أحد وهو أنّه نظّمها من بحري الرجز والسريع، على غير عادة العرب التي تنظّم على بحر واحد، وهذان البحران متقاربان في وزنيهما ممّا يدلّ على حسّه الموسيقي المرفه، يقول:

لاسيما مشطور بحر الرجز إذا بني على ازدواج موجز
أو ما يضاهيه من السريع مزدوج الشطور كالتصريع².

أمّا ألفية ابن مالك فقد نظّمها صاحبها كلّها على بحر الرجز، وكانت هذه أكبر ميزة للدرّة الألفيّة. كما استطاع أيضا بحسّه الأدبي الرفيع من أن يدمج الشواهد الشعرية والقرآنية وغيرها في النظم، هذا ما لم يكن في ألفية ابن مالك إلّا في مواضع قليلة جدا، نحو قوله في الكلام عن ربّ:

وربّ إن خفت بما كرّما صار كمثل إنّما وعلّما

¹. ابن معط، الدرّة الألفيّة في النّحو والصرف والخط والكتابة، تق: سليمان إبراهيم البلكيمي، ط 1. القاهرة: 2010، دار الفضيلة، ص المقدمة.

². نفسه، ص 19.

فيقع الفعل والاسم بعدها وأضمرُوا في الشعر ربّ وحدها

وحيثما لها دليل باقي كقوله: وقاتم الأعماق.

والشاهد لرؤية وهو بتمامه: وقاتم الأعماق خاوي المخترق¹.

وقوله في الأفعال المتعدّية:

الرابع الذي له مفعول ثمّ له لآخر وصول

لكن بحرف الجر نحو اخترت وقد أمرت وقد استغفرت

يكون ساقطا ومستبيناً كاختار موسى قومه سبعيناً².

وهذا الشاهد من سورة الأعراف، كما استطاع ببراعته من صياغة عناوين الأبواب نظماً كقوله في

باب الإعراب والبناء:

القول في الإعراب والبناء الأصل في الإعراب للأسماء.

وفي الأفعال المتعدّية:

القول في الأفعال في التعدي وتنتهي لسبعة في العدّ.

ومن أبرز ميزات ألفيته إضافة إلى ما ذكر خلوها من الحشو، يقول:

أرجوزة وجيزة في النحو عدّتها ألف خلت من الحشو³

والسلامة والعدوبة في صياغة التعابير، يقول المقرّي التلمساني في (نفع الطيب): "واعلم

أنّ الألفيّة . لابن مالك . مختصرة الكافية كما تقدّم، وكثير من أبياتها فيها بلفظها،

ومتبوعه فيها ابن معط، ونظمه أجمع وأوعب، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب"⁴. وقد كثر شراح

ألفيّة ابن معط في المشرق والمغرب، وأسهمت في نموّ الحركة النحويّة في القرنين السابع والثامن،

وكان أوّل من انتفع بها ابن مالك حين صنع ألفيّة على مثلها، أفاد منها في المنهج العام، وسرد

¹ . ابن معط، الفصول الخمسون، ص 40.

² . ابن معط، الدرة الألفيّة، ص 29.

³ . نفسه، ص 17.

⁴ . المقرّي، نفع الطيب، ج 2، ص 232.

القواعد واستخدام المناسبة والاستطراد وارتباط اللاحق بالسابق واستخدام قافية وألفاظ بعينها¹. ويرى الأستاذ محمود محمد الطناحي محقق (الفصول الخمسين) أنّه لو أُتيح لكتب ابن معط شارح نابه كأبي حيان الأندلسي الذي شرح كتب ابن مالك وجسّر الناس على مصنفاته ورغبهم في قراءتها بشرح غوامضها لكانت كتب ابن معط أشهر من كتب ابن مالك وأوسعها انتشاراً، وما كان لابن الحاجب وابن مالك اللذين سارا على نهجه من أن يخملا ذكره لأنّ فضل ابن معط عليهما كبير، لكنهما أخملا ذكره كما أخمل من قبل أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني ذكر أبي القاسم الزجاجي². ورغم ذيوع ألفيّة ابن مالك وشهرتها، فإنّ هذا لم يمنع الدرة الألفيّة لابن معط من الذيوع والانتشار إذ حظيت هي الأخرى بالشهرة وتلقاها الناس بشغف وقرأوها ودرّسها العلماء وشرحوها وتوالت عليها الدراسات والشروحات لقرون، وكان من أشهر شارحيها:

. أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي شمس الدين بن الخباز الإربلي الموصلّي ت637هـ وسمّي شرحه (الغرة المخفية في شرح الدرة الألفيّة)، وقد نقل السيوطي من هذا الشرح الكثير في (الأشباه والنظائر).

. عزت الدين أبو قرشت الحسن بن عبد المجيد المعروف بسعفص المراغي ت666هـ.

. محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله جمال الدين أبو بكر الوائلي الأندلسي ت685هـ وسمّي شرحه (التعليقات الوفيّة بشرح الدرة الألفيّة) وهو شرح جليل كبير في مجلدين.

. عز الدين أبو الفضل عبد العزيز بن جمعة بن زيد القواس الموصلّي ت696هـ سمّاه (المباحث الخفية في حلّ مشكلات الدرة الألفيّة) ونقل منه السيوطي كثيراً في (الأشباه والنظائر).

. محمد بن يعقوب بن إلياس الدمشقي بدر الدين المعروف بابن النحويّة ت718هـ.

. أحمد بن محمد بن عبد الولي بن جبارة المقدسي ت728هـ.

¹. ابن معط، مقدّمة الفصول الخمسين، ص 7.

². نفسه، ص 6.

- . عبد المطلب بن المرتضي الحسيني الشريف الجزري ت735هـ.
- . عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن الوردى الحلبي ت749هـ وسمّى شرحه (صفوة الدرّة).
- . أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الألبيري الأندلسي ت779هـ، شرحها في أحد عشر مجلداً.
- . محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي ت780هـ، شرحها في ثمانية مجلدات¹.
- أكتفي بهذا القدر من الشروحات لأنّها كثيرة، وتدلّ على أنّ الدرّة ذات أهميّة عظيمة، ظفرت باهتمام العلماء وطارَت شهرتها في مختلف الأمصار.

4 - الفصول الخمسون: أمّا كتابه (الفصول الخمسين) فهو كتاب تعليمي ميسّر القواعد

منثور العبارة، سلك فيه ابن معط أيضا مسلكا جديدا وهو تقسيم رؤوس المسائل إلى خمسة أبواب رئيسيّة، في كلّ باب عشرة فصول، فيكون عدد المسائل خمسين.

وكان أهمّ ما يميّز هذا الكتاب خلوّ تعريفاته من الحشو والإطالة، وقد ألفه بدمشق ونال شهرة واسعة وإقبالا كبيرا في المشرق والمغرب على حدّ سواء لسهولة عباراته وسلاسة ألفاظه، وقد ظهرت براعة ابن معط مرة أخرى حين مزج فيه بين المفاهيم النحويّة والعبارة الجميلة الكثيرة الشواهد. وأدار معظم مسائل الفصول على (نظريّة العامل) فقد كان ترتيب المسائل وفقا لها، فحين تحدّث عن الفاعل عالجّه في (الفصل الثالث فيما يتعدّى إلى مفعول واحد)، وعالج نائب الفاعل في (الفصل السادس في الفعل الذي لم يسم فاعله). وكان تأثره بشيخه الجزولي واضح في صياغة المفاهيم لأنّه كثيرا ما كان يجنح إلى التعبير المنطقي. وتصدّى لشرحه الكثير من النحويين في القرنين السابع والثامن ما يدلّ على أهميته العلميّة، منهم:

. العلامة جمال الدين أبو محمد الحسين بن بدر بن إياز ت681هـ، وسمّى شرحه (المحصول) وهو شرح جليل نقل عنه السيوطي والأشموني والبغدادى الكثير.

. أحمد بن محمد بن عامر بن فرقد الأندلسي ت689هـ، ونقل عن هذا الشرح السيوطي وغيره.

. محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر شهاب الدين الخويّ ت693هـ.

¹. ابن معط، مقدّمة الفصول الخمسين، ص 50 - 51.

. الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي المعروف بابن أم قاسم ت749هـ.

. إبراهيم بن موسى بن بلال الكركي ت853هـ.

7 - أشهر نحاة هذه المدرسة: ظهر الكثير من النحاة المغاربة المشهورين في

مختلف مدن المغرب درسا وتصنيفا في الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى ما بعده، أذكر منهم إضافة إلى من سبق ذكره، ومن أشهر مصنفاتهم:

. أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن أحمد بن غزوان الفهري ت553هـ: مقرئ، نحوي وشاعر من مؤلفاته: شرح شواهد الإيضاح، أرجوزة في النحو، شرحها، أرجوزة في القراءات¹.

. أحمد بن محمد الآبي أبا العباس ت598هـ: نحوي من أهل آبة مدينة ببرقة، من تصانيفه: كتاب في النحو².

. محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي ت628هـ: فقيه، محدث، أديب وشاعر، من مصنفاته: شرح مقصورة ابن دريد³.

. إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي المعروف بإبراهيم الأجدابي تحوالي 650هـ: نحوي ولغوي، من أشهر مؤلفاته: شرح ما آخره ياء من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء، الردّ على تنقيف اللسان، كفاية المتحفظ⁴.

. محمد بن الحسن الفهري المعروف بابن المحلى ت661هـ: نحوي ولغوي، له: تقييدات على كتاب سيبويه⁵.

¹. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، د ط. دمشق: 1957، مؤسسة الرسالة، ج 1، ص 172.

². نفسه، ج 2، ص 239.

³. نفسه، ج 3، ص 508.

⁴. نفسه، ج 1، ص 14 - 15.

⁵. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 347.

. محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي الجزائري ت 673هـ: نحوي، لغوي أديب وشاعر، أخذ عن الغبريني صاحب (عنوان الدراية)، من آثاره: الموضح في علم العربية حلق العيون في تنقيح قانون الجزولي، نشر الخفي في مشكلات أبي علي في الإيضاح¹.

. سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن يس العابدي التلمساني المعروف بالعفيف التلمساني ت 690هـ: عالم مشارك في النحو والأدب والفقه والأصول، له مؤلفات كثيرة².

. أحمد بن عبد الله بن محمد الأزدي المراكشي ت 730هـ: نحوي، مشارك في العلوم، له تأليف نحوية³.

. إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي السفاقي ت 742هـ: نحوي، له مؤلفات نحوية منها إعراب القرآن الكريم سمّاه: المجيد في إعراب القرآن المجيد⁴.

. محمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم السفاقي ت 744هـ: عروضي، فقيه وأصولي من مؤلفاته: شفاء الغليل في شرح المقصد الجليل في علم الخليل⁵.

. حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المراكشي بدر الدين المعروف بابن أم قاسم ت 749هـ: عالم مشارك في النحو والتفسير والفقه والأصول والقراءات والعروض، من تصانيفه: شرح مفصل الزمخشري، شرح الشاطبية في القراءات، الجنّي الداني في حروف المعاني وهو نظم، شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك، شرح كافية ابن الحاجب، شرح الجزولية، شرح ألفية ابن مالك وسمّاه: توضيح مقاصد الألفية، مصنفات في إعراب القرآن الكريم، وتفسير القرآن الكريم في عشرة مجلدات⁶.

¹ . عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، ص 228.

² . نفسه، ج 1، ص 794.

³ . نفسه، ج 1، ص 185.

⁴ . نفسه، ج 1، ص 56.

⁵ . نفسه، ج 3، ص 618.

⁶ . نفسه، ج 1، ص 578.

. محمد بن أبي الفضل بن الصباغ الخزرجي المكناسي ت750هـ: نحوي مشارك في العلوم النقلية والعقلية، من مؤلفاته: شرح الآجرومية¹.

. أبا القاسم الشريف الحسني السبتي ت760هـ: نحوي من آثاره: شرح التسهيل لابن مالك².

. أبا العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء العددي ت721هـ: عالم ونحوي وفقه رياضي من مؤلفاته: الكليات النحوية³.

. محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي الخطيب المشهور بالجدّ ت781هـ: فقيه، أصولي، محدث، نحوي ومفسر ولد بتلمسان، من مؤلفاته: إيضاح السالك على ألفية ابن مالك⁴.

. أحمد بن محمد بن عبد الرحمان القصار التونسي ت حوالي 790هـ: نحوي له تصانيف منها: شرح شواهد المقرّب لابن عصفور⁵.

. أبا زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي الفاسي ت807هـ ويعرف أيضا بالمطرزي كما ورد في البغية: إمام في اللغة والنحو والعروض وسائر فنون الأدب، درّس كتاب سيبويه بمدرسة العطارين، ومؤسس مدرسة ابن مالك في المغرب، له مؤلفات نحوية جليّة وهي: شرحان على ألفية ابن مالك كبير وصغير، شرح الآجرومية، شرح المقصور والممدود لابن مالك، البسط والتعريف في علم التصريف (نظم)، نظم المعرب من الألفاظ، المقصورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلّم في نحو ثلاثمائة بيت⁶.

¹ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، ص 588.

² شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 348.

³ عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 220.

⁴ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، ص 107.

⁵ نفسه، ج 1، ص 273.

⁶ عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 210.

. أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنّذ القسطنطيني ت810هـ: نحوي له تصانيف منها: شرح ألفيّة ابن مالك¹.

. محمد التلمساني أبا عبد الله ت847هـ: فقيه ونحوي من آثاره: مختصر شرح التسهيل لأبي حيان الأندلسي².

. قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني المالكي ت854هـ: فقيه، أصولي، مفسّر ونحوي، من تصانيفه: القواعد في النّحو³.

. إبراهيم بن فائد بن موسى بن علال بن سعيد النبروني الزواوي القسطنطيني الدار ت857هـ: نحوي وعالم، له مؤلفات عديدة منها: شرح ألفيّة ابن مالك⁴.

. يحيى بن عبد الرحمان بن محمد بن صالح بن علي بن عمر العجيسي ت862هـ: مقرئ ونحوي، من آثاره: شرح ألفيّة ابن مالك في ثلاثة أو أربعة مجلّدات⁵.

. أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي القسطنطيني الأصل المعروف بالشمني ت872هـ: مفسّر، محدّث ونحوي، من آثاره: منهج السالك إلى ألفيّة ابن مالك، المنصف من الكلام على مغني اللبيب لابن هشام في النّحو⁶.

. عبد العزيز بن عبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني ت880هـ: فقيه ونحوي، له: ألفيّة في النّحو، ومصنّفات في المذهب المالكي⁷.

¹. عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ج 1، ص 128.

². نفسه، ج 3، ص 191.

³. نفسه، ج 2، ص 642.

⁴. نفسه، ج 1، ص 273.

⁵. نفسه، ج 4، ص 101.

⁶. نفسه، ج 1، ص 292.

⁷. نفسه، ج 2، ص 162.

. أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان الفاسي الأصل القسنطيني المولد التونسي الدار ت899هـ، ويعرف بالخُوف: نحوي وناظم له من التصانيف: نظم مغني اللبيب، رجز في تصريف الأسماء والأفعال سمّاه: جامع الأقوال في صيغ الأفعال، وغيرها...¹ ويعدّ المقرئون للذكر الحكيم من النّحاة لأنّهم يقفون على حدود العربيّة في نطق الآيات، ويعلمون الطلبة قواعد النّحو، وقد اشتهر الكثير من المقرئين في مدن المغرب تدريسا وتأليفا أذكر منهم:

. يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل الهذلي البسكري ت465هـ: مقرئ ونحوي وأديب ومتكلم، من تصانيفه: الكامل في القراءات².

. أحمد بن محمد بن سعيد بن حرب المسيلي ت540هـ: مقرئ ونحوي، من تصانيفه: التقريب في القراءات السبع³.

. أبا عبد الله الفاسي ت656هـ: عالم في العربيّة والقراءات له: شرح الشاطبيّة في القراءات⁴.
. أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري: فقيه ونحوي من القرن السابع، توفي ببجاية، من مصنفاته: مختصر كتاب التيسير لأبي عمرو الداني في القراءات⁵.

- أبا الحسن علي بن محمد بن علي التازي المشهور بابن بري ت731هـ: عالم بالعربيّة والقراءات والنّحو، له مؤلّفات نحويّة كثيرة، وهو صاحب: الدّرر اللوامع في قراءة نافع⁶.

¹ . عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 1، ص 273.

² . نفسه، ج 4، ص 172.

³ . نفسه، ج 1، ص 266.

⁴ . نفسه، ج 2، ص 268.

⁵ . نفسه، ج 1، ص 276.

⁶ . عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 209.

ـ خلاصة الفصل: نهل المغاربة من المؤلفات النحويّة المختصّة في علم النّحو ككتاب سيبويه وجمل الزجاجي وإيضاح الفارسي وغيرها وهي من أهمّ ما ألف من كتب نحويّة في المشرق، وهي كلّها على المذهب البصري القويّ الدعائم، وعلى بعض أسس المدرسة العقليّة في النّحو التي ظهرت في القرن الرابع الهجري على يدّ نحاة بغداد النازعين النزعة البصريّة كالفارسي وابن جني والرماني وابن السراج الذين ارتضوا في مصنّفاتهم النحويّة الأقيسة المنطقيّة لذا تسلّلت بعض أفكار هؤلاء وأساليبهم المنطقيّة إلى مؤلّفات المغاربة، ويظهر ذلك جليّاً في (الجزوليّة) للجزولي وتلميذه ابن معط وممن تأثّر بهم من المتأخّرين، وقد كثرت شروحات المغاربة على هذه المصنّفات بالتحديد. كما ظهرت طائفة مهمّة من العلماء المغاربة المشتغلين بالنّحو في مختلف العهود تشبّعت من مختلف الاتجاهات السائدة في النّحو من نحو البصريين وغيرهم وشرحت مؤلّفاتهم وتخصّصت فيها.

الفصل الرابع:

التفكير النّحوي عند المغاربة وصداه.

الفصل الرابع: التفكير النحوي عند المغاربة وصداه.

- 1 - آراؤهم المختارة.
- 2 - آراؤهم الجديدة.
- 3 - مصطلحاتهم الجديدة.
- 4 - التدرّج النحوي.
- 5 - أصول النحو في كتبهم، ومصادر الاحتجاج:
 - السماع.
 - القياس.
 - استصحاب الحال.
 - الاستحسان.
- 6 - نظرية العامل، والتعليل النحوي.
- 7 - رأي العلماء في نحو المغاربة.
- 8 - نحو المغاربة في كتب النحاة.
- 9 - آراء المغاربة في قرارات المجمع المصري في العصر الحديث.
- 10- خصائص المدرسة النحوية المغاربية من القرن الخامس إلى الثامن الهجري.
- خلاصة الفصل.

تمهيد: يطول بي المقام لو عرضت كلّ الآراء التي وقفت عليها من نحو المغاربة من القرن الخامس الهجري إلى الثامن لأنها كثيرة جدًا، لذا لا يسعني سوى الإشارة إلى بعضها من باب التمثيل، ولهذا قسّمتها إلى قسمين:

1. آراؤهم المختارة: وهي الآراء التي أيدَ فيها المغاربة بعض آراء المذهب البصري، أو المذهب الكوفي، أو غيرهما من مذهب البغداديين أو المصريين أو الأندلسيين، في بعض جزئيات القاعدة النحوية، بعد تفكير وتمحيص، وحسب ما يتطلبه الدليل من الوضوح والمنطق.

2. آراؤهم الجديدة: وهي الآراء التي انفردوا بها، وبنوها على اجتهاداتهم الخاصة، إذ لا يخفى عن المغاربة أنّهم كانوا أصحاب آراء ثابتة في النحو، ويؤيدها السماع والقياس واجتهاداتهم. ونظرًا لكثرة نحاة هذه الفترة الطويلة من البحث فإنّي سأقصر الحديث على من اشتهر منهم دون غيرهم كالجزولي وابن معط والمكودي.

1 - آراؤهم المختارة:

. جواز إثبات الياء في اسم الفاعل المنقوص المنكر: جرى القياس في أن تحذف

الياء من اسم الفاعل المنقوص النكرة في حالتي الرفع والجر، وتثبت في حالة النصب فقط، بحجة أن اسم الفاعل المنقوص النكرة يلحقه تنوين العوض مما يؤدي إلى التقاء ساكنين فيه وهما: الياء والتنوين، في نحو: هذا قاضي. والتقاء ساكنين في العربية ممتنع، لذا كان أمام النحاة خياران: إما تحريك أحدهما، أو حذفه.

فأما تحريك الياء فلا يجوز لأن فيه رجوعاً إلى ما هرب منه وهو الثقل في الياء والكسرة قبله، وأما تحريك التنوين ففيه أيضاً ثقل، لذا يتعين الحذف: حذف الياء لا التنوين، لأن التنوين دخل لمعنى وهو الدلالة على صرف الكلمة، أما حذف الياء فله سببان وهما أن: حذف أول الساكنين هو القياس، ولأن حذف الياء له دليل يدل عليه وهي الكسرة قبله. ولا تثبت الياء في الاسم المنقوص المنكر إلا في ضرورة شعريّة، كما أن الحكم بحذفها واجب في حالة الوقف نحو قوله تعالى: (فاقض ما أنت قاضٍ) طه72، كما أنه واجب أيضاً في حالة الوصل، نحو: هذا قاضٍ عادل.

إلا أن سيبويه روى أنه يجوز إثباتها في الاسم المنقوص المنكر المرفوع و المجرور في حالة الوقف فقط، وقد روى ذلك عن أبي الخطاب ويونس بن حبيب أن بعض العرب يقفون بإثبات الياء، وهي لغة فصيحة عزيت إلى أهل الحجاز¹. وقد نصّ على جواز ذلك جمع من النحويين منهم: سيبويه، وابن السراج والزيدي وأبو علي الفارسي، وابن جني، والزمخشري وغيرهم. وقد وافقهم في ذلك يحيى بن معط في (الفصول الخمسين) في قوله: "وما كان منقوصاً منوّناً كقوله تعالى: (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) النحل 96 الوقف بالحذف، ويجوز إثبات الياء"²، وذلك لأنها لغة فصيحة عزيت إلى الحجازيين. ومن المحدثين الذين وافقوهم في ذلك مجمع اللغة العربيّة المصري، وأصدر قراراً في دورته الرابعة والخمسين، فحواه أنه يجوز إثبات الياء في الاسم الفاعل المنقوص النكرة المرفوع

¹. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 3. القاهرة: 1988، مكتبة الخانجي، ج 4، ص 183.

². ابن معط، الفصول الخمسون، ص 267.

والمجرور، بتوسّع، وذلك في حالتي الوقف والوصل، وذلك عند الحاجة، واستدل لذلك بنصوص النحويين، كما أنّه جاء إثباتها في قراءات قرآنية كثيرة¹، وذلك تسهيلا عند الحاجة.

إعراب الاسم المرفوع بعد إذا الشرطيّة: للنّحاة في إعراب الاسم المرفوع بعد إذا الشرطيّة

رأيان هما: الرأي الأول أنّه يعرب فاعلاً لفعل محذوف يفسّره المذكور وهو رأي البصريين في نحو: (إذا السماء انشقت) الانشقاق¹، أي تقدير الكلام: إذا انشقت السماء انشقت. وهو رأي جمهور البصريين كالمازني والمبرد والزجاج والنحاس والفارسي وابن جني وغيرهم. ورأي آخر ينسب إلى سيبويه والأخفش والفراء وغيره من نحاة الكوفة على أنّه مبتدأ تيسيراً في الإعراب، ولأنّه جاءت عليه أكثر من عشرين آية قرآنيّة، وأكثر من ستمائة شاهد شعري حيث جاء بعد إذا اسم وخبر.

وقد اختار يحي بن معط من هذين الرأيين قول البصريين القائل بأنّه فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده، وعلل ذلك أنّ في إذا معنى الشرط و الجزاء، والشرط لا يكون إلّا بالفعل في قوله: "والفاعل يرتفع بفعل مضمر بعد حرف الشرط كقوله تعالى: (وإنّ أحدٌ من المشركين استجارك) التوبة⁶، وكذلك (إذا السماء انشقت) الانشقاق¹"². وكذلك اختار في إعراب الاسم المرفوع بعد إنّ الشرطيّة قول البصريين القائل بأنّه فاعل لفعل محذوف يفسّره الذي يليه، وكذلك القول في "لو".

المبتدأ والخبر: للنّحاة في رافع المبتدأ والخبر عدّة مذاهب، الأكثر شيوعاً منها هو الرأي

القائل بأنّ الابتداء يرفع المبتدأ والمبتدأ يرفع الخبر، وهو رأي سيبويه. وقيل أيضاً العامل في الخبر هو الابتداء أيضاً، لأنّه طالبٌ لهما فعمل فيهما، وعلى هذا الرأي سار الأخفش وابن السراج والرماني³. وذهب الكوفيون إلى أنّهما مترافعان، فالمبتدأ رافع

¹. العصيمي، القرارات النحويّة والتصنيفيّة لمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، ط 1. بيروت: 2003، دار ابن حزم، ص 59.

². يحي بن معط، الفصول الخمسون، ص 194.

³. السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدين، ط 1. لبنان: 1998، دار الكتب العلميّة، ج 1، ص 311.

للخبر، والخبر رافعٌ للمبتدأ، ولهم قول آخر إذا كان الخبر جملة فعلية في أنّ المبتدأ مرفوع بالذكر الذي في الخبر نحو: زيدٌ ضربته، وعللوا ذلك أنّه لو زال الضمير العائد انتصب زيدٌ، فكان الرفع منسوباً للضمير.

وأخذ بهذا الرأي الكوفي القائل بأنّهما مترفعان ابن مالك وغيره. واختار الجزولي من تلك الآراء قول الأخفش وابن السراج وغيرهما في أنّ المبتدأ والخبر مرفوعان معاً بالابتداء في قوله: "الابتداء: جعل الاسم أول الكلام معنًى مسنداً إليه الخبر، وبه يرتفع المبتدأ والخبر جميعاً بشرط التعرية من العوامل اللفظية¹". ووافقه في هذا القول الشلوبين في شرحه للمقدمة.

.. عمل اسم الفاعل عمل فعله: يعمل اسم الفاعل عمل فعله المتعدي إذا كان معرفاً بغير شروط لأنّه بمنزلة الفعل، وإذا كان منكرًا فقد ذكر النحاة شروطاً لإعماله وهي: ألا يكون مصغراً، ألا يكون موصوفاً قبل العمل، أن يكون للحال أو الاستقبال لا الماضي، أن يكون معتمداً ومنوناً. ومعنى كونه دالاً على الحال أو الاستقبال لا الماضي أن يكون بمعنى المضارع الدال على الحال أو المستقبل، يقول الزمخشري: "ويشترط في إعمال اسم الفاعل أن يكون في معنى الحال أو الاستقبال، فلا يقال: زيدٌ ضاربٌ عمرًا أمس"².

ويقول ابن هشام الأنصاري: "واسم الفاعل إن كان مجرداً فبشرط كونه حالاً أو استقبالياً"³. وقد نصّ على هذا الرأي جمع من العلماء منهم: المبرّد وابن السراج والزجاجي وأبو علي الفارسي والزبيدي وغيرهم. وخالفهم في هذا الشرط الكسائي وهشام الضرير وابن مضاء القرطبي في تجويزهم إعماله إن كان بمعنى الماضي ومجرداً من "الـ"⁴، واستدلّوا بقوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) الكهف 18، فباسط اسم فاعل عمل في ذراعيه بالنصب، لكن رُدّ على

¹ . الجزولي، المقدمة الجزولية في النحو، تح: شعبان عبد الوهاب محمد، د ط. د ب: د ت، مطبعة أم القرى، باب التحقيق، ص 93.

² . الزمخشري، المفصل في علم العربية، د ط. لبنان: د ت، دار الجيل، ص 228.

³ . ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، تح: ح الفاخوري، ط 4. بيروت: 1996، دار الجيل، ص 278.

⁴ . ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص 280.

هذا القول بأنّ باسط في هذه الآية بمعنى (يبسط) والدليل أنّ ما قبلها فعل مضارع (نقلّبهم)، وليس باسم فاعل في المعنى.

وقد اختار الجزولي من هذين القولين رأي الجمهور القائل بأنّه يشترط فيه أن يدلّ على الحال أو الاستقبال بقرينة لفظية أو معنوية لا على الماضي، يقول: "واسم الفاعل المراد به الحال والاستقبال مفرداً أو مكسّراً أو مجموعاً بالألف والتاء أصله أن يثبت فيه التثوين وينتصب المفعول عنه إن كان لفعله مفعول"¹، وهو رأي الجمهور.

وقد وافق المجمع المصري للغة العربية في الدورة التاسعة والخمسين أن يعمل اسم الفاعل عمل فعله مطلقاً مستغنياً عن شرط الحال أو الاستقبال أخذاً برأي الكسائي ومن وافقه، وقد تقدّم بهذا البحث الأستاذ عبد الرحمن السيد العضو بالمجمع.

وعن الشرط الثالث أي وجوب اعتماده على نفي أو استفهام أو موصوف أو ذي حال أو مخبر عنه، نحو: أضاربُ أنتَ عمرًا، ما ضاربُ أنتَ عمرًا، مررتُ بفقيهٍ عادلٍ حُكْمَه، جاء رجلٌ حاملاً كِتَابًا، زيدٌ مكرّمٌ ضيفه، فقد نصّ على هذا الشرط جمعٌ من النحويين منهم الزمخشري وأبو علي الفارسي وابن هشام واحتجّوا لذلك أنّ اسم الفاعل ضعيف في العمل فقيد بأن يعتمد على كلام قبله كي يقوّى ويقرب من منزلة الفعل.

وخالفهم في هذا الشرط الكوفيون والأخفش، وجوّزوا إعماله من غير أن يعتمد على شيء، نحو: مكرّمٌ زيدٌ عمرًا، وذلك بحجّة قوّة شبهه بالفعل.

وقد وافق الأستاذ عبد الرحمن السيد على هذا الرأي وتقدّم به إلى مؤتمر المجمع المصري ووافق عليه المجمع في نفس الدورة.

واختار المكودي من المغاربة رأي البصريين القائل بوجوب اعتماده على شيء قبله كي يعمل وإلّا ضعف عمله، في قوله: "لا يعمل اسم الفاعل عمل فعله إلّا إذا ولي الاستفهام نحو: أضاربُ أنتَ

¹. الجزولي، المقدّمة الجزوليّة، ص 149.

عمرًا ؟ أو النداء نحو: يا طالعا جبلاً، أو النفي نحو: ما ضاربٌ أنت زيدًا، وأن يكون مسندًا نحو: زيدٌ ضاربٌ عمرًا¹، وهو رأي البصريين والغالب.

وأضاف الجزولي إلى هذه الشروط أن يقع صلة لموصول في قوله: "ومن شرط إعمال اسم الفاعل أن يكون معتمدًا على حرف استفهام أو حرف نفي أو يكون صفة لموصوف أو خبرًا لذي خبر أو حالًا لذي حالٍ أو صلة لموصول"²، وهو ما لم يقل به غيره.

.. إلغاء النصب بإذن: من نواصب الفعل المضارع "إذن الحرفية" كقولك:

إذن أكرمك، لمن قال: سأزورك غدًا. ولكي تنصب إذن المضارع ينبغي توفر ثلاثة شروط فيها، يقول عنها ابن هشام: "إذن حرف جواب وجزاء، وتكون ناصبة إذا وقعت في صدر الكلام... أن يكون الفعل بعدها مستقبلاً... ألا يفصل بينهما بفصل غير القسم"³، هذه شروطها للعمل. وقد أجاز البصريون في حال تحقق هذه الشروط الثلاثة الإعمال والإهمال على الخيار، أي النصب والرفع معًا، لأن رفعها للمضارع مع استيفاء الشروط لغة من لغات العرب، وإن كان الكثير منهم على إعمالها، يقول سيبويه: "وزعم عيسى بن عمر أن ناسًا من العرب يقولون: إذن أفعلُ ذاك في الجواب"⁴، وذلك بالإهمال أي بالرفع.

وما كان لغة من لغات العرب الفصيحة لا يقبل قول من أنكرها وإن كانت قليلة، فالأكثر في اللغة إعمالها، وهو رأي أكثر النحويين يقول عبد الله البطليوسي ت 561 هـ عن رفعها للفعل مع تحقق الشروط: "هذا نادر عمّا عليه الجمهور"⁵، وإن كان لغة من لغات العرب.

وممن منع إهمالها الزجاجي والبطليوسي والكسائي والفراء وابن يعيش وغيرهم. وقد وافق يحيى بن معطى القائلين بمنع إهمال النصب بها مع استيفاء الشروط في قوله: "وإذن لها ثلاث حالات:

¹. المكودي، شرح الألفية، ص 180.

². الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 150.

³. ابن هشام، شرح قطر الندى، ص 61.

⁴. سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 16.

⁵. البطليوسي، إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي، تح: حمزة عبد الله الشرقي، ط 1. الرياض: 1979، دار المريخ، ص 257.

مقدمة، ومتوسطة، ومؤخرة. فالمتقدمة يلزمها الإعمال، ما لم يكن الفعل للحال، والمتوسطة إن كانت كلامًا يفتقر بعضه إلى بعض لم تعمل كقولك: أنا إذن أكرمك، وإن تأخرت وجب إلغاؤها كقولك: أكرمك إذن¹، لأن ذلك هو الأكثر شيوعًا.

وقد وافق المجمع المصري في دورته الخامسة والثلاثين على إلغاء النصب بإذن مع توقّر الشروط، واحتج لذلك بأنها معزوة إلى لغة من لغات العرب الفصيحة، وما نُسب إلى البصريين من قبول إلغائها مع استيفاء الشروط، وإن كان الإعمال هو الأكثر في استعمال العرب²، تيسيرًا في وجوه استعمال العربية.

جواز المضايع: من جواز المضايع أسماء الشرط التي تجزم فعلين كإن ومن ومهما وغيرها، ويرى الجزولي أن هذه الأسماء إن دخلت على فعلين مضارعين وجب فيهما الجزم، وإذا اقترن الجواب بالفاء وجب فيه الرفع وليس الجزم في قوله: "الجازم لفعلين إما أن يدخل على مضارعين وضعًا فيجب العمل ما لم تحل الفاء بينه وبين الثاني فيجب الرفع"³. وعلة ذلك أن الجواب باقترانه بالفاء صار حينئذ جملة اسمية، وعزّي هذا الرأي إلى سيبويه على أن الرفع أحسن من الجزم إذا اقترن الجواب بالفاء ظاهرًا، أو تقديرًا على رأي المبرد في نحو قول جرير بن عبد الله البجلي (الرجز):

يا أقرع بن حابس يا أقرع إن يُصرع أخوك تُصرع

والجواب تصرع على تقدير الفاء أي (فإنك تُصرع) والجملة الفعلية تصرع حينئذ في محل جزم جواب الشرط. وقد اختار هذا الرأي الجزولي وابن عصفور الإشبيلي وغيرهما.

ومن اختيارات ابن آجروم ذكره من جواز المضايع (كيفما)، وهي لا تجزم في رأي البصريين في قوله: "الجواز ثمانية عشر وهي: لم ولما وألم وألما، ولام الأمر والدعاء ولا

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 204.

². العصيمي، القرارات النحوية، ص 311.

³. الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 43.

في النهي والدعاء، وإن وما ومن ومهما وإذما وأي ومتى وأيان وأين وأنى وحيثما وكيفما وإذا في الشعر خاصة¹. وهو رأي الكوفيين.

..بناء الأمر: قال جمهور النحويين ببناء فعل الأمر، وقال الكوفيون بأنه مجزوم وليس مبنيا، وقد اختار ابن آجروم رأي الكوفيين في قوله: "الأفعال ثلاثة: ماض ومضارع وأمر، نحو: ضَرَبَ ويضربُ واضربُ، فالماضي مفتوح الآخر أبداً، والأمر مجزوم أبداً، والمضارع ما كان في أوله إحدى الزوائد الأربع يجمعها قولك: أنيت وهو مرفوع أبداً حتى يدخل عليه ناصب أو جازم"². وهو رأي الكوفيين.

..التنازع في الحروف: التنازع في النحو هو طلب عاملين معمولاً واحداً نحو: جاء وجلس زيد، أو اسمين نحو: زيد ضاربٌ وقاتلٌ عمراً. والرأي البصري يجعل العمل في المعمول للعامل الثاني لمجاورته، والرأي الكوفي يجعل العمل للعامل الأول. أما التنازع في الحروف ففيه قولان: الأول وهو يمنع التنازع فيها لعدم دلالة الحروف على الحدث وهو رأي ابن هشام الأنصاري وابن عقيل والأشموني والسيوطي وغيرهم، والرأي الثاني أنه يجوز التنازع فيها واستدلوا لذلك بشواهد كثيرة وأن العمل فيها للعامل الثاني كقوله تعالى: (علم أن سيكون منكم مرضى) المزمّل 20. وقد أخذ المكودي في شرح ألفية ابن مالك بالرأي الأول القائل بامتناع التنازع في الحروف لعدم اجتماعها معاً على معمول واحد³. وعن المجمع المصري فقد سَوَّغ قراراً في جواز التنازع في الحروف على معمول واحد على أن يكون العمل للعامل الثاني كما يرى البصريون، وذلك في دورته السابعة والأربعين، واستدلّ لذلك بكثرة ورودها في الاستعمالات العصرية كقولهم: إن موقفك لا ولن يغيّر رأيي⁴، وذلك تيسيراً في استعمال العربية.

1. ابن آجروم، الآجرومية، ص 60.

2. نفسه، ص 59.

3. المكودي، شرح الألفية، ص 109.

4. العصيمي، القرارات، ص 118.

العطف على الضمير المجرور: اختلف النحاة في العطف على الضمير المجرور بحرف

الجر بإعادة الجار، أو جواز العطف من غير إعادته كقولك: مررت به وبمحمد. فذهب الكوفيون إلى جواز العطف عليه من غير إعادة الجار نحو: مررت به ومحمد، واستدلوا لذلك بقراءة من قرأ قوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) النساء 1 بجر الأرحام. وقد وافق الكوفيون أبو حيان الأندلسي في كتابه (ارتشاف الضرب).

وقد منع البصريون جواز ذلك إلا بإعادة الجار، واحتجوا لذلك بحجج كثيرة أهمها أن ذلك كثير في اللغة وأن الجار والمجرور مترابطان كالشيء الواحد.

وقد أيد الجزولي رأي البصريين لأنه الأكثر شيوعاً واطّراداً في قوله: "ومن شرط المعطوف جواز العطف عليه، ولم يحسن العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الخافض عليه"¹، لأنه الرأي الأكثر شيوعاً.

الحال الجامدة: الأصل في الحال أن تكون مشتقة، وإذا سُمعت جامدة أُولت وفسّرت

بالمشتق، وذلك لأن الحال صفة في المعنى وكل صفة لابد من أن تكون مشتقة، يقول سيبويه: "وذلك قولك مررت بهم جميعاً وعامة وجماعة، كأنك قلت: مررت بهم قِياماً"².

ويقول ابن هشام: "وَحَقُّهَا أَنْ تَكُونَ مُشْتَقَّةً، وَرَبَّمَا جَاءَتْ اسْمًا جامدًا كقوله تعالى: (فانفروا ثباتٍ) النساء 71، فثبات حال من الواو في انفروا وهو جامد، لكنّه في تأويل المشتق أي متفرقين"³، وهو الرأي المشهور في كتب النحو.

وذهب جمع من العلماء كابن مالك وابن الحاجب والسهيلي وغيرهم إلى جواز عدم تفسير الحال الجامدة بمشتق إذا حصلت منها الفائدة، ووضعوا قاعدة وهي أن الحال الجامدة التي فهم معناها لا يتكلف في تأويلها واستشهدوا بشواهد كثيرة كقوله تعالى: (ويخرجكم طفلاً) غافر 67 وقوله:

¹ . الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 72.

² . سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 376.

³ . ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص 236.

(وتمثل لها بشرًا سويًا) مريم 17.

واختار يحي بن معط الرأي القائل بوجوب تأويل الحال الجامدة بالمشتق وذلك لحملها على المشتق ولو في المعنى، لأنّ الحال صفة والوصف من المشتقات، وهو رأي جمهور النحويين البصريين كسيبويه والمبرد وغيرهم ومن المتأخرين كابن يعيش والبطليوسي وغيرهم، يقول يحي بن معط: "وقد تجيء غير مشتقة لكن في تقدير المشتق كقوله تعالى: (ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً وهذا كتاب مُصدقٌ لسانا عريبًا) الأحقاف 12 والحال هو (لسان) وتقدير اشتقاقه منطوقاً¹، وهو الرأي المشهور أي وجوب تأويل الحال الجامدة بمشتق.

. تعريف العدد بالألف واللام: إذا كان العدد يتراوح ما بين ثلاثة إلى عشرة وأريد تعريفه بالألف واللام، فإنّ جمهور النحويين يدخلون "ال" التعريف على المضاف إليه، أي على التمييز المجرور نحو: هذه أربع البقرات، وكذلك في تمييز ألفاظ العقود نحو: ألف الدينار، وقد نصّ على هذا القول الكثير من النحويين كسيبويه والمبرد والزجاجي والفارسي وابن يعيش وغيرهم.

والكوفيون قد أجازوا دخول الألف واللام على العدد المضاف والمضاف إليه معًا نحو: هذه الأربع البقرات، المائة الدينار، واستدلّوا لذلك بدليل سماعي وآخر قياسي.

واختار يحي بن معط رأي البصريين القائل بأن يعرف بـ(ال) المعدود دون العدد في قوله: "وإذا أردت تعريف العدد ففي الآحاد والمئتين والألوف تُعرف المضاف إليه فتقول: ثلاثة الأثواب، ومائة الدرهم، قال الفرزدق:

ما زال مذ عَقَدْتُ يداه إِزارَهُ فسَمَا فادرك خمسة الأشبار"².

¹ . ابن معط، الفصول الخمسون، ص 187.

² . نفسه، ص 242 - 243.

أمّا المجمع المصري في العصر الحديث فقد خرج برأي جديد وهو إدخال (ال) على العدد المضاف دون المضاف إليه نحو: الخمسة كتب، واستدلّ لذلك بورود مثله في صحيح البخاري، وإجازة ابن عصفور الإشبيلي لذلك¹.

في النداء: قال ابن آجروم في المنادى في نحو: يا عمر: إنه مبني على الضمّ وليس معرباً بغير تنوين كما يقول الكوفيون في قوله: "قاماً المفرد العلم، والنكرة المقصودة فيبينان على الضمّ من غير تنوين نحو: يا زيد و يا رجل"²، بينما يرى الكوفيون أنه معرب من غير تنوين.

منصوب كان: اختار ابن آجروم في الاسم المنصوب بعد كان قول البصريين القائل بأنه خبر منصوب، ولم يقل بقول الكوفيين على أنه حال في قوله: "قاماً كان وأخواتها فإنّها ترفع الاسم وتتصب الخبر"³، على عكس الكوفيين الذين يحملونه على أنه حال منصوب.

في المصطلح النحوي: عبّر ابن آجروم عن الجر (بالخفض) وهو تعبير الكوفيين، وعبّر بمصطلحات البصريين في نحو (البدل) فلم يقل بـ(الترجمة) أو (التبيين)، وقال (التمييز) ولم يقل بـ(التفسير) وقال (المفعول من أجله) و(المفعول معه) ولم يقل بـ(شبه المفعول). وعبّر كذلك الجزولي بالخفض تارة وبالجر تارة وتسميته (الصفة) بـ(النعت) و(لا التبرئة) لـ(لا) النافية للجنس) وهو مصطلح كوفي، وسمّى المفعول به والمفعول المطلق تارة بالمشبه بالمفعول، وكذلك سلك ابن معط مسلك الاختيار بين المصطلحات فقد عبّر بمصطلحات البصريين كـ(الجر) و(التمييز) وغيرها، وعبّر بمصطلحات الكوفيين كـ(الجحد) للنفي و(النعت) للصفة. كما سمّى الجزولي (تاء التأنيث) بـ(هاء التأنيث)، وتبعه في ذلك ابن معط، وهو مذهب سيبويه. واختار المكودي في شرحه للألفيّة مصطلحات البصريين تارة ومصطلحات الكوفيين تارة، وكذلك قال (نون الإناث) وهي تسمية بغدادية.

¹. العصيمي، القرارات، ص 319.

². ابن آجروم، الآجرومية، ص 94.

³. نفسه، ص 70.

2 - آراؤهم الجديدة:

. تعريف الكلام: كان الجزولي أول من عرّف الكلام بأنه "اللفظ المركّب المفيد بالوضع". ومعنى المركّب: التركيب الإسنادي واستثنى منه المفرد، والمفيد يقصد به المفهوم بتمام الجملة، والوضع أي بالاصطلاح وقد استثنى منه ما كان جملة دون الاصطلاح عليها نحو: تأبط شراً¹. ونقل هذا التعريف ابن معط وابن آجروم بحذافره، وكذلك نقله ابن مالك في كتابه (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد).

. دلالة الفعل: قال الجزولي عن دلالة الفعل على الزمان دلالة تضمنيّة وليست التزاميّة كما هو رأي الجمهور، وهذه من طرائف آراء الجزولي كما يقول الأستاذ محمد المختار ولد أباه. واستدلّ الجزولي على عدم التزاميّة الزمان، أنّ صيغة الفعل صورة لهذا الفعل، وهذه الصورة ليست لازمة له، لأنّ الأزمنة متغيّرة، ولما كانت الأزمنة متغيّرة وجب إذن أن يكون للشيء الواحد لوازم متغيّرة، وهذا محال.

. زمن الفعل: قال الجزولي إنّ الزمان الذي يدلّ عليه الفعل تكشف عنه قرائن السياق في الكلام، وليست صيغ الفعل من ماض ومضارع وأمر²، ومن أمثلة ذلك أنّ أمس أو اليوم أو غدا هي دلائل لفظيّة وهي التي تكشف عن معنى زمان الفعل في الكلام ولم يكتف بالصيغ الزمانيّة من أمر أو ماض أو مضارع.

. في دلالة المضارع على المستقبل: يتعيّن في المضارع الاستقبال إذا اقترن بظرف

مستقبل نحو: أزورك إذا تزورني، أو أسند إلى متوقّع كقوله:

"يهولك أن تموت وأنت ملغٍ لما فيه النجاة من العذاب" (الوافر).

أو اقتضى طلباً أو وعداً نحو قوله تعالى: (والوالدات يُرضِعْنَ) البقرة 233، (لينفق ذو سعة) الطلاق

7، (يُعَذِّبُ من يشاء ويغفر لمن يشاء) المائدة 40. أو صحب حرف نصب أو حرف تنفيس أو

¹. الجزولي، المقدّمة الجزولية، ص 3.

². أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، ص 250.

أداة ترج أو سحب توكيد كالنونين الخفيفة والثقيلة، وغيرها، وهذا مذهب جمهور النحاة¹ القائلين بضرورة اعتماده على شيء.

وزاد الجزولي على هذه الأحرف التي ذكرها النحاة (لام القسم) للدلالة على الاستقبال لأنها في معنى التوكيد في قوله: "الأفعال بالنسبة إلى الزمان ثلاثة أقسام: ماض بالوضع كَفَعَلَ، ومستقبل بالوضع كَأَفَعَلَ، ومبهم بالوضع كَيَفَعَلَ فالمستقبل بالوضع لا قرينة تزيله عما وضع له، والمبهم بالوضع له قرينتان تصرفان معناه إلى الماضي دون لفظه وهما لو وربما، وقرينة تخلصه للحال وهي الآن أو ما في معناها، وقرائن تخلصه للاستقبال وهي: لام الأمر والدعاء ولا في النهي والدعاء ولام القسم ولا في النفي ونونا التوكيد وحرفا التنفيس"². وتبعه في هذا القول الشلوبين في كتابه (التوطئة).

. أقسام الكلم: اهتدى الجزولي إلى كشف فروق جديدة تميز الاسم والفعل والحرف عن بعضها البعض معتمداً على (القيم الخلاقية) في المقارنة بين تلك الأقسام، وهي تقسيمات جديدة لم يسبق إليها أحد، من أمثلة ذلك قوله "الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، كلّ جنس قسم إلى أنواعه أو إلى أشخاص أنواعه أو نوع قسم إلى أشخاصه...".

. الجمع: قسم الجزولي الجمع إلى أنواع، وحصر مسائله بطريقة جديدة لم يسبق إليها أحد، يقول: "الاسم الذي يفهم منه الجمع قسمان: مجموع حقيقة وغير مجموع، وغير المجموع قسمان: محصور وغير محصور، فغير المحصور نحو: نفر وبشر وقوم وأنام، والمحصور: المضمرات والمبهمات والموصولات وكلّ في التوكيد". وهو يقصد بغير المجموع غير المحصور بالعدد: اسم الجمع.

. فكرة المفعولية: حدّد الجزولي (للمفعولية) إطارا يشمل جميع أنواع المفاعيل التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالفعل وبعمله.

¹. السيوطي، همع الهوامع، ج 1، ص 34.

². الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 33.

أدوات الشرط الجازمة: في دراسة الجزولي لأدوات الشرط الجازمة أفاد كثيرًا من آراء النحويين البصريين والكوفيين فيها، فاستطاع من أن يتصرف في فهمه لها مع ما يتماشى ورأيه، فقال إن أدوات الشرط الجازمة جميعها ظروف وغير ظروف، قرائن لفظية على إرادة الزمان الاستقبالي في المضارع والماضي.

واعتبر (إذما) اسم شرط جازم وليست حرفًا كما هو عليه الجمهور، تدلّ على الزمان.

منع تعليق (أعلم وأرى) وأخواتهما عن العمل: منع الجزولي تعليق وإلغاء عمل (أعلم وأرى) المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل في حالة بنائها للفاعل، أي حذف مفعولها الثاني أو الثالث أوتعطيل عملها، وأجاز تعليقهما وإلغاءهما حالة بنائهما للمفعول وجعل حكم منصوبيهما كحكم منصوبي ظننت وأخواتها في قوله: "فهذه إذا بنيت للفاعل كان حكم الأول منها حكم الأول من باب كسوت، وحكم الثاني والثالث معا حكم الثاني منه، وامتنع التعليق والإلغاء، وإذا بنيت للمفعول فحكم منصوبيها ما ذكر في منصوبي ظننت مطلقاً"¹.

نون الوقاية: فسّر الجزولي مجيء نون الوقاية على الفعل بتفسير جديد ألا وهو "سلامة الفعل على ما بُني عليه"، فالفعل "أكرمني" أمر مبني على السكون وهذه النون حافظت على بنائه، وفي "أكرمني" بني على الفتح وهذه النون أبقت الفتح سالمًا، بينما جمهور النحاة قالوا إنّما جيء بها لوقاية الفعل من الكسر الذي هو من علامات الجر الخاص بالأسماء، وللفصل بها بين الفعل والضمير، فتفسير الجزولي أصح وأفضل.

المقادير غير المبهمة: يرى جمهور النحاة أنّ الظروف الدالة على المقادير أي على المسافة كالميل والفرسخ أو على الكيل كالرطل وغيرها مبهمة، وذكر الجزولي أنّها غير مبهمة وتابعة الشلوبيين في ذلك، لأنّها أسماء تدلّ على مقادير محددة ومعلومة، يقول الجزولي: "ظرف المكان: مبهم ومختصّ ومعدود، فالمبهم ما له اسمه بالإضافة إلى غيره، والمختص ما له اسمه من جهة نفسه، والمعدود ما له

¹ . الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 83.

مقدار معلوم من المسافة"¹. فالمبهم نحو: فوق وتحت، والمختص نحو: الدار والمسجد، والمعدود نحو: الميل والفرسخ وهذه غير مبهمة.

في النواسخ: قال أبو إسحاق العطار في شرحه للجزولية المسمى بـ(المشكاة والنبراس في شرح الكراس): "ولا يدخل على المبتدأ المخبر عنه بالماضي إلا ما لا يناقض معنى المضي منها"، وهو تنبيه مهم، لأن المبتدأ الذي خبره فعلٌ ماضٍ كقولك: "زيدٌ قام وعمر خرج أبوه" لا يدخل عليه من هذه الأفعال إلا ما وافق معناها الماضي ككان وأمس وأصبح وغيرها مما يوافق معناها معنى الماضي نحو: كان زيدٌ قام. أما مازالٌ وأخواتها، و ليس وما دام فيناقض معناها معنى الماضي، فلا يجوز دخولها على الماضي لأنها للحال الدائمة الحاضرة أو المحكية"². وهو تنبيه مهم غفل عنه الكثير من النحاة.

كم العددية: ذكر أبو حيان الأندلسي في الكناية عن العدد "بكم" آراء الكثير من النحويين في إعرابها، وقال بأن ابن هشام الخضراوي انفرد بالقول أنها تكون مفعولاً له، نحو: لِكَمْ إكرامٍ لك وصلّت، قال: ولا بد من حرف العلة لأنه لا يحذف إلا في لفظ المصدر، وتوقف أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن محمد الرعيني التونسي من نحاة تونس في إجازة ذلك، وقال أبو حيان: ولا نعلم أحداً نصّ على إجازة ذلك غير ابن هشام³، وتبعه الرعيني التونسي في ذلك.

بناء اسم الإشارة: علل ابن معط بناء اسم الإشارة لشبهها بالحرف، وهو قول لم يقله من سبقه، أما النحاة فقد عللوا بناء اسم الإشارة لتضمّنها معنى كان حقّه أن يوضع له حرف يدلّ عليه، وهو الإشارة، لأنه كالتنبيه والتنبيه والخطاب وغير ذلك من معاني الحروف، وهو رأي فيه تكلف ومغالاة وتفسير شيء ظاهر بمقدّر، وهو البحث عن حرف ليوضع لاسم، إلا أنه لم يوضع

¹. الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 87.

². أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، ص 236.

³. أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، ط 1. القاهرة: 1998، مكتبة الخانجي، ج 2، ص 786.

له حرف يدلّ عليه، وقد خرج ابن معط من هذا الرأي برأي ميسّر في أنّ أسماء الإشارة بُنيت لأنّها تشبه الحروف¹، لإراحة الدارس من كثرة التقديرات.

وقد تأثر ابن مالك بهذا الرأي تأثراً واضحاً في تسهيله، يقول: "وبني اسم الإشارة لتضمّن معناها أو لشبه الحرف وضعاً وافتقاراً"². وقال في الألفية:

والاسم منه معرب ومبني لشبه من الحروف مُدني
كالشبه الوضعي في اسمي جئنا والمعنوي في متى وفي هنا³.

في التنازع: ذهب الجمهور إلى أنّ التنازع يقع في كل معمول إلاّ المفعول له والتمييز والحال، وانفرد ابن معط بالقول بجواز وقوعه في الحال في شرحه للجزولية، نحو قولك: "إنّ تزرني ألقك راكباً" إذ جوّز تنازع الفعلين (تزرني) و(ألقك) في الحال (راكباً)، وفضّل إعمال الأول أي أنّ هذا الحال معمول للفعل الأول⁴، وهو رأي منعه غيره وجوّزه هو.

نائب الفاعل: ذكر السيوطي في كتابه (همع الهوامع) آراءً كثيرة في باب نائب الفاعل وما يحلّ محلّ المفعول به إذا فُقدَ، وقال السيوطي بانفراد ابن معط بالقول بإحلال الجار والمجرور محلّ نائب الفاعل، يقول السيوطي: "فإنّ فُقدَ ... قال هشام: النائب ضمير مبهم، والفراء: الحرف، وابن درستويه والسهيلي والرندي: ضمير المصدر. فعلى الأصحّ لا يقدّم. والجمهور لا يقام مفعول له وتمييز، ويُخيّر في مصدره وغيره، وقدمه ابن عصفور، وابن معط: المجرور، وأبو حيان: المكان ..."⁵ وغيرها من الآراء...

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 61-62.

². ابن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تح: محمد كامل بركات، القاهرة: 1967، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 41.

³. المكودي، شرح الألفية، ص 10.

⁴. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 68-69.

⁵. السيوطي، همع الهوامع، ج 1، ص 520.

يقول ابن معط: "والاسم الذي يقام مقام الفاعل إمّا أن يكون مفعولاً به وهو الأصل ومع وجوده لا يقام غيره مقامه، وإن فقد أقيم الجار والمجرور مقام الفاعل نحو قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم) الفاتحة¹، وهو قول لم يقل به إلا هو.

..خبر مادام: منع ابن معط تقدّم خبر (ما دام) على اسمها، وجوّز في الأخريات تقدّمه يقول في الألفية:

ولا يجوز أن تُقدّم الخبر على اسم ما دام وجاز في الآخر²

ولم يقل غيره بذلك، ومن أهمّ علله في هذا الرأي أنّه لم يرد ولو شاهد قرآني واحد لتقدّمه. وقد أثار هذا الرأي ثائرة النحاة.

..حذف حرف النفي: ذهب ابن معط إلى جواز حذف (ما النافية) أو (لا النافية) في جواب القسم بشرط انتمان اللبس في قوله في الألفية:

وإن أتى الجواب منفيًا بلا أو ما كقولي : والسّما ما فعلا

فإنّه يجوز حذف الحرف إذا أمنوا الإلباس حال الحذف

كقولك : تا الله تفتأ حذف "لا" منه أي لا تفتأ المعنى عُرف

وقد تبعه ابن مالك في هذا الرأي، وأنشد له شاهدًا.

..أحرف النداء: ذهب ابن معط إلى أنّ أحرف النداء قسمان: للقريب والبعيد، أي والهمزة

للقريب، ويا وهيا وأيا للبعيد، وذهب أبو موسى الجزولي إلى أنّ (أي) تستعمل للقريب المصغي إليك في حين أنّ النحاة يجعلونها للبعيد مسافة أو حُكما.

..حذف حرف النداء: منع ابن معط حذف حرف النداء من لفظ الجلالة، وإن كانت قد نابت

عنه الميم في قولك: اللهم، فالأصحّ: يا اللهم، يقول:

وأحرف النداء قد تتحذف كمثّل ربنا ومثّل يوسف

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 177.

². ابن معط، الدرة الألفية، ص 45.

إلا عن اسم الله والإشارة فالحذف فيهما احذر اختصاره

لو قلت هذا في النداء والله وشبه هذا وقع اشتباه¹

وعلته في ذلك أن بحذف حرف النداء يشتبه المنادى بغير المنادى لأن كلمة اللهم لها استعمالات أخرى.

. التصغير: منع ابن معط تصغير الترخيم، وإن كان النحاة قد قاسوه، وعلته في ذلك أن الترخيم فيه حذف، فلا يصغر ما حذف منه.

. علامات التأنيث:

عدّ ابن معط من علامات التأنيث التاء المكسورة نحو: لعبت أنت.

. آراء نحوية أخرى: ذكر الكثير من النحويين آراء نحوية كثيرة منسوبة إلى المغاربة، من غير تعيين صاحبها، في الكثير من كتبهم كالسيوطي في (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) و(الأنشاه والنظائر)، الأشموني في (شرح ألفية ابن مالك)، ابن هشام في (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) وغيرها، أذكر من تلك الآراء:

. أن المخففة: إذا خففت أن تعمل ولا تُهمل، شرط أن يكون خبرها جملة فعلية واسمها ضمير شأن مفصول بينهما بحرف من الحروف، في الغالب، كقوله تعالى: (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى) المزمّل 20، أي: أنه سيكون، وقد فصل بينهما بالسین. وفي إعمالهما إذا خففت مذهب ثلاثة ذكرها السيوطي في همع الهوامع وهي:

. أنها لا تعمل شيئاً لا في ظاهر ولا في مضمر، وتكون حرفاً مصدرياً مهماً كسائر الحروف المصدرية، وعليه سيبويه والكوفيون.

. أنها تعمل في المضمر وفي الظاهر، وهذا هو رأي طائفة من المغاربة.

. أنها تعمل جوازاً في مضمر، لا ظاهر، وعليه الجمهور.

¹. ابن معط، الدرة الألفية، ص 53.

أي أنّ الرأي الذي عليه المغاربة هو إعمالها، وتنصب حينئذٍ اسماً يكون ضمير شأن وترفع جملة فعلية نحو قوله تعالى: (علم أنّ سيكون منكم مرضى) فتقدير الكلام: علم أنّه سيكون منكم مرضى.

ونقل السيوطي عن ابن مالك أنّه قال: إنّ بعض المغاربة زعموا أنّه لا يلزم أن يكون ذلك الضمير المحذوف ضمير شأن بل يجوز أن يكون اسماً¹، وذلك تيسيراً في الاستعمال.

. إذا كان عامل الحال اسم تفضيل: ذكر السيوطي في كتابه (همع الهوامع) في باب الحال مسائل كثيرة في الخلاف في عامل الحال، وذكر في باب اسم التفضيل العامل في الحاليين مسائل كثيرة في اختلاف النّحاة في الحاليين لأنّه داخل في باب التنازع، فذكر رأي المغاربة في ذلك بقوله: "وأجاز بعض المغاربة تأخير الحاليين عن أفعل بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثانية، فيقال: هذا أطيبُ بُسراً منه رطباً... وقال السيوطي إنّ أبا حيان الأندلسي وصف رأي المغاربة هذا بقوله: وهذا حسنٌ في القياس، لكنه يحتاج إلى سماع"²، وذلك كي يطرّد في الاستعمال.

. التمييز المركّب: قال السيوطي في باب التمييز: إذا كان المميّز مقدّراً وكان ذا معمولين من جنسين مختلفين ففيه مذاهب في جواز العطف بين المعمولين نحو: عندي رطلٌ سمناً عسلاً، فالمميّز هو الرطل وهو مقدار والتمييزان هما السمن والعسل: ذهب الفراء إلى أنّه لا يجوز عطف أحدهما على الآخر، فنقول: عندي رطلٌ سمناً عسلاً. ذهب غيره إلى أنّ العطف بالواو جائز، لأنّ الواو تُصيّر ما قبلها وما بعدها بمنزلة شيء واحد فنقول: عندي رطلٌ سمناً وعسلاً. وقال بعض المغاربة: الأمران سائغان: العطف وتركه³.

¹. السيوطي، همع الهوامع، ج 1، ص 453 - 454.

². نفسه، ج 2، ص 239 - 240.

³. نفسه، ج 2، ص 264.

في تقديم المستثنى: ذكر السيوطي في (الهمع) أن جمهور النحويين يمنعون تقدّم المستثنى على المستثنى منه، أو على عامله، فلا يقال: القوم إلاّ زيداً قاموا، فهذا تقدّم المستثنى على عامله (قاموا)، وقد صحح المغاربة هذا القول بأنّه يجوز مطلقاً لوروده، قال شاعر:

ألاّ كلّ شيء ما خلا الله باطلاً.

فالاستثناء من ضمير (باطل)، وباطل عامل ذلك الضمير، وقال:

كل دين يوم القيامة عند الله
ه إلاّ دين الحنيفة بور¹.
وغيرها من الآراء الأخرى .

أسماء النداء: لزم النداء من الأسماء (فل) لفلان و(فلة) لفلانة وأسماء أخرى... وصيغة (مفعَلان) في المدح والذمّ، وقد سُمع منها ستة ألفاظ، ولا يقاس إلاّ على ما جاء منها لأنّها سماعيّة، وهي: مَكْرَمَان للعزیز المكرم، وملأمان، ومخبثان، وملكعان ومطيبان ومكذبان.

وذكر السيوطي أنّ بعضاً من المغاربة ذكر أنّها منقاسة، وأنّه يقال في المؤنث بالتاء، وحكى ابن سيده الأندلسي مثله² في جواز قياسيّة هذه الصيغ.

الوصف (بالا): الأصل في (إلاّ) أن تكون للاستثناء، والأصل في (غير) أن تكون وصفاً، ثم قد تحمل إحداها على الأخرى، فيوصف بـ (إلاّ) ويستثنى بـ (غير) والوصف بإلاّ صناعي. وشرط الموصوف بإلاّ أن يكون جمعاً مذكراً نحو: جاءني رجال قرشيون إلاّ زيداً، تقدير الكلام: غير زيد. وقد جوّز سيبويه أن يوصف بها كل نكرة ولو مفردة، وجوّز ابن الحاجب أن يكون معرفة بالألف واللام الجنسيّة، وجوّز الأخفش أن يوصف بها المعرّف بالألف واللام العهديّة، ورفض ابن مالك ذلك تبعاً لابن السراج والمبرّد.

¹ . السيوطي، همع الهوامع، ج 2، ص 195.

² . نفسه، ج 2، ص 46.

وذكر السيوطي أن بعضاً من المغاربة جَوَزَ أن يوصف بها كل ظاهر ومضمر ونكرة ومعرفة، وقالوا في ذلك لأنّ الوصف بها يخالف سائر الأوصاف¹.

.. الاستثناء بـ (غير): ذكر ابن هشام والأشْمُونِي أنَّ انتصاب (غير) في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد (إلا) عندهم، واختاره ابن عصفور².

.. نصب المضارع بعد الفاء: ذكر الأشْمُونِي في شرح الألفية أنَّ المغاربة أجازوا نصب المضارع بعد الفاء في جواب الاستفهام المتضمّن وقوع الفعل، نحو: "أين ذهب زيدٌ فنتَّبِعْهُ؟" وقد اشترط النّحاة ومنهم ابن مالك في (التسهيل) لنصب المضارع هنا أن لا يتضمّن الجواب وقوع الفعل³، أي دلّالته على المستقبل وليس الحاضر.

.. حذف (أنّ) الناصية: ذكر الأشْمُونِي أن النّحاة وضعوا عشرة مواضع لحذف (أنّ) وبقاء المضارع بعدها منصوباً، ونصّوا على أنّ نصبه بحذفها في غير تلك المواضع شاذ، لا يقبل منه إلاّ ما نقله العدول، كقولهم: خذ اللصّ قبل يأخذك، ومُرّه يحفرها.

ويرى ابن مالك أنّ ذلك مقصور على السماع ولا يجوز القياس عليه، ثم أجاز ابن مالك وغيره حذف (أنّ) ورفع المضارع دون نصبه ... أمّا المغاربة فقد ذهبوا إلى أنّ ذلك مقصور على السماع مطلقاً، فلا يرفع ولا ينصب بعد الحذف إلاّ ما سُمع، وقال الأشْمُونِي إنّ ذلك مذهب المتأخّرين من المغاربة، وقيل هو الصحيح⁴، أي اقتصراره على السماع وهو الصواب.

¹ . السيوطي، همع الهوامع، ج 2، ص 201 - 202.

² . ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، ط 1. دمشق: 1964، دار الفكر، ج 1، ص 171.

والأشْمُونِي، شرح الألفية، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 1. لبنان: 1955، دار الكتاب العربي، ج 1، ص 234.

³ . الأشْمُونِي، شرح الألفية، ج 3، ص 566.

⁴ . نفسه، ج 3، ص 572 - 573.

... (لولا) و (لو): ذكر الأشموني أنّ المغاربة لا يسمون (لولا) شرطاً، ولا (لو) إلاّ إذا كانت بمعنى (إن)، إذا سبقنا بقسم، لأنّ جواب القسم محذوف استغناءً بجواب (لولا) و (لو)¹، وذلك لأنّ القسم الذي تسبق به يغيّر معناها.

... تعليق عمل (ظنّ) وأخواتها: يعني (التعليق) إبطال عمل (ظنّ) أو إحدى أخواتها لفظاً لا محلاً، شرط أن تسبق بشيء له الصدر في الكلام كالنفي أو الاستفهام أو إن أو القسم ... نحو: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، وعلمت إن زيداً قائمٌ، وعلمت والله لا زيدٌ في الدار ولا عمرو. وأضاف النّحاة من المعلقات لها (لعلّ) و (لو) نحو قوله تعالى: (وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين) الأنبياء ١١١، ذكر ذلك أبو علي الفارسي، وذكر الأشموني أنّ بعضاً من المغاربة ذكر من المعلقات (إنّ) التي في خبرها اللام نحو: علمت إن زيداً لقائمٌ²، فإنّ هي التي علّقت العمل برأي المغاربة.

... فاعل نعم ويئس: نصّ سيبويه على لزوم ذكر فاعل نعم ويئس، وصحح بعضهم أنّه لا يجوز حذفه وإن فهم المعنى كقولهم: "قبها ونعمت"، وقد نصّ بعض المغاربة على شذوذ ذلك³، وعدم استحسانه.

3 - مصطلحاتهم الجديدة: عبّر المغاربة عن بعض المصطلحات المتداولة بين جمهور النّحويين والمتعارف عليها بتعابير جديدة تشير إلى حسّهم اللغوي المتمكّن، وتضلّعهم الواسع في فهم حدود النّحو، فأحياناً يمزجون بين فكرة المصطلح النّحوي وتعريفاتها التي تشير إليها، وكأنّها ترجمات للمصطلحات المتداولة، وأحياناً أخرى يغرفون من اللغة معاني تتناسب مع مفهوم الفكرة النّحوية، ومن أمثلة ذلك:

¹ . الأشموني، شرح الألفية، ج 3، ص 593 - 594.

² . نفسه، ج 1، ص 160 - 161.

³ . نفسه، ج 2، ص 375.

. عبر الجزولي عن الأفعال اللازمة باصطلاحات خاصة وهي معانيها التي تدل عليها وهي:

• أوزانها التي ترد عليها كفعل.

• أفعال النفس.

• أفعال الجسم.

• أفعال الطبيعة.

وتبعه في ذلك تلميذه ابن معط فسمّاها (أفعال النفس)، وتأثر بذلك ابن مالك فسمّاها (أفعال السجايا) وسمّاها المكودي (أفعال الطباع).

. قسّم الجزولي الفعل بالنسبة إلى الزمان إلى ثلاثة أقسام، وكلّها بالوضع، وهي: الماضي لحدث مضى وقد سمّى الأمر بـ(المستقبل)، والمضارع بـ(المبهم)، وذلك لأنّ الأمر واقع في زمن المستقبل لا محالة نحو: اذهب، أمّا المضارع فهو مبهم بين الحال والمستقبل، حتى تدخل عليه قرنية تصرفه إلى الحال أو المستقبل نحو: الآن غداً، اليوم...

وسمّاها كذلك ابن معط بـماض ومستقبل وحال، فالمستقبل هو الأمر، وسمّى المضارع تارةً بالحال وتارةً أخرى بـ(المبهم بين الحال والاستقبال).

. قسّم الجزولي الاسم إلى ثلاثة أقسام: صحيح ومعتل و(مشبه بالمعتل)، وقسّم المعتل إلى اسم منقوص واسم مقصور.

وقصد بـ(المشبه بالمعتل) الاسم الممدود، وكذلك ما كان آخره ياءً أو واوًا أصليتين مشددتين أو مخففتين نحو: عدوّ وكرسيّ، أو مخففة نحو: ظبيّ وغزو.

كما أنّه قسّم الاسم المنقوص إلى (عام) و(خاص).

فالعام نحو : قاضٍ وغازٍ.

والخاص قصد بها الأسماء الستة نحو: فوك¹.

¹. الجزولي، المقدّمة الجزولية، ص 46.

. سمى الجزولي في باب التعدي المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بـ(المصدر)، وقسم هذا (المصدر) إلى مبهم ومعدود ومختص، يقول: "يتعدى الفعل أجمع بلا واسطة إلى المصدر ... والمصدر على ثلاثة أقسام: مبهم ومعدود ومختص.

فالمبهم هو النكرة غير الموصوفة ولا المحدودة بالهاء ولا المضافة، والمعدود ما فيه هاء التأنيث، والمختص هو النكرة الموصوفة والمضافة والمعرفة بالألف واللام¹. مثال المصدر المبهم: ضربت ضرباً، ومثال المعدود: ضربته ضربةً (مصدر مرة) ومثال الموصوف: ضربته ضرباً شديداً، ومثال النكرة المضافة: ضربته ضرب المتسامح، ومثال المعرفة: ضربته الضرب الذي يستحقّه.

. سمى ابن معط أسماء الإشارة والأسماء الموصولة (بالمبهمات)، وذلك لأنّ معناها مبهم دون صلاتها.

. سمى ابن معط البذل الذي يسميه بعض النحويين (بذل البعض من الكل) بقوله: (بذل الشيء من الشيء وهو بعضه) وعبارة ابن معط أوضح.

. سمى ابن معط التمييز الواقع معرفة بـ(المشبه بالمفعول) نحو: الحسن الوجّه.

. سمى المكودي نون التوكيد الثقيلة بنون التوكيد الشديدة.

4 - في التدرّج في عرض أبواب النحو ومسائله: خالف النحاة المغاربة النحاة المشاركة

في عرض بعض مسائل النحو والصرف، وإن كان الغالب على منهجهم في التدرّج في عرض المسائل الاعتماد على المبدأ المشهور في النظرية النحوية الذي هو مبدأ (الأصل والفرع) القائم على البنية التفرعية للوحدات النحوية وفق النظام التسلسلي الذي يتم بالانتقال من الوحدات الأصلية السهلة البسيطة إلى الوحدات الفرعية المركبة والمعقدة، كأن يبدأ بالمفرد لأنّه أصل ثم المثنى والجمع لأنّهما فرعان عنه بزيادات. ومن أمثلة ذلك أنّ ابن معط في فصوله وضع خمسة أبواب رئيسية تدرج تحتها فصول فرعية، في كل باب عشرة فصول، فكان الباب

¹. الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 84.

الأول في حدّ الاسم، والباب الثاني في حدّ الفعل، والباب الثالث في حدّ الحرف، والباب الرابع في النكرة والمعرفة والتوابع، والباب الخامس في متفرقات وبعض مسائل الصرف، ويعالج كل باب الموضوع الأصل مع مختلف لواحقه وفروعه، فإذن في كل باب رئيسي أصل ثم تتفرع تحته الوحدات النحوية طرديا إلى وحدات جديدة في فصول بما لحقها من زيادة أو حذف أو قلب أو تقديم أو تأخير وغيرها...

وهذا المنهج منهج محكم أراد به ابن معط أن يسهل على الدارس تعلّم النحو، بمعرفة أصول الوحدات النحوية، ثم ما لحقها من زيادات أي فروعها، بالمرور من فكرة إلى لاحقتها والتي ترتبط بسابقتها أشد ارتباطا. لكن رغم التبويب المحكم لأقسام النحو والصرف في كتب المغاربة على الشكل التسلسلي التدريجي للوحدات من الأصل إلى الفرع، من العام إلى الخاص، من السهل إلى المعقد ومن البسيط إلى المركّب، إلّا أنّهم خالفوا بعض جزئيات التدرّج والترتيب المعروف في أمهات الكتب النحوية مع ما يتناسب مع تفكيرهم ونظرهم، ومن أمثلة ذلك:

. عالج ابن معط في (الفصول الخمسين) على هذا الترتيب: جمع التكسير ثم الجمع السالم مذكّرا ومؤنثا والذي سماه بجمع السلامة وهو مصطلح أستاذة الجزولي، على غير عادة النحاة المشاركة الذين يذكرون الجمع السالم أولاً ثم جمع التكسير ثانيا، وقد عمد ابن معط إلى ذلك لأنّ جمع التكسير لفظ مفرد، معرب بالحركات، ولا تطوله تغيّرات في آخره، بينما الجمع السالم مذكّرا أو مؤنثا لفظ مركّب من الأصل والزيادة، معرب بالحروف لا بالحركات، وتلحقه تغيّرات في آخره زيادة أو حذفاً نحو: مصطفى مصطفى مصطفى مصطفى مصطفى، خزانة خزانات، حبلى حبليات، صحراء صحراوات ... فلذا قدّم جمع التكسير على الجمع السالم لأنّه بسيط سهل غير مركّب معقد.

. في كلام ابن معط عن المقصور والمنقوص قدّم الاسم المقصور في الترتيب على الاسم المنقوص، والمشهور في كتب النحو قبل ابن معط البدء بما آخره ياء قبلها كسرة وهو اسم الفاعل المنقوص، وقد علل ابن إياز ترتيب ابن معط بأن قال إنّ المنقوص لا يثبت

آخره، إذ تُحرّك ياءؤه في النصب، وتضمّ ياءؤه في الرفع وتكسر في الجر وتحذف في الاسم المنكر، والمقصود يستحيل له ذلك فهو أقعد في الحركة فلهذا قدّمه¹. وقد استحسن ابن إياز هذا الترتيب الجديد لابن معط في تقديمه الاسم المقصور على الاسم المنقوص، وقد أثر ابن معط في كل الذين أتوا من بعده إذ صاروا يقدمون الاسم المقصور على الاسم المنقوص، ومن هؤلاء: ابن مالك في (الألفية) و(تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، وكلّ شراح (الألفية)، وكتّابي (قصر الندى وبل الندى) و(شذور الذهب في معرفة كلام العرب) لابن هشام الأنصاري وغيرهم ...

. تحدّث ابن معط في فصل واحد على الترتيب عن: المصدر وظرفي الزمان والمكان (المفعول فيه) والحال والتمييز والمستثنى والمشبه بالمفعول والمفعول معه والمفعول له على هذا الترتيب، وهو يقصد بالمصدر المفعول به، ومن عادة المصنّفين النحاة ذكر المفاعيل الخمسة على التوالي، ثم ينتقلون إلى الحال والتمييز والاستثناء، وابن معط خالفهم في ذلك إذ فصل بين المفعول فيه بالحال والتمييز والاستثناء والمشبه بالمفعول وهو التمييز إذا وقع معرفة، وقدّمها على المفعول معه والمفعول له، وعلّته في ذلك أنّ الحال والتمييز والاستثناء تقع موقع الفاعل في المعنى، فقولك: جاء زيدٌ راكباً، فراكباً في الحقيقة حال لأنّه يبيّن هيئة الفاعل، وقولك: طاب زيدٌ نفساً، معناه: طابت نفس زيدٍ، فالتمييز هنا فاعل في المعنى، وقولك: ما قام إلا زيدٌ، فزيدٌ مستثنى لكنه فاعل، لذا استحققت أن تتقدم على المفعول معه وله.

. صنّف الجزولي الأسماء الستة في باب الاسم المنقوص، وقد صنّف المنقوص في باب المعتل، وبذلك تكون الأسماء الستة مندرجة في باب المعتل وذلك نظراً للاعتلالات الواقعة في إعرابها رفعاً ونصباً وجزاً، وقد تبعه في هذا تلميذه ابن معط، وهو منهج جديد لم يسبق إليه أحد.

5. أدلة النحو في كتب المغاربة ومصادر الاحتجاج:

1. السماع: يعتبر السماع الأصل الأول من أصول النحو العربي، والدليل النقلي

للاستدلال النحوي، وهو كلّ ما نقل عن العرب الفصحاء من العصر الجاهلي إلى نهاية

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 102.

القرن الرابع الهجري، بشروط دقيقة في ثبت النقل، يعرفه أبو البركات الأنباري ت577هـ بقوله: "هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدّ القلة إلى حدّ الكثرة"¹. ويشمل ثلاثة مصادر أساسية هي: القرآن الكريم وقراءاته في المرتبة الأولى، كلام النبي صلى الله عليه وسلم في المرتبة الثانية، وكلام العرب شعرا ونثرا في المرتبة الثالثة.

وقد وضع البصريون لكلام العرب حدودا مكانية وأخرى زمانية واضحة ومعروفة في كتب النحاة، فلم يُقبل كلّ ما خرج عنها وإن كان صحيحا يجري على سنن العربية احتياطا منهم للوصول إلى اللغة العربية الفصيحة التي لم تختلط بغيرها ولو في حرف.

وأجمعت كلمة النحويين قاطبة على الاحتجاج بالقرآن الكريم فهو المصدر الأوّل من مصادر الاحتجاج، أمّا القراءات القرآنية المتواترة منها أو الأحاد فقد وقع فيها شيء من الردّ، إذ رفض البصريون الكثير منها وإن كانت من القراءات السبع المتواترة، فقد رفضوا قراءة نافع مقرئ أهل المدينة، وقراءة ابن عامر مقرئ أهل الشام، وقراءة حمزة بن حبيب مقرئ أهل الكوفة، ممّا لم يتوافق مع المقاييس التي استنبطوها من القرآن الكريم بلغة قريش.

ويأتي في المرتبة الثانية الحديث النبوي الشريف وفيه كلام كثير أفضى إلى قلة الاحتجاج والاستشهاد به في كتب الأوائل، فهذا كتاب سيبويه أوّل كتاب نحوي كامل يصلنا فيه قرابة أربعمئة شاهد قرآني، وألف وخمسون شاهدا شعريا، وثمانية أحاديث فقط، والغريب أنّ سيبويه لم يصرح أنّها أحاديث نبوية بل جعلها من كلام العرب، وهذا كتاب (معاني القرآن) للفراء رغم أنّه كتاب في التفسير والنحو إلّا أنّه لم يستشهد فيه إلّا بخمسة وثلاثين حديثا فقط، ولم يستشهد بها في بناء قاعدة بل في تفسير كلمات لغوية أو آية قرآنية أو بيان سبب نزولها.

ولم يتجرأ أحد من النحويين القدامى على الاحتجاج بالحديث النبوي وبقي الحال كذلك حتى القرن السادس الهجري حين نظر فيها العلماء الأندلسيون، فكان ابن الطراوة ت528هـ أوّل من

¹. الأنباري، لمع الأدلة في أصول النحو، تح: سعيد الأفغاني، د ط. دمشق: 1957، مطبعة الجامعة السورية،

استفاد من هذا المصدر في تقرير بعض الأحكام النحوية وبناء القواعد، وتبعه في ذلك السهيلي تـ581هـ، وابن خروف تـ609هـ. أما ابن مالك تـ672هـ فقد توسّع توسّعا كبيرا في اعتباره أساسا صحيحا لوضع القواعد ومصدرا فصيحاً للاحتجاج، ويتجلّى ذلك في مصنّفاته التي حوت أحاديث كثيرة، فهذا كتابه (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح أو إعراب مشكل البخاري) حوى مسائل نحوية مستنبطة من أحاديث نبوية من صحيح البخاري. وقد أعاب عليه أبو حيان الأندلسي شارح كتبه هذه الطريقة واتّهمه بالخروج عن سنن النحويين في وضع القواعد على الأحاديث.

وجاء بعده أبو إسحاق الشاطبي تـ790هـ وقسم الأحاديث قسمين: قسم نقل معناه دون لفظه، ففي هذا القسم أجمعوا على عدم الاحتجاج به، والقسم الثاني عني بنقل لفظه، وعليه اعتمد في وضع القواعد والاحتجاج به في النحر.

وقد أثار المجمع المصري للغة العربية في العصر الحديث هذه القضية، ووقع جدال كبير بين أعضائه بين رافض للأخذ به على طريقة الأوائل وأبي حيان، وبين مؤيد له على طريقة ابن مالك والمتأخرين، وأفضت المناقشات العديدة والجلسات المتكررة إلى صحة الاحتجاج بهذا المصدر ممّا دون في الكتب الصحاح الستة فما قبلها، ووضعوا شروطا.

ويأتي كلام العرب شعرا ونثرا في المرتبة الثالثة وهذا المصدر الثالث قد قيّد بحدود زمانية لا تتعدّى منتصف القرن الثاني للهجرة في البوادي، ونهاية القرن الرابع في المدن. وبحدود مكانية لا تتعدّى ست قبائل أو خمسا عند بعض النحويين وهي: قيس، أسد، تميم، هذيل، بعض كنانة، وبعض طيء على اختلاف درجة فصاحتها ودرجة الأخذ عنها. وعلى أية حال فإنّهم لم يأخذوا من حضري ولا من سكان البراري ممّن جاور الأمم الأعجمية، فلم يؤخذ من لخم ولا من جذام لمجاورتهم لأهل مصر والقبط، ولا من قضاة ولا غسان ولا إياد لمجاورتهم أهل الشام، ولا من تغلب ولا النمر لأنّهم مجاورون لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لمخالطتهم الفرس والهند، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا

من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم التجار، ولا من حاضرة الحجاز، خوفا من تسلل اللكنة لمجاورة كل هؤلاء الأمم الأعجمية.

بينما كان الكوفيون على عكس البصريين فقد احتجوا بسكان هذه القبائل ما داموا عربا، وتوسّعوا في الأخذ عنهم حتى قيل إنّ الكوفة جمعت لغة العرب كلّها، على عكس البصريين الذين أسقطوا كلّ تلك القبائل وطعنت في الكثير من كلامها العربي الفصيح واتّهمت بالشذوذ وعدم الفصاحة.

ويعدّ ابن مالك من أكثر النحويين المحدثين تساهلا كالكوفيين، سار على نهج الكوفيين في التوسّع في الأخذ من هؤلاء العرب ولم يتحر في النقل، واعتبر ذلك جائزا ما دام أنّه عربي وفي العصور الأولى من الفصاحة قبل تفشي اللحن، وكان أبو حيان ممّن أعاب عليه هذا العمل، وقال إنّهُ أخذ من لغة لحم وخزاعة وقضاعة ممّا لم يكن من عادة أئمة العربية، ومن ثم طعن في الكثير من نحوه وإن كان يجلّه ويقدر علمه. وكذلك احتج ابن مالك على مذهب الكوفيين بجميع القراءات سواء كانت متواترة أم شاذة، ومردّهم في ذلك أنّها منقولة عن عرب أقحاح متقدّمين في الفصاحة، ومنقولة عنهم نقلا صحيحا بالأسانيد المتواترة الصحيحة.

وكان أبو حيان من أكثر النحاة الأندلسيين تشددا في الأخذ بالسماع والقياس على منهج البصريين الصارم، في تحرّي النصوص واستنباط الأحكام، لكن رغم ولائه لمنهجهم هذا إلا أنّه لم يقف موقفهم إزاء القراءات، فقد رفض منهجهم القائل بردها، وذلك لأنّها منقولة عن عرب خلص فصحاء، ومن أجل ذلك رمى الزمخشري بألفاظ قاسية في تفسيره (البحر المحيط) حين رفض قراءة ابن عامر في قوله تعالى: (قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ) الأنعام 137.

. موقف النحاة المغاربة من السماع: إنّ القارئ في كتب النحاة المغاربة يستنتج على

الفور سعة اطلاعهم على مصادر الاحتجاج خصوصا القرآن الكريم وكلام العرب، وإن قلّت في

بعض الكتب كالمقدّمة الجزوليّة، ووقفوا في الغالب موقف البصريين في تحرّي الفصاحة في المسموع، فلم يقبلوا إلاّ بعربيّة من يوثق به.

والملاحظ أنّهم لم ينقادوا لمنهج الأندلسيين الجديد الداعي إلى الأخذ بالحديث الشريف في وضع قواعد النحو، على الرغم من أنّ أوائل النحاة الأندلسيين الداعين إلى الأخذ بالحديث كابن الطراوة والسهيلي وابن خروف كانوا ينتقلون في مدن المغرب كفاس ومراكش وسبتة وبجاية ويدرسون في جوامعها ومدارسها مبادئ نحوهم، بل فضّل النحاة المغاربة نهج البصريين والمتقدّمين من النحاة في قلّة الأخذ به، أمّا باقي المصادر فإنّ كتبهم تحفل بها خصوصا كتب ابن معط. فال(الدرة الألفيّة) و(الفصول الخمسون) كتابان أكثر فيهما ابن معط من الشواهد اللغويّة شعرا وقرّانا، ففي ألفيته ظاهرة فريدة من نوعها وهي قدرته على تضمين الشواهد اللغويّة المختلفة وإدماجها داخل النظم، هذا ممّا لم يقدر عليه ابن مالك في ألفيته، ومن أمثلة ذلك، يقول ابن معط في (ما الحجازيّة) العاملة عمل ليس:

يشهد للحجاز في لغاتهم مقالة ما هن أمهاتهم

ومن عدا أهل الحجاز رفعوا خبر ما إلاّ الذين سمعوا

النصب في القرآن فيما ذكرا ومنه في يوسف هذا بشرا¹.

ففي هذه الأبيات إشارة إلى سورة المجادلة الآية الثانية وهي قوله تعالى: (ما هنّ أمهاتهم) وإلى سورة يوسف الآية الواحدة والثلاثين في قوله تعالى: (ما هذا بشرا).

ويقول في باب الحال:

وحال ما نكّر قبله يُحلّ كقوله لميّ موحشا طلل

والحال قد تكون تأكيدا كما قال هو الحقّ مصدقا لما

وقد تجيء الحال طورا معرفة في حكم تنكير ومشتقّ صفة

¹. ابن معط، الدرة الألفيّة، ص 46.

كقوله أرسلها العراقا وجهده ووحده أتاكا¹

ففي هذا القول أدمج ثلاثة شواهد: شاهدان شعريان وآية قرآنية، الأول قوله: (لمي موحشا ظلل) وهو لكثير وتمامه:

لمي موحشا ظلل يلوح كأنه خلل.

والثاني قوله: (أرسلها العراقك) وهو للبيد وتمامه:

فأرسلها العراقك ولم يذدعا ولم يشفق على نغص الدخال

والآية قوله تعالى: (هو الحقّ مصدّقا لما) من سورة فاطر الآية 31.

وهذا النحو كثير في ألفيته، أمّا فصوله فلا يكاد يخلو فصل من عدّة آيات قرآنية وشواهد شعريّة توضّح الفكرة النحويّة، كما أنّه استشهد بأحاديث نبويّة وقراءات قرآنية لكنّها في مواضع قليلة. بلغت شواهد ابن معط في الفصول من القرآن الكريم مائة وواحدا وعشرين شاهدا (121) واثنين وستين (62) شاهدا شعريا بين شعر ورجز، ولم ينسب منها إلى قائلها إلا أربعة شواهد وهم: النابغة، الفرزدق، جرير وذو الرمة. ولم يستشهد بالحديث إلا مرة واحدة في الكلام عن أفعّل التفضيل في قوله صلى الله عليه وسلّم: "ما من أيام أحبّ إلى الله فيها الصوم منه في عشر ذي الحجة"، ومن الأثر قول واحد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الكلام عن الاسم المقصور.

وعن أستاذه الجزولي فقد طبع مقدّمته ببخل شديد في الاستشهاد رغم إلمامه الواسع بكلام العرب والقرآن الكريم والأثر، فلا نجده يستشهد إلاّ بعشر آيات قرآنية وذلك في مواضع متفرقة، وبعض أشعار العرب وكلامها، أمّا الحديث النبوي فلم يذكر منه شيئا... ولم يكن يشير إلى سور الآيات، ولا إلى قائلها الأشعار، وكان يكتفي أحيانا بشرط بيت، وأحيانا أخرى بكلمة واحدة من الشطر، والتي هي موضع الشاهد، وهذا الشيء ليس عجزا منه أو ضعفا، بل

¹. ابن معط، الدرة الألفية، ص 32.

إنّما أراد أن يقنن النّحو ويجاري بمقدّمته كتب الفلسفة والمنطق التي كانت سائدة في عصره عصر الموحدين كمؤلفات ابن رشد وابن زهر، التي تميل في طابعها العام إلى الاختصار الشديد.

وأكثر المكودي من مختلف الشواهد في شرحه المشهور على ألفية ابن مالك، وتتوّعت نصوصه بين قرآن وحديث وشعر وقراءات. فأما استشهاده بالآيات القرآنية والشعر فبحرّ واسع، وأمّا بالقراءات والأحاديث فقد سار فيها مسلك ابن مالك في كثرتها، فلا يكاد يخلو شرح واحد لبيت من آية أو أكثر وقراءة مع إمامه الواسع بلغات العرب، يقول في شرح قول ابن مالك في الإدغام:

وَفُكَّ حَيْثُ مَدَغُمْ فِيهِ سَكَنٌ لَكُونِهِ بِمُضْمَرِ الرَّفْعِ اقْتَرَنَ

نَحْوُ حَلَلْتُ مَا حَلَلْتُهُ وَفِي جَزْمٍ وَشَبْهِ الْجَزْمِ تَخْيِيرٌ قُفِّي

يقول المكودي: "يعني أنّ المدغم فيه إذا سكن في جزم نحو: لم يردّ، أو شبه الجزم وهو في الوقف نحو: ردّ، جاز فيه بقاء الإدغام والتفكيك نحو: لم يردد وأردد، وإنّما جعل فعل الأمر شبيها بالمجزوم لأنّ حكمه حكم المضارع فهو شبيه به ويلزم في فعل الأمر اجتلاب همزة الوصل لأنّ تفكيكه يوجب تسكين أوله كالصحيح، والتفكيك لغة أهل الحجاز، والإدغام لغة تميم، وبلغة أهل الحجاز جاء القرآن غالبا نحو: (ومن يرتدّ منكم عن دينه) البقرة 217،

(ولا تمنن تستكثر) المدثر 6، وهو في القرآن كثير، ومما جاء فيه مدغما قوله تعالى: (ومن يُشاقّ الله) الحشر 4 في سورة الحشر عند جميع القراء، (ومن يرتدّ منكم) البقرة 217، في قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكوفيين، وإنّما خير الناظم في الوجهين لأنّ المتكلّم به يجوز له أن يتكلّم باللغتين معا¹.

والملاحظ في شواهد المكودي علاوة على كثرتها مجيؤها كاملة بشطرين إن كانت شعرا، أو بذكر الآية كاملة ورقمها في السورة، ونسبة القراءة إلى صاحبها، وهذا أسلوب تعليمي متميّز يمكّن الدارس من حفظها، وينهي كلّ شرح بإعراب البيت لتدريب الدارس على الإعراب لصحة النطق...

¹. المكودي، شرح الألفية، ص 400.

وعلى أية حال فإنّ النّحاة المغاربة لم يحاولوا إضافة مصادر أخرى من كلام العرب غير التي حددها النّحاة القدامى في القبائل المشهورة، ولم يحاولوا تمديد عصر الاحتجاج، بل اقتصروا على تلك العصور المعروفة بالفصاحة والتّقعيد، وعبّروا باصطلاحاتهم: هذا مقصور على السماع، يحفظ ولا يقاس عليه، هذا مقيس، شدّ قولهم...

والجدير بالذكر أنّ الجزولي قد اجتهد في هذا الأصل الأوّل من أصول النّحو نسبياً وحاول فكّ التبعيّة المطلقة لمنهج القدامى الصّارم، فرأى أنّ بعض النصوص التي رموها بالألفاظ المعروفة الدّالة على عدم فصاحتها تحتاج إلى إعادة النظر لما فيها من ادّعاء على العرب في كلامها، دون دليل قاطع، ولذلك بذل جهداً ملحوظاً في محاولة التّدليل عليها، وإثبات صلاحيتها بما يجعل تأصيلها أمراً مقبولاً¹. كان موقف الجزولي من السماع يتّجه نحو التوسّع في الأخذ من كلام العرب، واعتبر بعض النّصوص التي اعتبرها النّحاة غير فصيحة، صالحة للاحتجاج بها بحسب ما أدى إليه فكره ومنهجه، وله فيها مواقف جريئة ومتميّزة تتلخّص في هذه الملاحظات:

1 - قبول نصوص سبق لغيره أن اعتبرها غير فصيحة، من غير حجة قاطعة ما عدا تلك الأحكام التي أطلقوها من منهجهم الصّارم المتشدد، وقد نظر فيه، وقبلها لتكون له سنداً في:

. استنباط قواعد جديدة، وتوضيح بعض مسائلها.

. تصحيح قاعدة أخرى والاحتجاج لها كي تصبح مطردة مطلقة الاطراد.

. إبطال أقيسة بعض النّحاة وبيان فساد ما ذهبوا إليه.

2 - محاولة تأويل الكثير من النّصوص الخارجة عن القاعدة، فما قبل منها التّأويل بوجه من الوجوه عدّه فصيحا واحتجّ به، وما لم يقبل التّأويل عدّه شاذاً لا يقاس عليه².

وكانت اللّغات المشهورة في كتب النّحويين القدامى كلغة أهل الحجاز وتميم ولغات القبائل الست متداولة بكثرة في كتب نحاة المغرب، استدّلوا بها في وضع القواعد وسرد الأحكام ممّا يوحي

¹. أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، ص 128.

². نفسه، ص 246 - 247.

إلى سعة اطلاعهم على لغات العرب وسنن كلامها، يقول الجزولي في باب "فَعَالٍ" إذا كانت هذه الصيغة لاسم علم نحو: حَدَامٍ وَقَطَامٍ فَإِنَّ التَّمِيمِيَّينَ يمنعونها من الصرف للعدل والعلمية عن حاذمة وقاطمة، وما كان آخره راء نحو: وَبَارٍ (اسم بلدة) وَحَضَارٍ (اسم ماء) فَإِنَّهُمْ بنوه على الكسر. أمّا الحجازيون فَإِنَّهُمْ بنوا جميع باب فَعَالٍ على الكسر سواء كانت هذه الصيغة اسم علم أو اسم فعل أمر أو صفة غالبية¹. وقوله في لا التبرئة إِنَّ بني تميم لا يلفظون خبرها إلا أن يكون ظرفا...

وكان ابن معط والمكودي مَمَّنْ أَلَمَ بقدر وافر بلغات العرب، فاحتجا بلغة الحجازيين والتميميين وبلغة هذيل وطيء وغيرها...

وسمى النحاة المغاربة ما خالف المسموع المطرد والشائع من كلام العرب الفصحاء (باللغات) على مذهب أبي عمرو بن العلاء، فقد سئل أبو عمرو عما وضعه ممّا سمّاه عربيّة، أيدخل فيه كلّ كلام العرب، وماذا يصنع فيما خالفته فيه العرب وهو حجة ؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمّي ما خالفني لغات². ومن ذلك قول الجزولي: "وفي الذي لغات، وفي فوك أربع لغات، وفي حم خمس لغات، وهنوك لغتان، وفي لعل ست لغات، وقولهم في حاشا ثلاث لغات، وفي التي لغات مثل الذي..."

ويتبيّن ممّا ذكر أنّ النحاة المغاربة أولوا أهمية قصوى للسماع، ووقفوا موقف البصريين في تحري الفصاحة في الراوي والمروي، ووقفوا أيضا موقف الكوفيين في احترامهم كلام العرب خصوصا ما كان من العصور الأولى من الفصاحة، فرفضوا مبدأ هدر اللغات لمجرد أنّها لم تنطبق عليها شروطهم ومقاييسهم، فأعادوا النظر في ما اعتبره البصريون شاذّا من عصر الفصاحة بفتح باب (التأويل) على مصرعيه.

¹. أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، ص 213 - 214.

². الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 39.

2. القياس: القياس هو الأصل الثاني من أصول النحو، والدليل العقلي لأحكام النحو، قال

النحاة إنَّ النحو كله قياس يتبع.

نشأ القياس في بادئ الأمر استقرائيا وذلك برصد الظواهر النحويّة المطّردة في كلام العرب، أي الظواهر الكثيرة الشائعة ثم بناء القواعد عليها، أي بنائها على تلك الكثرة المطّردة، وما خرج عن تلك الكثرة عدّ شاذا خصوصا عند أوائل البصريين كعبد الله بن أبي إسحاق الخضرمي، أمّا أبو عمرو بن العلاء فلا يجعل ما خرج عن ذلك القياس شاذًا، بل يجعله مقبولا لكن بدرجة أقلّ من المنزلة الأولى ويجعله (لغة من لغات العرب الفصيحة).

وأخذ هذا النوع من القياس الاستقرائي مساره من نشأة النحو إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وأخذ بالتطور على يدّ الخليل وتلميذه سيبويه حتى وصل كامل نضجه، فالكتاب زاهر بأمثلة متنوّعة للأقيسة المختلفة، وبلغ الأمر بسببويه إلى افتراض فرضيات لغويّة ثم يجري عليها أقيسة متنوّعة.

ومن القرن الثالث إلى الرابع ظهر القياس الشكلي على يدّ علماء ذلك العصر كالفارسي وابن جني، الذي يعتمد على حمل فرع على أصل بعلة جامعة بينهما، أو كما عزّفه الأنباري بـ"حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"¹، وظهر هذا النوع بعد تأثر النحاة بالثقافة الأجنبية فشابهوه بالقياس في علم الأصول، وجعلوا له أربعة أركان هي: أصل وهو المقيس عليه، فرع وهو المقيس، حكم يتنوّع، وعلة جامعة بينهما.

واكتمل مفهوم هذا القياس ونضج على يدّ أبي البركات الأنباري تـ577هـ في كتابيه (الإعراب في جدل الإعراب) و(لمع الأدلة في أصول النحو)، وكتاب (الاقتراح في علم أصول النحو) لجلال الدين السيوطي تـ911هـ.

وكانت أقيسة الفارسي وابن جني لم تتعمق كثيرا في المنطق والفلسفة إلى الدرجة التي تأثر بها الرماني الذي تغالى كثيرا في أقيسته النحويّة حتى جعل من النحو منطقا لا علما

¹. الأنباري، الإعراب في جدل الإعراب، تح: سعيد الأفغاني، دمشق: 1957، مطبعة الجامعة السورية، ص 45.

وفلسفة لا لغة، فلم يفهم نحوه النحاة، وكان ممن أرسى دعامة المدرسة العقلية في النحو. وكان الجزولي ممن ارتضى في أقيسته استخدام المنطق، فجاءت عقلية منطقية على نهج تلك المدرسة العقلية في النحو العربي.

وتساهل الكوفيون كثيرا في القياس، إذ جوزوا لأنفسهم وضع القواعد على القليل النادر، ولو كان المسموع بيتا واحدا، وكان الكسائي أول من سن لهم هذه الوتيرة حتى قيل فيه:

إنّ الكسائي وأصحابه يرقون بالنحو إلى أسفل.

وتبعهم في ذلك ابن مالك، فكان ممن تساهل في أقيسته، إذ كان يحترم المسموع ويقيس عليه مهما كان، ولو كان بيتا واحدا. وقد علل الأستاذ عبد العال سالم مكرم دواعي ابن مالك بأن أكثر اللّغة الفصيحة قد ضاع، ولم يحفظ إلا أقله بسبب تشاغل العرب بالجهاد والفتوحات في تلك الفترة المهمة من جمع اللغة، إذ قتل وهلك الكثير، ثم نقل عن السيوطي في الاقتراح قول أبي عمرو بن العلاء "ما انتهى إليكم ممّا قالته العرب إلا أقله، فلو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير"، يقول الأستاذ مكرم مبررا صنيع ابن مالك: "من أجل هذا كان ابن مالك محققا الحق كله في أنه يحترم المسموع ويقيس عليه مهما كان ذلك المسموع، ولو كان بيتا واحدا لأن الرواة لم يحيطوا بكل لهجات العرب ولغاتهم حتى يردوا ذلك المسموع القليل، وربما كان لهذا المسموع نظائر كثيرة لم يستوعبها الرواة. وكان ابن مالك محققا أيضا حينما عني في كتبه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاة وغيرهم لأنه لا يوجد المقياس الذي يجعل النحوي يأخذ لغة قبيلة ويرفض لغة أخرى، فاللغات للقبائل العربية كلها حجة مهما قال أبو حيان إن ذلك ليس من عادة أئمة هذا الشأن"¹، هذا عن تبريره طريقة ابن مالك الجديدة في الأخذ من مختلف القبائل.

. موقف النحاة المغاربة من القياس: أظهر النحاة المغاربة من خلال كتبهم وآرائهم المنثورة

في ثنايا أمهات الكتب الموسوعات كالهمع والأشباه والنظائر وغيرها عناية كبيرة بمبدأ القياس في وضع الأحكام، وقد ارتضوا فيها المبادئ الأساسية التي وضعها البصريون من كثرة المسموع

¹ . عبد العال سالم مكرم، المدرسة النحوية في مصر والشام، ص 258 - 259.

وفصاحته، وسلّموا بها، ومن ثمة اعتبروا كلّ كلام يجري على نسق أقيستهم كلاما عربيا سليما، وكانت لهم آراء جديدة في هذا الأصل تبين اجتهاداتهم في تفكيرهم النحوي ألخصها في ما يلي:

1 - مدّ القياس وفتح أبوابه:

. قال السيوطي في باب "أنّ" إذا خففت تعمل لكن بشروط، قال سيبويه والكوفيون إنّها لا تعمل لا في ظاهر ولا مضمر، وتكون حينئذ حرفا مصدريا مهملا، وقال الجمهور إنّها تعمل جوازا في مضمر لا ظاهر، وقال المغاربة إنّها تعمل في المضمر واسمها حينئذ ضمير شأن وتعمل في الظاهر واسمها حينئذ اسما ظاهرا، واستدلوا بقراءة من قرأ: (أَنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَا) النور 9، ونحو قولهم: علمتُ أنّ زيدا قائمٌ.

. فتح النّحة المغاربة باب جديدا في قياسيةّة تأخير الحاليين عن (أَفْعَلِ التّفضيل) بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثّانية فيقال: هذا أطيب بُسرا منه رُطبا، بينما المسموع من العرب توسّط (أفعل) بين هذين الحاليين: فاقتصر الجمهور على ما سُمع فقالوا: لا يجوز تأخيرهما عن أفعل، ولا تقديمهما عليه، لأنّ القياس في أصل هذه المسألة المنع، لولا أنّ السماع ورد بها، إذ لا يعهد نصب (أفعل) فضلتين بدليل أنّه لا ينصب مفعولين، فلما وردت أجريت كما سمعت. وقد وصف أبو حيان هذا القياس الذي فتحه النّحة المغاربة بالحسن، ولكنّه يحتاج إلى سماع.

2 . تجويزهم قياسيةّة بعض الصيغ التي أوقفها النّحة على السماع:

ذكر السيوطي أنّ بعضا من النّحة المغاربة جوّز قياسيةّة صيغة (مَفْعَلَانِ) التي تستعمل في النداء بمعنى المدح والذّم، وقد أوقف النّحة هذه الصيغة على السماع، إذ سُمعت منها ستة ألفاظ فقط، وقد ذكر ابن سيده الأندلسي هذا القول أيضا.

3 . التوسّع في القياس وعدم التشدد:

ذكر السيوطي في باب الوصف بـ"الّا" أنّ للنّحة شروطا للوصف بها، قال الجمهور شرط موصوفها أن يكون جمعا مذكرا، أو مشبها بالجمع، وزاد ابن الحاجب أن يكون جمعا غير

محصور، وجوز الأخفش أن يوصف بها المعرف بأل العهديّة بخلاف ابن مالك تبعاً لابن السراج والمبرد في أنّ المعرف بها بأل الجنسيّة، بينما أجاز سيبويه الوصف بها كلّ نكرة ولو مفردة. وقد توسّع النّحاة المغاربة ولم يتشدّدوا في حكم الموصوف فقالوا يجوز الوصف بها كلّ معرفة ونكرة، وظاهر ومضمر، وحجّتهم أنّ الوصف بها يخالف سائر الأوصاف. وأقول في خلاصة هذا السرد إنّ النّحاة المغاربة ساروا على منهج البصريين الذي وُصف بمذهب القياس في النّحو، وسلّموا بمسلماتهم وشروطهم، فبنوا أحكامهم على الكثرة المطردة، ولم يعتدّوا بالقليل أو الشاذ، وما خرجوا عنه في بعض المسائل التي ذكرناها تعدّ اجتهادات، لا تخرج عن أصول المدرسة البصريّة المحكمة البناء.

١. أقسام القياس في كتب المغاربة: قسّم الأنباري القياس إلى ثلاثة أقسام: قياس علّة وقياس شبه وقياس طرد، يقول: "فأمّا قياس العلّة فهو معمول به بالإجماع عند العلماء كافة، وأمّا قياس الشبه فهو معمول به عند أكثر العلماء، وأمّا قياس الطرد فهو معمول به عند كثير من العلماء"¹. يعتمد قياس العلّة على حمل فرع على أصل بالعلّة التي علّق عليها الحكم في الأصل، كحمل ما لم يسم فاعله على الفاعل بعلّة جامعة بينهما وهي الإسناد، ومن أمثله عند الجزولي: كلّ اسم تضمّن معنى الحرف وجب فيه البناء كأسماء الشرط والاستفهام لأنّ الأصل في الحروف البناء.

ويعتمد قياس الشبه على حمل فرع على أصل بضرب من الشبه غير العلّة التي علّق عليها الحكم في الأصل، ومن أمثله عند الجزولي: إعراب الفعل المضارع قياساً على الاسم الذي اشتق منه، للشبه بينهما من ثلاثة أوجه: الإبهام، التخصيص ودخول لام الابتداء عليه. وقياس الطرد هو القياس الذي يوجد معه الحكم وتفقد الإخالة في العلّة، واختلفوا في كونه حجة، فذهب قوم إلى أنّه ليس حجة لأنّ مجرد الطرد لا يوجب غلبة الظن²، والعلّة في هذا

¹. الأنباري، لمع الأدلة، ص 105.

². نفسه، ص 110.

القياس قد تطرد لكن لا توجب غلبة الظن كإعراب ما لا ينصرف بعلّة عدم الانصراف فإنّ هذا القول يؤدّي إلى اطراد الإعراب في كلّ اسم غير منصرف، لكن العلة التي تغلب على الظن أنّه أعرب لأنّ الأصل في الأسماء الإعراب، وإن عللت بناء (ليس) بعدم التصرف لاطراد البناء في كلّ فعل غير متصرف، لكن رغم الاطراد والكثرة إلّا أنّ العلة الغالبة على الظن واليقينة هي أنّه بُني لأنّ الأصل في الأفعال البناء، فمجرد الاطراد ليس كافيا لصحة العلة.

ومثل هذا القياس لم يأخذ به الجزولي بل عوّل كثيرا على قياس الأصول واستصحاب الحال.

أمّا السيوطي في الاقتراح قسم القياس إلى ثلاثة أقسام:

. حمل فرع على أصل: وهو قياس استعمله النحاة كثيرا، ويظهر جليا في الجزولية والفصول وغيرها كتصريف الأفعال وصوغ المصادر والجموع وغيرها حملا على المسموع منها، ومن أمثلته عند الجزولي قوله عن نصب وجر الجمع المؤنث السالم بالكسرة: "لما كان منصوب جمع المذكر السالم محمولا على مجروره في الياء التي هي علامة الجر في الأصل، كان منصوب جمع المؤنث السالم محمولا على مجروره في الكسرة التي هي علامة الجر في الأصل، قضاء بحق أصالة التذكير"¹. فالمذكر أصل والمؤنث فرع بزيادة، لذا حمل الجمع المؤنث الذي هو فرع على الأصل الذي هو الجمع المذكر في الجر والنصب، كما أنّ الجر أصل للنصب.

. حمل أصل على فرع: وهو أن يأتي المصدر معتلا أو صحيحا قياسا على فرعه الذي هو الفعل نحو: قمتُ قياما وقاومت قوامًا، وكحمل الاسم الممنوع من الصرف على الفعل إذ لا يقبلان التثنية والكسرة فالاسم أصل والفعل فرع². ومن أمثلة حمل الأصل على الفرع في الجزولية حمل الجر على النصب في الممنوع من الصرف، فالممنوع من الصرف نحو: (مدارس) يجر وينصب بالفتحة، فحمل الجر الذي هو أصل بعلامة الفرع النصب والتي هي الفتحة.

¹. الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 28.

². السيوطي، الاقتراح، ص 85-88.

. **حمل نظير على نظير:** وهو قياس الشبه، بحمل فرع على أصل بضرب من الشبه غير العلة التي بني عليها الحكم كتوكيد المضارع بالنون بعد (لا النافية) كقوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الأنفال 25، حملا لها في اللفظ على (لا الناهية) نحو: لا تحسبن، وكمنعهم أفعّل التفضيل أن يرفع الظاهر لشبهه بأفعل في التعجب وزنا وأصلا وإفادة المبالغة¹. ومن أمثلته عند الجزولي: قوله في الاسم الممدود المقيس: "كلّ مصدر لفعل معتلّ اللام زائد على ثلاثة أحرف قبل آخره، نظيره من الصحيح ألف"²، نحو: إعطاء نظيره من الصحيح: إكرام".

. **حمل ضد على ضد:** نحو نصبهم ب(لم) حملا على الجزم ب(أن)، ومن أمثلته قول الجزولي في البناء: إن الحركات تحمل على مقابل المقابل، أو على مقابل مقابل المقابل.

3 - استصحاب الحال: يعني استصحاب الحال في النحو العودة بالشيء إلى أصله والأخذ بذلك الأصل في إصدار الأحكام، يعرفه الأنباري بـ"إبقاء حال اللفظ على ما يستحقّه في الأصل عند عدم دليل النقل عن الأصل، كقولك في فعل الأمر: إنّما كان مبنيا لأنّ الأصل في الأفعال البناء وإنّ ما يعرب منها لشبه الاسم، ولا دليل يدلّ على وجود الشبه فكان باقيا على الأصل في البناء"³. وهو من الأدلة المعتبرة في أصول النحو، وأصل مهمّ من أصوله بعد السماع والقياس، لكنّه لا يجوز التمسك به في حال ثبوت دليل سماعي أو قياسي يتعارض معه. ومن أمثلة استصحاب الحال استدلال الكوفيين بأنّ الضمير في (لولاك) ونحوه مرفوع، بأن قالوا: "أجمعنا على أنّ الظاهر الذي قام هذا الضمير مقامه مرفوع، فوجب أن يكون كذلك في هذا الضمير بالقياس عليه والاستصحاب"⁴، بينما هو جار ومجرور عند سيبويه. وقول ابن مالك: "من

¹. السيوطي، الاقتراح، ص 89، 90.

². الجزولي، المقدّمة الجزولية، ص 252.

³. الأنباري، الإغراب في جدل الإغراب، ص 46.

⁴. السيوطي، الاقتراح، ص 137.

قال إنَّ كان وأخواتها لا تدلّ على الحدث فهو مردود بأنَّ الأصل في كلّ فعل الدلالة على المعنيين الحدث والزمان، فلا يقبل إخراجهما عن الأصل إلاّ بدليل¹.

وكان المغاربة ممّن اعتدّى بهذا الأصل المهمّ في نحوهم، ويتجلى للدارس هذا الأصل في قراءة بسيطة وسطحية لكتبهم في الكثير من المسائل خصوصا (الجزولية)، ومن أمثلة استصحاب الحال في كتبهم:

. اعتبر الجزولي (إنّما) اسم شرط جازم يدلّ على الظرفيّة الزمانيّة وليس حرفا كما هو معروف في كتب النحاة خصوصا عند سيبويه، وذلك لأنّه استصحب حال (إنّ) قبل انضمام (ما) إليها، والذي هو اسم لظرف، فأبقى على اسميتها، وتجازي بذلك (حيثما) في التزام (ما) بها.

. إجازة الجزولي إلحاق تاء التانيث بـ(أيّ) الموصوليّة والشرطيّة والاستفهاميّة والوصفيّة والتي للمنادى، للدلالة بها على المؤنث، فيقال: (أيّة) وذلك لأنّ الأصل في المؤنث أن تلحقها علامة التانيث، بينما يرى سيبويه والخليل أنّ (أيّ) لا تلحقها علامة التانيث، فإذا أريد بها المؤنث يقال: (أيّ) كما يقال للمذكر². أمّا من اعتبرها حرفا مثل (إنّ) كسيبويه يعلل ذلك بأنّ لا معنى لها وحدها إلاّ إذا اقترنت بجملة، أمّا باقي الأسماء فإنّها تدلّ على معنى لوحدها.

. ذكر السيوطي في (همع الهوامع) أنّ صيغة (مفعّلان) ينادى بها مدحا وذمّا في ستة ألفاظ وهي: مكرمان، ملأمان، مخبثان، ملكعان، مطيبان، ومكذبان وأنّ بعض المغاربة أجاز أن تلحقها تاء التانيث صفاتا للمؤنث، فيقال: مكرمانّة، ملأمانّة، مخبثانّة، ملكعانّة، مطيبانّة، مكذبانّة وذلك لأنّ الأصل في الصفات المؤنثة أن تلحقها تاء التانيث تفريقا بينها وبين المذكر.

4. الاستحسان: يعتبر الاستحسان من أدلّة النحو غير الغالبة في كتب النحو، لما

فيه من ترك القياس، يقول الأنباري: "اعلم أنّ العلماء اختلفوا في الأخذ به، فذهب بعضهم إلى أنّه غير مأخوذ به لما فيه من التحكّم وترك القياس، وذهب بعضهم إلى أنّه مأخوذ به

¹. السيوطي، الاقتراح، ص 137.

². الجزولي، المقدّمة الجزولية، ص 52-53.

واختلفوا فيه، فمنهم من قال: هو ترك قياس الأصول لدليل، ومنهم من قال: هو تخصيص العلة¹. وضرب الأنباري بأمثلة لترك القياس، ولتخصيص العلة: فمثال ترك القياس قولهم: رُفِع المضارع لسلامته من العوامل الناصبة والجازمة، وقولهم أيضا إنه ارتفع بالزائد في أوله. فكلا القولين مخالف لقياس الأصول لأنّ المضارع رُفِع لموقعه موقع الاسم المشتقّ من المصدر وليس لسلامته من الناصب والجازم، وقولهم رُفِع بالزائد أيضا مخالف لقياس الأصول لأنّ الزائد جزء من الفعل المضارع لأنّ الفعل المضارع ما كان في أوله إحدى الزوائد الأربع، وإذا كان الزائد جزءا منه، فالأصول تدلّ على أنّ العامل يجب أن يكون غير المعمول وألا يكون جزءا منه.

ومثال تخصيص العلة أن تعلل جمع (أرض) بعلامة الجمع المذكور فنقول: أرضون، بعلّة حذف تاء التانيث من مفرده، فصار مذكرا فجُمع جمعا مذكرا. لكن أصل أرض (أرضة) مثل: شمس ودار وقدر أصلها: شمسة ودارة وقدرة، فلا يجوز أن تجمع بالواو والنون فلا يقال: شمسون ودارون وقدرون بل شمسات ودارات وقدرات وأرضات.

وهذا الأصل الذي فيه ترك للقياس لا يكاد يعثر عليه في كتب المغاربة، فهذا الجزولي يأخذ بقياس الأصول، ويؤكد عليه نحو قوله: "إنّما رُفِع المضارع لمضارعتة الاسم"، وهو الرأي الأصل. وقوله في تثنية الاسم المقصور: إذا تثنيت المقصور قلبت الألف إلى أصلها في الثلاثي، وإلى الياء فيما زاد على الثلاثي، وألحقت العلامتين.

وقوله في تثنية المشبه بالمعتل (الاسم الممدود) المنتهي بهمزة أصليّة والمنتهي بهمزة غير أصليّة بإبقاء الهمزة لأنّه الأصل ووصفه بالأحسن، يقول: "فأجره إن شئت على الأصل وإن شئت على الزائد، والأوّل أحسن"². وقوله في المتعدّي بحرف الجر: "أصله أن يلزم".

وسار ابن معط على نهج أستاذه الجزولي، فكان كثير الاعتماد على قياس الأصول، ولم يعوّل على الاستحسان في أحكامه النحويّة.

¹. الأنباري، لمع الأدلة، ص 133.

². نفسه، ص 47.

6 - نظرية العامل والتعليل النحوي:

نظرية العامل: أدار النحاة المغاربة معظم مسائل نحوهم على نظرية (العامل النحوي) وعولوا عليها كثيرا، وأولوها مكانة كبيرة في تحديد الوظائف النحوية، وما تحدثه من إعراب مثلما هو الشأن في نحو المشاركة، منذ كتاب سيبويه، فلا يرفع فاعل ولا ينصب مفعول ولا يجر اسم إلاّ بعامل، وإذا لم يظهر التجأوا إلى تقديره حتى يصحّ الإعراب.

ويبدو تأثير العامل في كتب المغاربة جليّا من خلال عناوين المسائل وتعريفاتها، فالجزولي مثلا حين عرّف الإعراب قال: "هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا وتقديرا، وفائدته الدلالة على المعنى الحادث بالعامل".

ومن مظاهر تأثره بالعامل ظاهرا ومقدّرا وتصوّره العمل والتأثير الواسع في الجملة كلّها قوله: إنّ الابتداء هو العامل في رفع المبتدأ والخبر معا على خلاف النحاة البصريين والكوفيين وأنّ هذا العامل المقدّر يطلبهما معا، وأنّ أداة الشرط الجازمة تعمل الجزم في الفعلين الشرط والجواب، وهي أيضا تطلبهما معا، وأنّ الفعل يعمل في الفاعل والمفعول له دون تقدير حرف الجر في هذا الأخير، وذلك على خلاف النحاة.

وكذلك تأثر ابن معط بالعامل النحوي في أبواب وفصول الألفيّة والفصول وجعله سلطان الكلام، المتحكّم في أواخر الكلم والموزّع للوظائف الإعرابية للوحدات اللغوية، فجاء الكثير من عناوين الأبواب والفصول بهذا المصطلح منها في كتاب (الفصول الخمسين) : الباب الثالث بعنوان: (في ما يعمل من غير الأفعال في الأسماء والأفعال): وفيه عالج عمل النواسخ والحروف الناصبة والجازمة والجارة وغيرها . وجاء الفصل الأوّل من هذا الباب بعنوان (في العامل في المبتدأ والخبر)، والفصل الثامن بعنوان (في الأسماء العاملة عمل الفعل) وهي: اسم الفاعل والصفة المشبهة به وغيرها.

وقد بلغ الأمر به إلى ترتيب كلّ مسائل الفصول على مبدأ العامل ممّا جعل بعض المسائل ترد في غير موضعها المعهود في كتب النحو.

والملاحظ أنّ هؤلاء لم يتأثروا بنظرية ابن مضاء القرطبي صاحب الدعوة المشهورة في كتابه (الردّ على النّحاة) الداعية إلى رفض تقدير العوامل، والعلل الثواني والثالث، والقياس العقلي والتمارين غير العملية رغم أنّ ابن مضاء كان بحضرة الموحدين وتقلّد مناصب مهمّة في الدولة، ومارس نشاطه التعليمي في فاس وبجاية ومراكش وغيرها... وكانت أفكاره منتشرة يبيّنها حيثما حلّ، لكن الملاحظ أنّ دعوته لم تجد بمدن المغرب أذانا صاغية فماتت في مهدها لأنّه سرعان ما عاد الناس إلى نحو سيبويه وإلى تقديره أيضا.

. التعليل النحوي: يعتبر التعليل أساس القياس، وهو ما يستدلّ به من علل عقلية في تفسير الظواهر النحوية التي استقرت من كلام العرب وفي شرح بواعثها، وقد سلكت العلة في تطورها المسار الذي سلكه القياس في نشأته وتطوره، بدأت بسيطة على يدّ العلماء البصريين الأوائل، فكان عبد الله بن إسحاق الخضرمي أول من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل¹. ونمت تدريجيا وتطوّرت على يدّ الخليل الذي قال عنه الزبيدي: "استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد ولم يسبقه إلى مثله سابق"².

وكانت العلة في بداياتها ترمي إلى توضيح أسس القواعد والأحكام، وكانت تستخلص من طبيعة الكلام، ثمّ تطوّر هذا النوع من التفسير الوصفي لقواعد النحو إلى التعليل المنطقي في بداية القرن الرابع الهجري على يدّ ابن السراج والزجاجي، ثم جاء دور التعليل الأصولي على يدّ ابن جني والأنباري والسيوطي³. ويعدّ كتاب (إيضاح العلل) للزجاجي و(الخصائص) لابن جني من المراجع الوافية للباحث في العلل، وقد قسّم الزجاجي العلل إلى ثلاثة أضرب: علة تعليمية، وعلة قياسية وعلة جدلية أو ما يعرف بالعلل الأوّل والثاني والثالث.

¹. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 31.

². نفسه، ص 47.

³. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو، ص 36-37.

ويرى الكثير من الباحثين أنّ العلل الثواني والثالث هي التي عقدت النحو ونفرت منه الدارسين، وجعلته من أشقّ الدراسات والعلوم، حتى إنّ نشأة المدارس النحوية المختلفة في معظم الأقاليم إنّما مرجعها إلى اختلاف أصحابها بعضهم البعض في نظرتهم وتصوّراتهم للعلّة.

وكان ابن مضاء القرطبي من أكثر النحاة وضوحا في هذه المسألة، إذ دعا صراحة إلى إسقاط العلل الثواني والثالث في النحو، لأنّ لا طائل من ورائها، ولا يظفر الدارس منها بشيء، وأبقى على العلة الأولى التعليمية لفائدتها في تعليم المبتدئ.

وقسم العلة إلى ثلاثة أقسام: قسم مقطوع به وجب قبوله: وهي العلة التعليمية كأن يقال: لم حرك قوله تعالى: (فم الليل) المزمّل 1 وهو أمر، قلت لأتّه لقي ساكنا، لأنّ كلّ التقاء ساكنين يوجب تحريك أحدهما، فهذه علة قاطعة مقبولة. وقسم فيه إقناع كقولهم: إنّ المضارع أعرب لشبهه الاسم في العموم وقابلية التخصيص، واشتراكهما في بعض الأمور كدخول لام الابتداء عليهما فتقول: إنّ زيدا ليقوم وإنّ زيدا لقائم، وهذا النوع من التعليل يرى فيه أنّ العلة الموجبة للحكم في الأصل موجودة في الفرع. وقسم مقطوع بفساده وهي ممّا رفضه من تعليل غير تعليمي وهو الثواني والثالث¹، متأثرا بدعوة مولاه يعقوب المنصور الخليفة الموحد الذي أمر بحرق كتب المذاهب التي تعتمد على العلل وفي مقدّماتها كتب المالكية والإبقاء على الأصول وحدها من قرآن وحديث شريف، فتبعه ابن مضاء قاضي قضاته آنذاك ببجاية فحذف من النحو كلّ تعليل، وكلّ ما لا يستقيم مع مذهب الظاهرية.

. التعليل عند النحاة المغاربة: يظهر جليّا في كتب النحاة المغاربة نفورهم الواضح من التعليل النحوي المغالي الذي رأوا فيه أنّه قد أفسد النحو مثلما قال الأندلسيون كابن خروف وابن الضائع وأبي حيان الأندلسي، متأثرين جميعا بدعوة ابن مضاء القرطبي التي رفضت كلّ ما لا يفيد في النحو، فجاءت معظم تعليقاتهم كتعليلات الخليل أقرب إلى روح اللغة، لا مبالغة ولا إيغال فيها، تفيد المتعلّم لأنّها بأسلوب بسيط.

¹. ابن مضاء القرطبي، الردّ على النحاة، تح: شوقي ضيف، ط 2. مصر: 1982، دار المعارف، ص 131.

كان تحليل الجزولي بسيطاً وتعليمياً، وكان لا يشعر القارئ بأنه يعلل النحو بقدر ما كان يشعره بعرض الحقائق بالوصف والتفسير ورصد الفروق بين الوحدات النحوية... علل إعراب الأسماء وبناء الأفعال بطريقة بسيطة، يقول: "وأصل الإعراب للأسماء، لأنها لا تتغير صيغتها لتغير المعاني عليها، وأصل البناء للأفعال لأنها تتغير صيغها لتغير المعاني عليها".

وتعتبر تعليقات ابن معط أيضاً تعليمية بسيطة توفى بالغرض وتفهم الفكرة، يقول في باب (في ما تُبنى عليه الكلمة) : "وهو إمّا سكون، وهو الأصل، ولا يعلل. وإمّا حركة فيقال: لم حُرِّك؟ والجواب: إمّا لأنّ الكلمة لها أصلٌ في التمكن نحو: أول، أو لالتقاء الساكنين نحو: أمس...¹".

ويرى ابن معط أنّ العلة لابدّ أن تكون هي الموجبة للحكم في الفرع أو المقيس عليه، لذلك سرد في بناء الاسم العلل الموجبة لبنائه وهي خمسة: كشبهه بالحرف كالمضمرات والإشارات والموصولات، أو تضمّنه معنى الحرف كأسماء الاستفهام والشرط، أو وقوعه موقع الفعل كزُويِدَ وصنّه، أو شبهه بما وقع موقع الفعل كحذام وقطام، أو إضافته إلى غير متمكّن كيومئذٍ.

واعتمد المكودي في شرحه للألفية العلة التعليمية بطريقة يسيرة، وكان يبتعد عن الجدل والمناظرة، فهدفه شرح الألفية للمبتدئين، ومن أمثلة تعليقاته قوله في نوني التوكيد في شرح قول ابن مالك:

ولم تقع خفيفة بعد الألف لكن شديدة وكسرها ألف.

"يعني أنّ نون التوكيد الخفيفة لا تقع بعد الألف، وإنّما تقع بعد الألف نون التوكيد الشديدة، ويجب حينئذٍ كسرها لشبهها بنون المثني، وإنّما لم تقع بعد الألف النون الخفيفة لأنّه لا يجمع في غير الوقف بين ساكنين الأول حرف لين والثاني مدغم، وشمل قوله الألف ألف التنثية كقوله تعالى: (ولا تتبعان) يوسف 89²، وأمثلة كثيرة في شرح المكودي.

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 167.

². المكودي، شرح الألفية، ص 265.

7. رأي العلماء في نحو المغاربة:

وصف الكثير من النحاة المتأخرين نحو المغاربة من حيث الاصطلاحات والحدود بالحسنة وفضلوهم على الكثير من النحاة المشاركة ومن أمثلة ذلك:

. في تعريف ابن معط للاسم قال: "إنه كلمة تدلّ على معنى في نفسها، دلالة مجردة من زمان ذلك المعنى كرجلٍ وعَلَمٍ".

قال عنه ابن إياز . مرّ ذكره . وهو أحد شارحي الفصول: "واستعماله هنا لفظة (كلمة) أحسن من استعمال الزمخشري وابن الحاجب لفظة (ما) حين قالوا: "الاسم ما دلّ على معنى"، وذلك لأنّ (ما) عام يشتمل على الدال سواء كان لفظاً أو غير لفظ، كالكتابة والإشارة وعقد الأصابع"¹.

. قال ابن معط في الممنوع من الصرف: "إذا أضيف أو دخله لام التعريف دخله الجر في موضع الجر، نحو: بالأحسن وأحسنكم".

يقول ابن إياز عن تمثيله بالأحسن وأحسنكم: "إنّه أحسن من تمثيل أبي الفتح بن جني في (اللمع) في قوله: مررتُ بأحمدكم وعمركم، وذلك لأنّ أحمد وعمر لا يصحّ إضافتهما لأنّهما في الأصل معرفتان، فالعلم لا يضاف وإن صحّ وجب تنكيره أولاً، واسم العلم لا ينكر. أمّا أحسنكم والأحسن ينكران ويدخلهما الجر والتنوين²، ولهذا فضّل تعبير ابن معط.

. في قوله عن علامة الفعل المبني للمجهول: "أن يضمّ أوله ويكسر ما قبل آخره"، قال عنه ابن إياز إنّ هذا التعبير أحسن من قول كثير من النحاة: (ويكسر ثانيه) ألا ترى أنّ دُحرجَ لم يكسر ثانيه، وإنّما كسر ما قبل آخره³، لهذا كان تعبير ابن معط أحسن.

. ذكر ابن معط من علامات الاسم (التعريف) يقول عن هذا الاصطلاح الخويّ وهو أيضاً من شراح الفصول كما مرّ ذكره: "من علامات الاسم حرف التعريف أو الألف واللام" وذكر من العلل:

¹ . ابن معط، الفصول الخمسون، ص 100.

² . نفسه، ص 102.

³ . نفسه، ص 104.

• قولك: الألف واللام فيه مخالفة لسيبويه لأنّ سيبويه يرى أنّ أداة التعريف في اللام فقط، لسقوط الألف في الوصل.

• قولك: اللام للتعريف فيه مخالفة للخليل، لأنّه يرى أنّ أداة التعريف الألف واللام معا. وأيضاً قد تكون اللام ميماً، نحو قوله صلى الله عليه وسلّم: "ليس من امبر امصيام في امسفر" أي ليس من البرّ الصيام في السفر، إذ أبدلت اللامات ميمات.

لذا فقول ابن معط (التعريف) أعمّ وأكثر فائدة، وفيه اشتغال للأداة والعلم والضمير واسم الإشارة وهي أسماء، فقولك (التعريف) أعمّ وأحسن وأوجز.

. في كلامه عن الاسم المقصور والاسم المنقوص قدّم المقصور في الذكر على المنقوص، والمشهور في كتب النحاة البدء بما آخره ياء قبلها كسرة وهو اسم الفاعل المنقوص، وعلل ابن إياز ذلك بأن قال إنّ المنقوص لا تثبت آخره لأنّه تحرك ياءه في النصب وتضمّ ياءه في الرفع وتكسر في الجر في الشعر، وتحذف في النكرة، والمقصور يستحيل له ذلك فهو أقعد في الحركة فهذا قدّمه¹. وقد أثر ابن معط في كلّ الذين أتوا من بعده في هذا الترتيب في تقديمهم للمقصور على المنقوص، ومن هؤلاء: ابن مالك في (الألفية) و(تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، وشرح الألفية، وكتابي (قطر الندى وبل الصدى) و(شذور الذهب في معرفة كلام العرب) لابن هشام الأنصاري.

8 - نحو المغاربة في كتب النحاة:

يتردد أسماء النحاة المغاربة بكثرة في كتب النحاة المشاركة والأندلسيين التي تعدّ من موسوعات علم النحو ككتب ابن مالك والشلوبين، وجمع الهوامع والأشباه والنظائر للسيوطي وشرح الأشموني وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، وذلك في تعريف قاعدة نحويّة والاستدلال بها، كما أنّهم اقتبسوا آراء وتعابير بحذافرها من كتب المغاربة ومن أمثلة ذلك:

¹. ابن معط، الفصول الخمسون، ص 102.

1. كتاب (التصريح بمضمون التوضيح) للشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى زين الدين المصري 905هـ:

. اعتمد الشيخ خالد الأزهرى في باب تعليق وإلغاء عمل الفعل المتعدّي إلى ثلاثة مفاعيل قول الجزولي في منعه التعليق والإلغاء في المبني للفاعل بقوله: "خلافا لمن منعهما في المبني للفاعل وهو أبو موسى الجزولي، فإنه فرّق بين البناء للمفعول والبناء للفاعل، فقال يجوز في المبني للمفعول لمساواته في الحكم لباب عَم لصيرورته بالبناء للمفعول ورفع نائب الفاعل، كصورته في المتعدي لاثنتين، ولا يجوز في المبني للفاعل لأنّ الفعل إذ ذاك يكون معملا ملغى في حالة واحدة، وذلك تناقض"¹، وقد فضّل الأزهرى قول الجزولي وأخذ به.

. ذكر الشيخ الأزهرى في مسائل وجوب تقديم الفاعل على المفعول أن يحصر المفعول بإثما نحو: إنّما ضرب زيدٌ عمرا، ثم قال: "وكذا الحصر ب(إلا) عند أبي موسى الجزولي وجماعة من المتأخّرين فإنّهم أوجبوا تأخير المفعول المحصور بإلاّ نحو: ما ضرب زيدٌ إلاّ عمرا، وأجاز البصريون والكسائي والفراء وابن الأنباري من الكوفيين تقديمه أي المفعول مع إلاّ على الفاعل"².

2. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك:

. اعتمد الأشموني في شرحه للألفية في تعريفه لأيّ الموصولة على قول أبي موسى الجزولي، وهذا نصّ ذلك: "وأيّ تستعمل موصولة، خلافا لأحمد بن يحيى في قوله إنّها لا تستعمل إلاّ شرطا أو استفهاما، وتكون بلفظ واحد في الإفراد والتذكير وفروعهما، وقال أبو موسى الجزولي: إذا أريد بها المؤنّث لحقتها التاء".

. ذكر الأشموني في باب التحذير والإغراء رأي أبي موسى الجزولي وحكمه في إظهار العامل في قوله: "أجاز بعضهم إظهار العامل مع المكرر، وقال الجزولي: يُقبح ولا يمتنع"³. وكذلك اعتمد

¹. خالد الأزهرى، التصريح بمضمون التوضيح في النحو، تح: محمد باسل عيون السود، ط 1، بيروت: 2000، دار

الكتب العلمية، ج 1، ص 389.

². نفسه، ج 1، ص 413.

³. الأشموني، شرح الألفية، ج 2، ص 481.

الأشموني على آراء المكودي في شرحه للألفية خصوصا في إعراب أبياتها، يقول الأشموني في قول ابن مالك:

وكونها في الوصف كافٍ إن وقع مثني أوجمعا سبيله اتبع

"تنبيه: قوله (أن وقع) هو بفتح أن وموضعه رفع على أنه فاعل كافٍ على ما تبين أولا، وقال الشارح: هو مبتدأ ثان وكاف خبره، والجملة خبر الأول، يعني كونها. وقال المكودي: في موضع نصب على إسقاط لام التعليل، والتقدير: وجود ال في الوصف كاف لوقوعه مثني أو مجموعا على حدّه، ويجوز في همز (أن) الكسر، وقد جاء كذلك في بعض النسخ".

3. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي:

ذكر السيوطي آراء كثيرة للجزولي وابن معط وغيرهما من المغاربة أذكر منها:
قال السيوطي: "وفي الذي والتي لغات: إثبات الياء ساكنة وهي الأصل، وتشديدها مكسورة نحو: الذي. وقال أبو حيان: لم يحفظ التشديد في التي، وإنما ذكره ابن مالك تبعا للجزولي وأكثر أصحابنا"¹.

. علل السيوطي في باب (ربّ) عطف المعرف على اسمها النكرة بقول الجزولي، وهذا نص الكلام: "ويجر مضافا إليه ضمير مجرورها معطوفا عليه بالواو خاصة، نحو: ربّ رجل وأخيه رأيت. وسوغ ذلك كون الإضافة غير محضة، فلم تعد تعريفا. وقال الجزولي: لأنّه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع"².

4. الاقتراح في أصول النحو للسيوطي:

اعتمد السيوطي في أقسام القياس في حمل النقيض على النقيض تعريف الجزولي لهذا القسم يقول السيوطي: "وفي الجزولية قد يحمل الشيء على مقابله، وعلى مقابل مقابله، وعلى مقابل مقابل مقابله"، ثم راح السيوطي يضرب أمثلة للأنواع الثلاثة³.

¹. السيوطي، همع الهوامع، ج 1، ص 267.

². نفسه، ج 2، ص 350.

³. ينظر: نفسه، ص 90.

5 . ألفية ابن مالك:

استفاد ابن مالك من ألفية ابن معط في الكثير من المواضع منها ومضمونا، حتى إنه تعدى تأثره بالمنهج العام للدرة إلى استخدام قافية وألفاظ بعينها، ونظم أبياتا كثيرة على منوال الدرة ومن أمثلة ذلك:

. يقول ابن معط في التوابع:

القول في توابع الكلم الأول نعت وتوكيد وعطف وبدل

ويقول ابن مالك :

يتبع في الإعراب الأسماء الأول نعت وتوكيد وعطف وبدل

وفي باب العطف يقول ابن معط:

والعطف عطفان بيان ونسق عطف البيان شبه نعت قد سبق

ويقول ابن مالك:

العطف إما ذو بيان أو نسق والغرض الآن بيان ما سبق.

كما وافق ابن مالك ابن معط في الكثير من آرائه التي انفرد بها، وحتى في اختياراته، ومن أمثلة انفرد ابن معط بالقول في جواز حذف ما النافية في جواب القسم إذا كان منفيا، وتبعه ابن مالك في ذلك وأنشد ابن مالك لذلك شاهدا.

كما لا يخفى تأثر النحاة الأندلسيين الواضح بآراء المغاربة كشرح أبي إسحاق الغافقي على كتاب (الجمال) للزجاجي الذي عمد فيه الغافقي نقل عبارة أبي موسى الجزولي بالحرف، و(مقرب) ابن عصفور الذي استعان بحدود (القانون) وتعريفاته في صياغة بحوث كتابه، ومؤلفات ابن مالك الكثيرة، وغيرها...

6 . ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي:

. قال السيوطي عن عبد الدائم بن مرزوق القيرواني من النحاة القروانيين القدامى إن أبا حيان الأندلسي قد أكثر من النقل عنه في كتابه (ارتشاف الضرب من لسان العرب) وروى عنه

أبو جعفر محمد بن الحكم السرقسطي، وكذلك نقل السيوطي عنه في كتابه (جمع الجوامع) في مسألة "الظروف"¹، ومن أمثلة ذلك ممّا نقله عنه أبو حيان قوله: "وزعم عبد الدائم بن مرزوق القيرواني أنّ (سواء) مبنية على الفتح فأما (سوى) من قوله تعالى:

(مكانا سوى) طه 20، قرئ بكسر السين، وضمها، و(سواء) من قوله تعالى: (فاطلع فراه في سواء الجحيم) الصافات 37، أي في وسطه، ومن قولهم: هذا درهم سواء، أي تام"².

. استشهد أبو حيان في باب التنازع في حال تنازع ثلاثة عوامل، أي العوامل الثلاثة يعمل في المعمولات، برأي ابن معط، يقول أبو حيان: "وقال أبو زكريا يحيى بن معط: إن أعملت الأول قلت: أعلمت وأنبأتهما إياهما منطلقين الزيدتين العمرين منطلقين ليس لك إلا ذاك، لاستغراق الضمير حالتي الاتصال والانفصال، فلم يبق للثالث إلا إعادته، ثم قال بعد ألا ترى أذك لو قلت في باب المخالفة: أعلمت وأعلمني زيدا عمرا شخصا، وقعت المنازعة في ثلاثة، وتبين ذلك أن تعمل الأول فتقول: أعلمت وأعلمته زيدا بكذا شخصا، فلم تقع المنازعة في معمول واحد، بل في ثلاثة"³.

وممن ذكرهم السيوطي في البغية ممن نقل عنهم أبو حيان الأندلسي في (ارتشاف الضرب) من المغاربة: أبو عبد الله الطنجي، وابن هشام الخضراوي، ومحمد بن عبد الجبار بن محمد الرعيني التونسي...

وتعدّ مقدّمة الجزولي (الجزولية) لأبي موسى الجزولي من أكثر الكتب المغاربية تأثيرا على غيرها حتى اعتبرت مصدرا لنشاط النحاة المتأخرين، ولاحظ العلماء انتفاع الكثير من النحويين المشاركة والأندلسيين منها في العبارات والصياغة والتبويب منها:

. مقرب ابن عصفور الإشبيلي: فقد استعان ابن عصفور بالجزولية في صياغة بحوث كتابه.

¹ . السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 75.

² . أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ج 3، ص 1548.

³ . نفسه، ج 4، ص 2147 - 2148.

. كافية ابن الحاجب: تأثر ابن الحاجب بمادة المقدّمة الجزوليّة تأثراً واضحاً، وقد حرص شارحها الرضيّ تبيان ذلك، فلم تخل صفحة من الشرح من ذكر اسم أبي موسى.
 . تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: انتفع ابن مالك بعلم أبي موسى كثيراً وكذلك بابن معط.
 . شرح أبي إسحاق الغافقي 710هـ على جمل الزجاجة: اعتبر هذا الشرح نسخة مكررة لبعض نسخ الجزوليّة.

9. آراء النّحاة المغاربة في قرارات المجمع المصري في العصر الحديث :

ذكر ابن آجروم في نواصب المضارع عشرة أحرف وهي: أن، لن، إذن، كي، لام كي، لام الجحود، حتى، الجواب بالفاء، الواو، وأو¹. وقال إنّ المضارع منصوب بعد كي ولامها ولام الجحود وحتى والفاء وأو بهذه الأدوات مباشرة، لا بأن المضمرة المقدّرة بعدها جوازا أو وجوبا.
 وقد أخذ الأستاذ شوقي ضيف العضو البارز بالمجمع المصري والرئيس الأسبق له بهذا القول وقال إنّها من طريف تيسيرات ابن آجروم، وقال إنّّه تقدّم بها إلى مؤتمر المجمع في وجوه تيسير النّحو وأقرّها المجمع في مؤتمره السنوي² الذي يعقد مرة في العام للمصادقة على القرارات التي تتقدم بها اللجنة العلميّة له إلى مجلسه.
 وقال إنّ المؤتمر قد سبق وأن أخذ برأي ابن مضاء القرطبي في أنّ المضارع بعد الفاء السببيّة وواو المعيّة منصوب بعدها دون حاجة إلى تقدير أن بعدها، ثم عمم القرار على باقي الأحرف أخذاً برأي ابن آجروم³ في وجوه تيسير النّحو للناشئة.

¹. ابن آجروم، الآجرومية، ص 60.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 347.

³. شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً 1934 . 1984، ط 1. مصر: 1984، مجمع اللغة العربية، ص

10 . خصائص المدرسة النحوية المغربية من القرن الخامس إلى الثامن

للهجرة:

من أهم ما يميّز المدرسة النحوية المغربية من قيام دولة المرابطين إلى نهاية دولة المرينيين والحفصيين والزيانيين بالمغرب الثلاثة، ما يلي:

1 - كثرة المنظومات النحوية:

إنّ اللافت للانتباه لحركة النحو في هذه المدرسة قدرة علمائها على نظم العلوم في النحو وغيره، إذ كان ابن معط أول نحوي نظم النحو في ألف بيت من بحري الرجز والسريع، ونهج السبيل لمن بعده في مصر والشام والمغرب كابن الحاجب وابن مالك.

وصار نظم النحو على نحاة المغرب فنا يسيرا يواتيهم في لين وسهولة، دالا على قدرتهم وعبقريتهم الفائقة في الجمع بين المفاهيم النحوية والمعايير الأدبية، فمّن نظم كتباً في النحو: ابن أم قاسم المرادي المراكشي ت749هـ له نظم في النحو سمّاه (الجنبي الداني في حروف المعاني)، وأبو زيد عبد الرحمان المكودي ت807هـ وضع نظاماً في علم التصريف سمّاه (البسط والتعريف في علم التصريف) في أربع مائة وتسعة أبيات تحدّث فيها عن أبنية الأسماء والأفعال المزيدة، وضوابط معرفة الحروف الأصلية والزوائد، ثم مسائل الإبدال ونوادر الإعلال والإدغام، كما نظم كتاباً في المعرب من الألفاظ، ومقصورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة بيت. وعبد العزيز بن عبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني ت880هـ وضع ألفية في النحو وجاء في ترجمته أنّ له موسوعة منظومة تحتوي على نيف وعشرين علماً¹، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد الفاسي ت899هـ له: (نظم مغني اللبيب) لابن هشام الأنصاري، (نظم التلخيص)، رجز في التصريف سمّاه (جامع الأقوال في صيغ الأفعال)، كما مرّ ذكره.

¹ . عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 221.

2. نشر المنظومات النحوية:

نشر النحاة المغاربة الكثير من المنظومات النحوية المشرقية والمغربية، فقد نشروا النحو مثلما نظّموا فيه، والهدف منه تسهيل النحو وتيسيره وشرح غوامضه.

3. وضع المتن النحوية:

ومن خصائص هذه المدرسة وضع المتن النحوية المنظومة والمنثورة، المطوّلة والمختصرة، ومحاولة حصر أكبر عدد من القواعد فيها. ولم يكن الهدف من وضعها تعليم الناشئة مبادئ النحو فحسب، لأنّ الناظر في الكثير منها يجدها منظومات وأراجيز نحوية، وطابع المنظومات هو الشعر وهذا يستدعي الاختصار والتقيد بالأوزان ك(الدرّة الألفية) لابن معط، و(البسط والتعريف في علم التصريف) للمكودي، أو متون شديدة الاختصار ك(المقدّمة الجزولية) و(المقدّمة الآجرومية)، ولهذا لم يكن نحاة المغرب في هذه الفترة يرمون إلى تعليم الناشئة بقدر ما كانوا يهدفون إلى الحفاظ على التراث العربي الإسلامي وإحيائه بوضع المتن فقد كانوا على دراية بالأحوال التي عاشها العالم الإسلامي في المشرق في القرن السابع حين أحرق التتار كتب المسلمين وقتلوا علماءهم، لذا همّ النحاة المغاربة إلى المشاركة في إحياء التراث العلمي للحضارة العربية بتأليف متون نحوية تخدم المتعلّم، والثقافة العربية الإسلامية في آنٍ واحد.

4. كثرة الشروحات، ونسخ الكتب:

اتّسمت المدرسة النحوية المغربية بكثرة الشروحات على المؤلفات النحوية المشرقية العملاقة ك(كتاب سيبويه) و(الإيضاح) للفارسي و(الجمال) للزجاجي و(المفصل) للزمخشري وغيرها، والمؤلفات الأندلسية ك(ألفية ابن مالك) و(تسهيله)، ومؤلفات المغاربة ك(الجزولية) و(الآجرومية) و(الدرّة الألفية)، وحظيت (ألفية ابن مالك) بقدر كبير من شروحات المغاربة، وقد سبق الحديث عن هذه الشروح في مواضع متفرقة من هذا البحث. أمّا عن حوانيت نسخ الكتب وبيعها فلا تعدّ ولا تحصى بالمغرب، إذ جند لها ولاّة الأمر كلّ

الإمكانات، وعرف فنّ الطباعة والنسخ في عصر الموحدين اهتماماً لم يعرفه المشرق في عصر العباسيين.

5. عنايتهم الفائقة بمؤلفات العصر:

اعتنى النحاة المغاربة والنحاة الأندلسيون على حدٍ سواءٍ بالمؤلفات المعاصرة لهم في المغرب والأندلس عنايةً فائقةً، وذلك تطلّعا منهم إلى الحداثة والتشوّق إلى الجديد، كما أدرجوا المؤلفات الجديدة في التدريس في حلقات الدروس، وأكبّوا على شرحها أو شرح شواهداها أو نظمها أو نثرها أو اختصارها، ولم يتوقّفوا عند مؤلفات النحو الأولى.

6. الاختيار:

تلقّى النحاة المغاربة النحوي في بادئ الأمر على يدّ الأندلسيين الذين نزلوا مختلف مدن المغرب بدعوة من أمراء المرابطين في القرن الخامس وخلفاء الموحدين في القرن السادس وما بعده بعد سقوط غرناطة وغيرها، وقد أوصل هؤلاء الدراسات النحويّة إلى مرتبة رفيعة بين علوم اللغة. وكان النحاة الأندلسيون قسمين: قسم يكنّ التقدير والاحترام للنحاة المشاركة ومؤلفاتهم، وقسم آخر تجرّأ على تغليب سيبويه وتجهيل الكثير من النحاة. يمثّل الاتجاه الأوّل في المغرب أبو بكر الخدب وابن هشام اللخمي السبتي وابن خروف. والاتّجاه الثاني بالمغرب يمثّله ابن الطراوة الذي تجرّأ على تغليب سيبويه وتجهيل البصريين ونسب الفارسي إلى الجنون، وتلميذه السهيلي الذي غلّط الكثير من النحويين، وقد تصدّى لابن الطراوة ابن خروف ونسبه إلى الإعجاب بالنفس.

وأمام هذين التيارين وقف النحاة المغاربة موقف تقدير للنحو فلم يتأثّروا بدعوة ابن الطراوة والسهيلي وابن مضاء، بل فضلوا أسلوب الخدب وابن خروف وغيرهما ممّن يقدر نحو المشاركة، فكان أن اختاروا بين الآراء البصريّة والكوفيّة والبغداديّة ما استقام فيه الدليل وقويت فيه الحجّة، دون تعصّب أو إنكار لأيّ كان.

7 . بغدادية نحو المغاربة:

يُكنى بالمذهب البغدادي في النحو . علاوة على المتعارف عليه من أنه مذهب نشأ ببغداد بالتقاء نحاة البصرة ونحاة الكوفة . على مبدأ الاختيار من المذهبين، فهذا نحوي بغدادي يعني أنه لم يكن بصريا ولا كوفي النزعة، بل يختار منهما ما أيدّ وجهته دليل قرآني أو شعري، وقد صحّ إطلاق هذا المفهوم على المغاربة لأنهم اختاروا من المذهبين ما يناسبهم ويتوافق وتفكيرهم، ومن أمثلة ذلك تسمية الأستاذ شوقي ضيف ابن آجروم الصنهاجي بـ(النحوي البغدادي).

كما استطاعوا بما ملكوا من إلمام واسع بنحو البصريين والكوفيين وبلغة العرب شعرا ونثرا والقرآن الكريم وقراءاته من تصحيح بعض الآراء، وتوجيه بعض الأدلة، والانفراد بالآراء والشروحات والمصطلحات الجديدة كالجزولي وابن معط وغيرهما، ممّا يدلّ على نضج تفكيرهم النحوي الذي أثر على النحو العربي بالتطور، وقد امتلأت كتب المتأخرين كالسيوطي والأشموني وابن هشام الأنصاري وأبي حيان الأندلسي وابن مالك بآرائهم...

8 . التدريب على الإعراب:

الإعراب تمرين عقلي يُكسب الطالب معرفة صحيحة بالنطق، وبوظائف العوامل في التراكيب، ولقد أولى النحاة المغاربة له أهمية عظيمة من خلال دروسهم ومصنّفاتهم، فهذا يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري نحوي من القرن السابع الهجري كان يقرئ لطلابه كتاب الإيضاح والجمال والمفصل وأشعار العرب، وكان يُعرب لهم شعر حبيب والمتنبي والأشعار الست وأشعار المعري ودواوين الحماسة¹. وألف إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي السفاقي 742هـ كتابا ضخما في إعراب القرآن سمّاه (المجيد في إعراب القرآن المجيد). وكان المكودي في شرحه لألفية ابن مالك يختم كلّ شرح للأبواب النحويّة بإعراب كلّ الأبيات ليفهم القارئ سرّ التراكيب. وكان النحاة المغاربة يحرصون على إعراب كلامهم فهذا مروان بن سمجون أبو عبد

¹ . الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط 2. بيروت: 1979، دار الآفاق الجديدة، ص 77.

الملك اللواتي الطنجي ت491هـ من أهل العلم والأدب والفقه في دولة المرابطين حفظ أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية، وأخذ نفسه بالإعراب في كلامه مع الخاصة والعامة، فلا يكاد يؤخذ عليه لحن¹. وكذلك ابن عبد المنعم الصنهاجي السبتي من كبار اللغويين والنحاة في العصر المريني لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره، وكان يعرب أبداً كلامه، وكذلك الوزير عبد المهيمن الحضرمي اللغوي والنحوي من نفس العصر كان كلامه كله معرباً.

9. تأثر نحوهم بالمنطق:

يلحق علم المنطق بعلوم الأوائل من طبّ وصيدلة وفلك وتنجيم وفلسفة وعلم الفرائض والحساب من جبر وهندسة، وعلم المنطق يُعرف به الصحيح من الفاسد في التعاريف والبراهين والأقيسة، وهو يشترك في العلوم كلها، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ². وأنّوه هنا إلى أنّ لعلم المنطق حظاً وافراً في اهتمامات المغاربة فقد كثر العلماء المتخصصون فيه ويعدّ كتاب (الجمال) للخونجي من أكثر الكتب المنطقية التي تفقّه عليها المغاربة.

وكثر النحاة المغاربة الذين اشتغلوا بالمنطق ومزجوا بينه وبين النحو، فهذا عبد الله بن محمد بن يحيى الأغماتي من أهل أغمات بالمغرب الأقصى من علماء القرن السابع ينعتة أبو العباس الغبريني ت714هـ صاحب (عنوان الدراية) بأنّه المنطقي النحوي، ويقول عنه: "كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده وله تحصيل لعلم المنطق"³. وكان أبو موسى الجزولي ممّن تغالّى في استخدام المنطق في تعاريفه على نهج نحاة المدرسة العقلية في المشرق في القرن الرابع الهجري كابن السراج وأبي علي الفارسي وابن جنّي والرماني، فجاء الكثير من أبواب مقدمته منطقية، إذ صاغ تعاريف كلية عامة تنطبق على الكثير من الأحكام الجزئية أو الفرعية في ألفاظ قليلة، ونادرة الشواهد والأمثلة، يصعب فهم مرادها ما جعل ابن خلكان يقول عنها إنّها رموز وإشارات، ومن أمثلة ذلك في باب الكلام: "هو اللفظ المركّب المفيد بالوضع، كلّ جنس قسّم إلى أنواعه، أو إلى

¹. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 92.

². شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 342.

³. الغبريني، عنوان الدراية، ص 223.

أشخاص أنواعه، أو نوع قسّم إلى أشخاص، فاسم المقسوم يصدق على الأنواع وعلى أشخاص الأنواع وإلا فليست الأنواع أنواعا له، ولا الأشخاص أشخاصا لتلك الأنواع¹. وقد أثر الجزولي في الكثير من نحاة عصره ومن بعده في استخدام المنطق في الحدود النحوية.

10 . الانفراد بالآراء الجديدة:

أصدر الكثير من النحاة المغاربة آراءً ومسائل جديدة لم يقل بها غيرهم، اجتهدوا فيها بالنظر والتفكير، فابن معط انفرد بسبعة عشر رأيا جديدا كان له فيها مذهب خاص، أوردها الأستاذ محمود محمد الطناحي محقق (الفصول الخمسين) في المقدمة. وذكر محقق (الجزولية) الأستاذ شعبان عبد الوهاب محمد في باب المقدمة ستة آراء انفرد بها الجزولي، وهناك آراء أخرى كثيرة للمغاربة منثورة في ثنايا الكتب الموسوعات كهمع الهوامع والأشباه والنظائر وشرح الأشموني وكتب المتأخرين، ولقيت قبولا لدى الكثير من النحاة المتأخرين، وقد سبق وأن أوردت بعضا منها في هذا البحث.

11 . التوسّع في القياس:

مدّ المغاربة بعض أبواب القياس في بعض المسائل، ممّا لم يخالف قياس الأصول الذي وضعه البصريون، وذلك نحو تعميم حكم مقيس، وعدم التشدد والتزمت في شروط المقيس عليه، وقياسية بعض الصيغ السماعية...

12 - مزج النحو بالمعاني:

يبدو تأثر النحاة المغاربة بنظرية عبد القاهر الجرجاني المشهورة القائلة بضرورة ربط الحدود النحوية بالمفاهيم البلاغية المعنوية واضحا في مؤلفاتهم، فقراءة بسيطة لها تظهر ذلك بوضوح تام، ومن أمثلة ذلك قول الجزولي في تعريف المنادى بأنّه مفعول في المعنى، وأنّ المثني والجمع فائدتهما تكثير العدد، وأنّ الجمع مجموع عدد...

¹ . الجزولي، المقدمة الجزولية، ص 3.

13 - الإيجاز والاختصار، وخلق نحوهم من الحشو والخلافات وكثرة التعليل:

نهج النحاة المغاربة في مؤلفاتهم منهج التيسير والاختصار فطُبعت مؤلفاتهم بالتركيز الشديد والإيجاز، وكانوا يتباهون بذلك ويفتخرون، ومن ذلك قول ابن البناء العددي صاحب كتاب (الكلّيات النحويّة) في هذا الصدد:

قصدتُ إلى الوجازة في كلامي لعلمي بالصواب في الاختصار

ولم أحذر فهُومًا دون فهمي ولكن خُفتُ إزراء الكبار

فشأن فحولة العلماء شأني وشأن البسط تعليم الصغار¹

ومن أمثلة الاختصار الشديد جمع ابن معط في تعريف المفعول له خمسة شروط في سطر واحد، يقول: "وهو مصدر لا من لفظ العامل فيه، مقارنا له في الوجود، أعمّ منه، جوابا لقائل يقول: لم؟" وقد أدّت هذه الوجازة الشديدة إلى اختلاف شراحها في تفسير عبارة "أعمّ منه" على كثير من الآراء². أمّا مقدّمة الجزولي فمثل يضرب في الإيجاز والتركيز إلى حدٍ لا يمكن فهمها حتى قيل عنها منطق ورموز.

وعن الحشو، فإنّ مؤلفاتهم تخلو منه وذلك لطابعها المختصر، وقد صرّح ابن معط في ألفيته بخلوها من الحشو وطابعها المختصر قائلا:

أرجوزة وجيزة في النحو عدّتها ألف بيت خلت من حشو³.

كما أسقطوا الخلافات النحويّة التي تؤدّي إلى تشتيت الذهن، مشيرين إلى اختلاف الرأي في المسألة من غير إطالة، كما نفروا من كثرة التعليل، والعلل الثواني والثالث، وأبقوا على العلّة الأولى التي هي التعليميّة.

¹. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 765.

². ابن معط، الفصول الخمسون، ص 98.

³. ابن معط، الدرة الألفية، ص 17.

14 - قلة الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف:

لم يأخذ النحاة المغاربة في القرنين الخامس والسادس بالحديث النبوي الشريف في بناء القواعد النحوية، وكان موقفهم منه موقف البصريين المانعين الاحتجاج به، فكتب الجزولي وابن معط خالية منه.

وبعد أول من احتج به من المغاربة شراح ألفية ابن مالك كالمكودي ابتداء من القرن الثامن، إذ كان ابن مالك ممن نهج سبيلا جديدا في الدراسات النحوية بالأخذ من الأحاديث النبوية بتوسّع في إقرار القواعد، فكتابه (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح) فيه شروح نحوية على تسعة وتسعين حديثا من صحيح البخاري، لذا جاءت شروحات الألفية تزخر بالأحاديث النبوية وقد اعتمدتها مصدرا فصيحاً.

15 . السلاسة والعذوبة، وحسن اختيار اللفظ:

اعترف الكثير من العلماء القدامى والمحدثين للمغاربة بالعذوبة والسلاسة في لغتهم النحوية، فهذا المقرئ صاحب (نفح الطيب) يفاضل ألفية ابن معط على ألفية ابن مالك بالعذوبة والسلاسة، ويوافقه الأستاذ محمود محمد الطناحي محقق (الفصول) في ذلك ويورد أمثلة كثيرة من الألفيتين ليلتمس القارئ ذلك، ويقول إنّ هذا ليس ضربا من الإنشاء المغالي أو المديح المتحيز، وكذلك قال بهذا شراح الدرّة الألفية كابن الخبار. ويقول الأستاذ عبد الله كنون في أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي ت827هـ في نظمه التعليمي بأنّه يمتاز بالسلاسة والعذوبة¹. ويقول الأستاذ محمد المختار ولد أباه في المرادي المراكشي المعروف بابن أم قاسم ت749هـ في نظمه (الجنّي الداني) بأنّه أمتع ما كتب في منواله، وهذا ليس ضربا من المغالاة . وسبق وأن أوردت أمثلة في قول العلماء في حسن اختيار المغاربة للفظ المناسب وتفضيل تعابيرهم النحوية على غيرهم.

¹ . عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 229.

16 . التأليف والتدريس:

قدّ أمراء وخلفاء المغرب الإسلامي من مرابطين وموحدين ومرينيين وغيرهم النّحاة مناصب عليا في الدولة خصوصا سلك التعليم، وأجروا عليهم مراتب وأوقاف، فما من نحوي إلّا وتقدّد منصبا ساميًا في الدولة يرتزق منه ويعينه على البحث. وقد كان للأمراء والخلفاء والسلاطين الذين توالوا على حكم المغرب الإسلامي يدّ بيضاء في تنشيط حركة العلم في مختلف المجالات، إذ سخّروا كلّ الإمكانيات اللازمة للإنتاج العلمي.

17 . إسهام المغاربة في تنشيط الحركة النّحويّة بإقليم مصر والشام وإلهام نحاته:

للمغاربة فضل كبير في تنشيط الحركة النّحويّة بمصر والشام في القرنين السابع والثامن للهجرة درسا وتأليفا، فقد تصدّروا لتدريس النّحو في إقليم مصر والشام خصوصا في ظلّ حكم الأيوبيين، فهذا ابن معط تصدّر لإقراءه بدمشق والجامع العتيق بمصر لسنوات، تفقّه عليه خلق كبير ولقيت كتبه اهتماما كبيرا من علماء مصر والشام إذ أقبلوا عليها في إقراء النّحو في الجوامع والمدارس وشرحوها، حتى إنّه ألهم ابن الحاجب وابن مالك على نظم النّحو... وهذا ابن أم قاسم المرادي ت749هـ سافر إلى مصر وقد ألّف كتباً نحويّة كثيرة، وكتابه (الجنبي الداني في حروف المعاني) نظم نحوي تعليمي جميل العبارة، لاحظ فيه محققه الأستاذ فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل توافقا واضحا بينه وبين كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) لابن هشام الأنصاري ت761هـ في تقسيم معاني الأدوات، والشواهد، والمذاهب، والتوجيهات النّحويّة والمعنويّة، والاستدراكات والتعقيبات، ولمحا إلى أخذ ابن هشام الأنصاري من المرادي المراكشي¹. أمّا عن شروحات النّحاة المصريين المتأخّرين للمقدّمة الجزوليّة فقد عمدوا إلى نقل لفظ أبي موسى الجزولي بالحرف وقد اعترف بذلك الكثير من محققي هذه الشروحات، كما اشتهر الكثير من النّحاة المصريين والشاميين والعراقيين وغيرهم بفضل مؤلّفات المغاربة شرحا أو نظما أو إعرابا.

¹ . محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو، ص 348.

. خلاصة الفصل: لم يكن في كتب النحو التي ألفها المغاربة تقليدٌ محضٌ للنحو الشرقي، بل فيه اجتهادات معتبرة وآراء نحويّة قيّمة أثرت حدود القاعدة النحويّة، فقد عبّر المغاربة بمصطلحات جديدة من صميم تفكيرهم، وتقسيمات جديدةٍ للأنواع، ونالت مؤلفاتهم استحسان الكثير من النحاة المشاركة والأندلسيين فتصدّوا لشرحها أو نظمها أو إعرابها واشتهر الكثير من المشاركة والأندلسيين بفضلها، واجتهاداتهم اجتهادات مقبولة لم تحاول المساس بأصول النظرية النحويّة، بل زادت عليها مجدا وقوّة، واتّجهت أولاً وأخيراً نحو التيسير والنّظم الذي كان ميزة العصر، وكثرت آراؤهم ومؤلفاتهم، ونالت صدّى واسعا وقبولا إلى يومنا هذا، فهذا المجمع المصري للغة العربيّة قد وافق الكثير من المغاربة في اجتهاداتهم التجديديّة وصادق عليها في مؤتمراته السنويّة وأصدرها قرارات ينبغي العمل بها.

الخاتمة

الخاتمة:

إنَّ الحركة النَّحويَّة والعلميَّة التي أَرخَتْ لها في هذه الفترة من البحث كانت عظيمة الشأن، وذلك بفضل هؤلاء العلماء النَّحاة الذين تطوَّر على يَدِّهم النَّحو، إذ استطاع النَّحاة المغاربة بفكرهم وعلمهم من مجاراة نحاة مصر والأندلس والوقوف أمامهم، فكان أن تأثَّر النَّحاة المصريون والأندلسيون بهم درسا وتصنيفا، ولم يكن ذلك خفياً، وقد سبق وأن بيَّنت كيف أنَّ مؤلَّفات المغاربة قد تصدَّى لها المصريون والأندلسيون وعكفوا عليها شرحا أو اختصارا أو نظما أو تدريساً ممَّا نشط الحركات النَّحويَّة بتلك الأقاليم. وكان نحاة الشام وبلاد الرافدين ممَّن تأثَّر أيضا بنحو المغاربة، إذ تصدَّوا لشرح الكثير من مؤلَّفاتهم أو اختصارها أو تدريسها أو النقل منها.

والنَّحاة المغاربة قد تزوَّدوا بمختلف العلوم النقلية والعقلية إذ تهيَّأت لهم الظروف المناسبة للبحث والإنتاج، من خلال ما بذله أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين والمرينيين والحفصيين والزيايين الذين كانوا محبِّين للعلم، مقدِّرين للعلماء ومعظِّمين، فقد بنوا مدارس حكوميَّة في كلِّ المدن المغاربيَّة في الوقت الذي بنيت فيه أوَّل المدارس بالشرق، وحثَّوا الناس على العلم ورغَّبوهم فيه، وأجروا مراتب للأساتذة وحتى الطلبة، ناهيك عن المؤن والإمدادات ومجانبة التعليم وتوفير المسكن لهم جميعا.

فكان لهذه الظروف المواتية أن أتت بثمارها فازدهرت كلُّ العلوم من دينية ولغوية وعقلية، وكثُر التأليف من متون وشروحات ومنظومات تعليمية وأراجيز، وطالت قوائم العلماء من فقهاء وأصوليين ومحدثين وأدباء ونحاة وخطباء وقضاة وأطباء وفلكيين ورياضيين... ففهارس الرحالة والمحدثين أو ما يسمَّى بالمشيخة أو الثبت أو البرنامج تُحدِّث بذلك.

لا أغالي إن قلت عن القرن الخامس والسادس والسابع والثامن للهجرة في المغرب الإسلامي إنَّه ربيع النَّحو والعلم والمعرفة عامة، لأنَّه ازدهرت فيه كلُّ العلوم، والنَّحو قد أخذ

بنصيب كبير وإن كانت العلوم الدينيّة من فقه وأصول وحديث وتفسير قد تصدرت القائمة، ورغم الظروف السياسيّة التي كانت تعيشه تلك القرون من فتوحات وحروب وفتن وتأمّرات وتوطيد للأركان الإقليميّة إلّا أنّ ذلك كلّه لم يؤثر سلباً على النشاط العلمي ولم يعقه، فصدق قوله صلى الله عليه وسلم "لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"، فسبحان الله القدير على كلّ شيء..

ومن أجل ذلك كانت مدن المغرب المختلفة محطّ أنظار العلماء ومهوى أفئدتهم، قصدها من كلّ الأقاليم النحاة والأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء... من كلّ الجنسيات، فلك أن تنظر في (عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) للغبريني ت714هـ كم كان عدد العلماء الأندلسيين الذين قصدوا بجاية واستقرّوا فيها، وغيرها من مدن المغرب الأوسط، أو (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان) للدباغ ت696هـ لتقرأ عن رجال الفتح والصحابة والتابعين، من المتقدّمين، ومن المتأخّرين ممّن دخل القيروان وغيرها من المدن المغاربيّة.

فلنا أن نقف تحيّة إجلال وعرفان للنحاة المغاربة الذين حافظوا على الإرث العلمي النحوي الذي شيّد البصريون بنيانه، وزادوا فيه قوةً ومجداً.

ولنا أيضاً أن نقف تحيّة عرفان وتقدير أيضاً لمختلف الأمراء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم المغرب الإسلامي طيلة تلك القرون، فقد أثر عنهم حب العلم والعلماء وإنشاء المدارس والمكتبات والخزائن ولم ييخلوا في ذلك بالنفس والنفيس، حتى جعلوا من المغرب لؤلؤة جميلة ضارعت المشرق في أعزّ أيامه.

غير أنّ ما يؤرّق النفس ويقهر القلب أن يقابل تلك الحضارة العلميّة الضخمة التي خلفها أجدادنا تجاهلّ تامّ من طلبتنا في الجامعات والمدارس والباحثين عموماً، فهذا واقع نعيشه حيث إنّ كلّ تلك الأعلام التي ظهرت في تلك القرون وأسدت خدمات جليلة للعربيّة والإسلام أضحت ومؤلفاتهم نكرات مبهمات في عصرنا هذا، وكأنّهم لم يشاركوا في بناء

صرح النّحو العربي الذي تشاركت فيه كلّ الأمصار العربيّة. فما كان ينبغي للدراسات النّحويّة في جامعاتنا أو مدارسنا في مرحلة التعليم العام أن تقتصر على كتب النّحو المشرقيّة والأئمّة المشهورين، وأن تنشر كتبهم في مكتباتنا وتغضّ عن كتب المغاربة وأئمّتهم، ففضل المغرب على المشرق كبير لا يمكن لأحد إنكاره.

لكن للأسف أُخمل ذكره وفضله في الدراسات النّحويّة مثلما أُخمل ابنُ الحاجب وابن مالك ابنُ معط، وابنُ هشام الأنصاري ابنُ أم قاسم المرادي وأبو علي الشلوبين أبا موسى الجزولي وغيرهم كثيرون، فمساهمات كلّ هؤلاء أهملت ولم تقدّر ولم ينظر إليها، لكن لحسن الحظ أن من الله على المغرب بعالمين كبيرين هما: الأستاذ عبد الله كنون صاحب (النبوغ المغربي في الأدب العربي) كتاب بعث من الخزائن القديمة علم المغاربة في كلّ الفنون، وقراءته تدهش العقل من الوفرة العظيمة من أسماء الرجال والمؤلّفات والأجواء العلميّة والأخبار، وهو كتاب جمع بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة للمغرب من الفتح إلى العصر الحديث، وقد أحدث هذا الكتاب دويا كبيرا في الداخل والخارج ومُنح صاحبه عدّة تشريفات أهمها دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد الإسبانيّة للعام 1939 بمناسبة ترجمته إلى الإسبانيّة ودعوة الأستاذ كنون لزيارتها على نفقة الحكومة الإسبانيّة.

والأستاذ محمد المنوني صاحب (حضارة الموحدين) و(حضارة المرينيين) الذي أحيا هو الآخر رجالات العلم والفنّ المغاربة من رفوف المكتبات القديمة، وعرفنا على تراثنا العلمي الزاخر، ولا ننسى فضل الأستاذ الكريم عادل نويهض صاحب (معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر) والأستاذ إبراهيم حركات صاحب السلسلة العظيمة لتاريخ الآداب للمغرب الإسلامي.

ومن خلال هذا العمل توصلت إلى جملة من النتائج أذكر من أهمّها:

- ازدهار الحركة النّحويّة في هذه الفترة التي حددتها للبحث ازدهارا كبيرا حتى قيل عن الجزولي لوحدته أنّه مؤسس مدرسة نحويّة من خلال (الجزوليّة) التي ذاع صيتها

مغربا ومشرقاً، وتلميذه ابن معط الذي سنّ منهجاً جديداً وهو النّظم والتيسير، وقد أتاح هذان النّحويان لظهور مجموعة كبيرة من النّحاة في القرن السابع الهجري واشتهروا بفضل (الجزوليّة) و(الدّرّة الألفيّة) في المشرق والمغرب. وقد رافق ازدهار الدراسات النّحويّة ازدهار الدراسات اللغويّة من تأليفٍ وتدرّيسٍ ويعتبر العصر المريني بالمغرب الأقصى أزهى عصور الدراسات اللغويّة ويطالعنا في هذا العصر أشهر اللغويين مالك بن المرحل ومؤلفاته.

- للنّحاة المغاربة تجديدات كثيرة في النّحو من حيث المصطلح أو القاعدة النّحويّة أو التبويب، ولم يكن نحوهم تقليداً محضاً بل تجديدًا واجتهاداً.
- ميل المغاربة إلى النّحو البصري الواضح رغم اختياراتهم الكثيرة من المذاهب الأخرى، ورغم اتّسام مذهبهم بالاختيار والانتقاء إلّا أنّهم أميل إلى المذهب البصري.
- هجرة الكثير من النّحاة المغاربة إلى مدن المشرق والأندلس واستقرارهم فيها ما جعل الكثير من العلماء يدرجونهم في المدارس الأخرى، وخير مثال على ذلك ابن معط الذي أدرجه الكثير من العلماء في المدرسة المصريّة.
- دور النّحاة الأندلسيين الذين نزلوا مدن المغرب بعد تدهور أحوال بلادهم في تنشيط الحركة النّحويّة بالمغرب، فقد أوصل هؤلاء الدراسات النّحويّة بالمغرب إلى أعلى درجات الاجتهاد، الأمر الذي جعل الكثير من الباحثين يطلقون على جهود الأندلسيين والمغاربة بالمذهب الأندلسي المغربي وكأنّه مذهب واحد.
- ازدهار الحركة الفكرية بالمغرب الإسلامي في الفترة الممتدّة من القرن الخامس إلى القرن الثامن، وكذلك قبل هذه الفترة وبعدها، رغم الأوضاع السياسيّة المزريّة التي عاشها آنذاك بسبب دوام الحروب والانقلابات السياسيّة فلم يعق ذلك الحركة العلميّة فسبحان الله القدير على كلّ شيءٍ.

- كثرة المؤلفات والمختصرات في كل العلوم بالمغرب حتى أطلق بعض العلماء على المغرب (مدرسة المختصرات)، تتصدر قائمة المختصرات علم الفقه ثم النحو، وقد عرف المغاربة هذا النوع منذ تعرّفهم على مختصر ابن الحاجب في الفقه المسمى (أصول الفقه)، ورأى ابن خلدون مساوئ هذا النوع من التأليف ووضع في مقدّمته بابا (فصل في أنّ كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم).
- اعتبار الفقه أساس التكوين المغربي، فما من نحوي أو أديب أو عالم كان إلّا ولا بدّ أن يلمّ بقدرٍ وفيرٍ من مبادئ الفقه، ثم يليه النحو لأنّه الوسيلة لفهم الفقه والدين، حتى أثر عن المغاربة قولهم "سيدي خليل والألفيّة" أي مختصر سيدي خليل المصري في الفقه المالكي وألفيّة ابن مالك في النحو.
- احتلال الدراسات الدينيّة صدارة الاهتمام، فما من عالم أو نحوي أو طبيب إلّا وقد ألّف في الدراسات الدينيّة مؤلّفاً أو أكثر، وقد طغى الطابع الديني المقدّس على كلّ أوضاع البلاد، ما لم يشهده بلدٌ من البلدان.
- سيطرة علماء الفقه المالكي على شؤون الدولة بما في ذلك سلك التعليم، والدليل على هذا إحراقهم في القرن السادس الهجري كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام حامد الغزالي علناً، وظهرت سيطرتهم بوضوح في القرن السابع في تونس حين تدخل علماء المالكيّة في سنّ مناهج تعليم المدارس.
- تعتبر خزائن الكتب المغاربيّة مناجم ثريّة لكلّ أنواع المؤلفات في مختلف العلوم، فهي تحتوي على أقدم المخطوطات وأندرّها، وقد سعى الموحّدون إلى ملئها بكلّ أصناف العلوم، والسعي نحو اقتنائها بكلّ الوسائل ما جعل المستشرقين يوجّهون أنظارهم إليها منذ القديم.
- استدعاء الخلفاء علماء النحو واللغة والأدب من الأندلس والمشرق للقدوم إلى المغرب قصد التدريس وامتحانهم قبل تسليمهم الوظائف في مؤسسة علميّة تسمى

ببيت الطلبة، وهذه الطريقة امتاز بها المغرب الإسلامي وهي تطابق طريقة توظيف الأساتذة في عصرنا هذا، وتخرج فيها قائمة مرموقة من الطلبة المشتغلين بفنون المعرفة المختلفة.

وأخلص في ختام هذا البحث الذي أخذني في سفرة جميلة إلى أروع المدن العلمية وعرفني على أجمل الشخصيات ببعض التوصيات التي أراها جديرة بالنظر فيها والاهتمام بها:

- توفير كتب المغاربة النحويّة والأدبيّة وسائر العلوم في دور النشر والمكتبات العموميّة والخاصة والأسواق لنطلع عليها، والواقع أنّ أكثر كتب المغاربة قد ضاعت ولم تصلنا، وما وصلنا منها إلّا القليل فينبغي أن تتكاثف الجهود لنشر ذلك الذي بقي.
- نظر معدّي البرامج والمفتشين والأساتذة المتخصصين في كتب الذّحو المغاربيّة واستخلاص الدروس منها، لأنّها كتب هدفها تيسير الذّحو وتبسيطه للناشئة، وهي بعيدة عن الخلافات الكثيرة والتعليل المنطقي، ومؤلفة بعبارة جميلة.
- برمجة من كتبهم الأدبيّة مقطوعات نثريّة وشعريّة للدراسة والتحليل لأنّ المغاربة قد خلفوا تراثاً أدبيّاً ضخماً في كلّ الفنون الأدبيّة (المقامات، الخطابات، الوصايا والإخوانيات) وفي كلّ أغراض الشعر من مدح وهجاء ووصف وفخر وحماسة ورناء... فلا ينبغي الاقتصار فقط على أدب المشاركة قديمه وحديثه.
- اهتمام طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا بكتب المغاربة، وأن يبحثوا فيها، وألّا يقتصروا فقط على ما خلفه المشاركة فبهؤلاء ضاقت المكتبات.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1 - القرآن الكريم برواية حفص.

- المعاجم:

2 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 2. بيروت: 1980، مؤسسة نويهض الثقافية.

3 - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفّي الكتب العربية، د ط. دمشق: 1957، مؤسسة الرسالة.

4 - محمد بن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت: 2008، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

5 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح: دار صادر. د ط. بيروت: 1977، دار صادر.

- المصادر والمراجع العربيّة:

6 - إبراهيم الاصطخري، مسالك الممالك، تح: م ج دي جويج، د ط. ليدن: 1927، دار صادر بيروت.

7 - إبراهيم بن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبي النور، د ط. القاهرة: د ت، دار التراث.

8 - إبراهيم السامرائي، المدارس النّحوية أسطورة وواقع، ط 1. عمّان: 1987، دار الفكر والنشر والتوزيع.

9 - أثير الدين أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحق: رجب عثمان محمد. مراجعة: رمضان عبد التواب، ط 1. القاهرة: 1998، مكتبة الخانجي.

10 - أحمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج س كولان وإيفي بروفنسال، ط 2. بيروت: 1980، دار الثقافة.

11 - أحمد بن مضاء القرطبي، الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، ط 2. مصر: 1982، دار المعارف.

- 12 - أحمد حدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، د ط. المغرب: 2003، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- 13 - أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرض لحياته العلمية ومنهجه في البحث وتأثيره في حقل النحو ثم نقد لمنهجه، د ط. المحمدية: 1984، مطبعة ماناستير.
- 14 - أحمد شوقي بنبين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة: مصطفى طوبي، ط 1. مراكش: 2003، المطبعة والوراقة الوطنية.
- 15 - أحمد الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط 2. بيروت: 1979، دار الآفاق الجديدة.
- 16 - أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في فنّ الإنشاء، د ط. القاهرة: 1922، دار الكتب المصرية.
- 17 - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط 4. القاهرة: 1982، عالم الكتب + ط 6. القاهرة: 1988، عالم الكتب.
- 18 - أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: 1968، دار صادر.
- 19 - إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ط 1. مصر: 1929، مطبعة السعادة.
- 20 - إسماعيل العربي، المدن المغربية، د ط. الجزائر: 1984، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 21 - بحار إبراهيم بكير، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2. الجزائر: 1993، المطبعة العربية.
- 22 - جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدين، ط 1. لبنان: 1998، دار الكتب العلمية.
- 23 - —، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 1. د ب: 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- 24 - جمال الدين القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 1. القاهرة: 1986، دار الفكر العربي.

- 25 - جمال الدين بن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تح: محمد كامل بركات، دط. القاهرة: 1967، دار الفكر العربي للطباعة والنشر.
- 26 - جمال الدين بن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تح: ح الفاخوري، ط 4. بيروت: 1996، دار الجيل.
- 27 - حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، د ط. القاهرة: د ت، دار الفكر العربي.
- 28 - حسن عون، تطور الدرس النحوي، د ط. د ب: 1980، معهد البحوث والدراسات العربية.
- 29 - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط 1. مصر: 1980، مكتبة الخانجي.
- 30 - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، د ط. القاهرة: 2004، مكتبة الأسرة.
- 31 - خالد الأزهرى، التصريح بمضمون التوضيح في النحو، تح: محمد باسل عيون السود، ط 1. بيروت: 2000، دار الكتب العلمية.
- 32 - خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ط 3. الأردن: 2001، دار الأمل.
- 33 - روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م، ترجمة: حمادي الساحلي، ط 1. بيروت: 1988، دار الغرب الإسلامي.
- 34 - روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ترجمة: نقولا زياد، د ط. لبنان: 1967، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر.
- 35 - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، د ط. الإسكندرية: 1995، منشأة المعارف.
- 36 - —، تاريخ المغرب العربي تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين، د ط. الإسكندرية: 1995، منشأة المعارف.
- 37 - سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو. د ط. بيروت: د ت، دار الفكر .
- 38 - —، في أصول النحو، د ط. د ب: 1994، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية.
- 39 - شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: د ت، دار صادر.

- 40 - شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ط1. القاهرة: 1995، دار المعارف.
- 41 -، مجمع اللغة العربية في خمسين عاما 1934. 1984، ط 1. مصر: 1984، مجمع اللغة العربية.
- 42 -، المدارس النحوية، ط 7. القاهرة: د ت، دار المعارف.
- 43 - طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري، شرح خطبة الكافي في علم اللغة، تقديم: فرج الله زكي الكردي، د ط. القاهرة: 1326هـ، مطبعة كردستان العلميّة.
- 44 - عبد الأمير محمد أمين الورد، المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير، ط 1. بغداد: 1997، المكتبة العصرية.
- 45 - عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ بن خلدون، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، د ط. بيروت: 2000، دار الفكر.
- 46 - عبد الرحمان المكودي، شرح ألفية بن مالك، تح: عبد الحميد هنداي، ط 1. بيروت: 2001، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع.
- 47 - عبد العال سالم مكرم، المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين 7 و 8 هـ ، ط 1. د ب: 1980، دار الشروق.
- 48 - عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفكر واللغة والأدب في المغرب الحديث، د ط. لبنان: د ت، دار لسان العرب.
- 49 - عبد القادر رحيم الهيثي، خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري. ط 2. بنغازي، 1993، منشورات جامعة قار يونس.
- 50 - عبد الله البطليوسي، إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي، تح: حمزة عبد الله، ط 1. الرياض: 1979، دار المريخ.
- 51 - عبد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، تح: دوسلان، د ط. الجزائر: 1857، مكتبة الحكومة.
- 52 - عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2. طنجة: 1960، دار الثقافة.

- 53 - عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ط 3. الجزائر: 1993، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 54 - عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، تح: م ج جوييج، د ط. ليدن: 1889، دار صادر بيروت.
- 55 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، د ط. د ب: 1962، إصدار محمد توفيق عويضة.
- 56 - عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 3. القاهرة: 1988، مكتبة الخانجي.
- 57 - العصيمي، القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط 1. بيروت: 2003، دار ابن حزم.
- 58 - علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، د ط. القاهرة: 2005، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- 59 - علي مزهر الياسري، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، تقديم: عبد الله الجبوري، ط 1. بيروت: 2003، الدار العربية للموسوعات.
- 60 - علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، ط 2. القاهرة: 1979، عالم الكتب.
- 61 - عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و 8 هـ، د ط. الرياض: 1996، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- 62 - عيسى الجزولي، المقدمة الجزولية في النحو، تح: شعبان عبد الوهاب محمد، د ط. د ب: د ت، مطبعة أم القرى.
- 63 - فانتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين، د ط. دمشق: 2012، الهيئة العامة السورية للكتاب.
- 64 - كمال الدين الأنباري، لمع الأدلة في أصول النحو، تح: سعيد الأفغاني، د ط. دمشق: 1957، مطبعة الجامعة السورية.

- 65 —، الإغراب في جدل الإعراب، تح: سعيد الأفغاني، د ط. دمشق: 1957، مطبعة الجامعة السورية.
- 66 - كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، ط 9. مصر: 1986، دار المعارف.
- 67 - مجد الدين الفيروزآبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، ط 1. دمشق: 2000، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع.
- 68 - محمد بن آجروم، الآجرومية، تح: حاييف النبهان، ط 2. الكويت: 2011، دار الظاهرية للنشر والتوزيع.
- 69 - محمد بن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تق وتتح: هاني سلامة، ط 1. بور سعيد: 2001، مكتبة الثقافة الدينية.
- 70 - محمد بن حوقل، صورة الأرض، تح: منشورات دار مكتبة الحياة، د ط. بيروت: 1996، دار مكتبة الحياة.
- 71 - محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، تح: حمادي الساحلي والجيلالي بن الحاج يحي، ط 1. بيروت: 1986، دار الغرب الإسلامي.
- 72 - محمد بن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، د ط. تونس: 1982، الدار التونسية للنشر.
- 73 - محمد الحسن بن أحمد الخديم، هداية السعاة إلى معرفة النحاة، تق: أحمد جمال ولد الحسن. ط 1، الدار البيضاء: 1994، مكتبة النجّاح الجديدة.
- 74 - محمد الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 2. القاهرة: 1973، دار المعارف.
- 75 - محمد زينهم محمد عزب، الإمام سحنون، تق: حسين مؤنس، د ط. القاهرة: 1992، دار الفرجاني.
- 76 - محمد سليمان الأشقر، الفهرسة الهجائية والترتيب المعجمي، ط 1. الكويت: 1972، دار البحوث العلمية والدار العربية.
- 77 - محمد طنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط 2. القاهرة: د ت، دار المعارف.

- 78 - محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب، ط 2. بيروت: 2008، دار الكتب العلمية.
- 79 - محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دط. دب: دت.
- 80 - محمد المنوني، حضارة الموحّدين، ط 1. المغرب: 1989، دار توبقال للنشر.
- 81 - —، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط 2. الرباط: 1977، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.
- 82 - —، ورقات عن حضارة المرينيين، ط 3. الرباط: 2000، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- 83 - محمود الزمخشري، المفصل في علم العربية، د ط. لبنان: د ت، دار الجيل.
- 84 - مصطفى عبد العزيز السنجرجي، المذاهب النّحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ط 1. جدّة: 1986، مكتبة الفيصلية.
- 85 - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنّحو، ط 2. مصر: 1958، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- 86 - نور الدين الأشموني، شرح ألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 1. لبنان: 1955، دار الكتاب العربي.
- 87 - يحي بن معط، الدرة الألفية في النّحو والصرف والخط والكتابة، تق: سليمان إبراهيم البلكي، ط 1. القاهرة: 2010، دار الفضيلة.
- 88 - —، الفصول الخمسون، تح: محمود محمد الطناحي، د ط. القاهرة: 1967، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- 89 - الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربيّة، تونس: 2006، المنظمة العربيّة للتربيّة والثقافة والعلوم، مجلد 3.
- الأطاريح والأبحاث الجامعية:**
- 90 - بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني. فلسطين: 2002، جامعة النجاح الوطنية.

91 - عمارة فاطمة الزهراء، المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين 8 و 9 هـ. وهران: 2010، جامعة وهران.

- المراجع باللغة الفرنسية:

92 – Gautier E F , le passé de l’afrique du nord. Paris : 1952, les éditions de paris.

93 - Jean Michel Adam, la linguistique textuelle introduction à l’analyse textuelle des discours. 2eme édition. PARIS : 2008 , Armand colin.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

<u>الموضوع:</u>	<u>الصفحة:</u>
المقدمة.....	1

المدخل:

هوية المغرب الإسلامي.

1. جغرافية المغرب الإسلامي، وأشهر خصائصه، وقبائله.....	12
2. الحياة السياسية في المغرب الإسلامي.....	22
3. الحياة العلمية بالمغرب الإسلامي.....	30
4. قصة اللغة العربية في المغرب الإسلامي، وطريقة المغاربة في ترتيب حروف العربية وحساب الجمل.....	36

الفصل الأول:

المدرسة النحوية المغربية بين المدارس النحوية.

1. نشأة النحو وتطوره.....	47
أ. نشأته بالشرق.....	47
ب. نشأته بالمغرب.....	48
2. مفهوم المدرسة النحوية.....	51
3. المدارس النحوية المشرقية.....	54
4. وجود مدرسة نحوية مغربية.....	72
5. المعارضون لوجود المدارس النحوية.....	76
. خلاصة الفصل.....	88

الفصل الثاني:

الحركة النحوية والعلمية في المؤسسات العلمية بالمغرب الإسلامي.

- 1 . الرباطات 93
- 2 . الزوايا 95
- 3 . الكتاتيب 95
- 4 . المساجد 96
- 5 . المدارس 109
- 6 . عوامل ازدهار العلوم بالمغرب الإسلامي 133
- 1 . الرحلات العلمية 133
- 2 . المجالس العلمية 136
- 3 . خزائن الكتب 138
- . خلاصة الفصل 147

الفصل الثالث:

الاتجاهات النحوية بالمغرب الإسلامي.

- 1 . النحو البصري في المغرب 150
- 2 . النحو الكوفي في المغرب 155
- 3 . النحو البغدادي في المغرب 156
- 4 . النحو المصري في المغرب 162
- 5 . النحو الأندلسي في المغرب 165
- 6 . ظهور النحو المغاربي 166
- 7 . أشهر نحاة هذه المدرسة 185
- . خلاصة الفصل 190

الفصل الرابع:

التفكير النحوي عند المغاربة وصداه.

194	1. آراؤهم المختارة.....
205	2. آراؤهم الجديدة.....
216	3. مصطلحاتهم الجديدة.....
218	4. في التدرّج في عرض أبواب النّحو ومسائله.....
220	5. أدلّة النّحو في كتب المغاربة ومصادر الاحتجاج.....
220	1. السماع.....
229	2. القياس.....
234	3. استصحاب الحال.....
235	4. الاستحسان.....
237	6. نظريّة العامل والتعليل النّحوي.....
241	7. رأي العلماء في نحو المغاربة.....
242	8. نحو المغاربة في كتب النّحاة.....
247	9. آراء النّحاة المغاربة في قرارات المجمع المصري في العصر الحديث.....
248	10. خصائص المدرسة النّحويّة المغاربيّة من القرن الخامس إلى الثامن للهجرة.....
257	. خلاصة الفصل.....
258	الخاتمة.....
265	قائمة المصادر والمراجع.....
274	فهرس الموضوعات.....

الملخص: تبرز هذه الأطروحة المعنونة بـ (المدرسة النحوية المغاربية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري) فضل الشطر الغربي من العالم الإسلامي في تطوير النحو العربي، وذلك منذ القرون الأولى للهجرة، من خلال مشاركة أعلامه النحاة في مدارسته والنظر في مسأله، وتصنيف متون ومختصرات جابهت مؤلفات المشاركة، واشتهر بها مصنفوها كالجزولي وابن معط والمكودي وغيرهم كثيرون، وصارت مصادر أساسية للنحاة المشاركة والأندلسيين المتأخرين كابن هشام الأنصاري وابن مالك وأبي حيان الأندلسي وذلك في فترة حكم أقوى الدول التي تعاقبت على المغرب الإسلامي، وقد استطاع نحاة المغرب من تأسيس مذهب نحوي خاص بهم كان من أهم ميزاته نظم النحو وتيسيره.

الكلمات المفتاحية:

النحو العربي، المدرسة النحوية، المغرب الإسلامي، القرن الخامس، إلى القرن الثامن الهجري.

Intitulé de la thèse : L'école grammaticale maghrébine du 5^{ème} au 8^{ème} siècle de l'hégire.

Résumé : cette présente thèse dévoile les efforts des grammairiens maghrébins du 5^{ème} au 8^{ème} siècle de l'hégire soit du 11^{ème} au 14^{ème} siècle grégorien, dans l'étude grammaticale, des efforts qui ont abouté au développement de la grammaire arabe, laissant derrière eux des œuvres importantes, et marquant leur spécificité dans cette étude.